الجامع في الهدايات القرآنية

سُورَة التوبة

جمع واستنباط

نخبة من الأساتذة وطلاب العلم في التفسير والقراءات والحديث والعقيدة والفقه وأصوله واللغة العربية والتربية والعلوم الطبية وغيرها، من مختلف دول العالم عبر مجموعة واتساب متخصصة في الهدايات القرآنية

إشراف

أ.د. طه عابدين طه

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

رعاية

كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

ومؤسسة النبأ العظيم الوقفية بمكة المكرمة

قال تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١].

١. هنالك تكامل وتناسق دقيق بين سور القرآن الكريم في سورة الأنفال بيان حال من أعلن الإسلام وهو مؤمن، وفي سورة التوبة بيان حال من أعلن الإسلام وهو منافق، فباعتبار إعلان الإسلام هما سورة واحدة، وباعتبار حقيقة المعلن هما سورتان تقابلهما سورة يونس في بيان حال من أعلن الشرك، وكذلك لما قررت سورة الأنفال الدعوة إلى الإيمان الحق؛ جاءت سورة التوبة للبراءة ممن أشركوا في الإيمان، وكشفت حال المنافقين: الذين أظهروا الإيمان وأضمروا الكفر، وهذا المعنى كثيرٌ في نصوص الشرع الحكيم، وهو معنى الاثبات والنفي، وجاء في فاتحة سورة الأنفال بيان زيادة إيمان المؤمنين عند سماعهم لتلاوة آيات الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢]، وجاء في ختام سورة التوبة وصف زيادة إيمان المؤمنين الصادقين، مع زيادة استبشارهم بوعد الله، قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤].

٢. فيها تأكيد للولاء والبراء الذي تقدم ذكره في الأنفال وتطبيق عملي مع فئة معينة من المشركين المعاهدين مع المحافظة على العهد المبرم معهم.

٣. فيها جواز معاهدة المشركين بشروطٍ الواجب مراعاتها، جاءت في نصوص أخرى.

٤. فيها محافظة الإسلام والتزامه للعهود والمواثيق المبرمة مع الأعداء أو الأصدقاء.

٥. فيها: ذم ومقت الشرك وأهله، والبراءة من المشركين والكفار وإعلان ذلك؛ وهذه سنة المؤمنين من قديم كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام والذين معه: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

٦. فيها عظم خسارة المشركين والكفار ببراءة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم منهم.

٧. فيها تعديل السياسات والاستراتيجيات تبعا لمواقف العدو سلما وحربا عهدا ونقضا.

قال تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٢]

٨. فيها مناسبة لما قبلها؛ وهي ترتب الأمر ﴿فَسِيحُواْ﴾ على الخبر المتقدم ﴿بَرَآءَةٞ﴾. ووجهه: لما أعلن عن البراءة من المشركين اقتضى ذلك أمر المشركين أن يسيروا في الأرض أربعة أشهر آمنين؛ مراعاة للعهود التي سلفت.

٩. فيها: تلميح بانتشار الإسلام وسيطرته على الأرض كلها وقد كان؛ لقوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ حيث شئتم ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ فهو ممكّن منكم أولياءه. ولأنكم في قبضته مهما أبعدتم في الأرض.

١٠. فيها: تهديد ووعيد بأنهم إن لم يسلموا وينتهوا عن الكفر، أمكن الله منهم بالقتل والأسر كما فعل بهم من قبل. فكأن في الآية إعجاز غيبي؛ لأنها سيقت من أجل البراءة وفسخ العقد؛ فأمر الله نبيه أن يعلمهم ويمهلهم هذه الأربعة الأشهر، إشارة إلى أنه سيطولهم بعد انتهاء هذه المدة.

١١. فيها: دعوة لهم للإسلام والعزة، وتحذير شديد بعدم الإصرار على الكفر.

١٢. فيها: فضل الإسلام وعظمته وعلو كعبه في النبل ومحاسن الأخلاق؛ حيث أمهلهم ولم يعاجلهم بالقتل وقد تمكن منهم. وانظر وتأمل هذه المدة في حق من كان له عهد مطلق أو دون الأربعة؛ فهي كثيرة جدا ومنة عظمى وعليهم، ولا غرابة ففي عز الغلة يأمر بحفظ العهد مع من يخالفه؛ قال بعدها: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٤]. وقارن بين هذا وبين الكفار إذا تمكنوا من المسلمين؛ قال الله –في عبارات غاية في البلاغة والدقة–: ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة:٨] مجرد ظهور، فهل يمهلوكم أيها

المسلمون أربعة أشهر، أو حتى أربعة ساعات؟ والنصوص مستفيضة وخياناتهم كثيرة. وفيه عظة لمن اغتر بالكفار قديما وحديثا.

١٣. فيها: إشارة إلى: العناية بالحساب والدقة والإحصاء.

١٤. . ففيها: عناية الإسلام بالمواعيد؛ ولأن بانقضائها سيعمل فيهم السيف إلا من تاب أو كان له زيادة في المدة من قبل ولم يخن أو يظاهر، وقد عرف العلماء الاحصاء بتعريفات دقيقة عميقة؛ تبين لك معنى أهمية ما ذكر. قال في العين: والإحصاء: إحاطة العلم باستقصاء العدد.

١٥. فيها الإعلام عن ظهور الإسلام وقوته؛ وهو من الحرب النفسية التي تربك العدو، ومن ذلك امتلاك عنصر المبادرة، وتحديد مساحة التحرك.

١٦. فيها أهمية التمرحل لإظهار القوة.

١٧. بيان قوة الله وشدة بأسه لمن يستحق ذلك؛ ووجه الدلالة من قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾.

١٨. فيها: دفع لإيهام الكفار؛ بألا يظنوا أن الله أمهلهم كرامة لهم ــ مثلا ــ، أو أنهم في سعة من أمرهم بهذه السياحة في بقائهم على الكفر.

١٩. فيها: تحدٍّ لهم بأنهم لن يقدروا على مواجهة الإسلام.

٢٠. فيها: أن الشرك قد اضمحل ولم تعد له دولة. وجهه: هذا الإمهال وهذه المدة.

٢١. فيها التحذير من الكفر وأنه سبب الخزي في الدنيا والآخرة.

٢٢. التعبير بالجملة الاسمية ﴿مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يفيد الثبوت والدوام، فالخزي سمة للكافرين ثابت لهم في كل وقت وحين.

قال تعالى: ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣].

٢٣. تفيد الآية الكريمة في كلمة ﴿ وَأَذَٰنٌ﴾؛ أن الأمور المهمة التي تتعلق بالدين مثل البراءة من الشرك وأهله لا بد من إيضاحها للناس كافة.

٢٤. وتفيد ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أن مصدر التشريع هو القرآن والسنة على حد سواء، لأن الواو تفيد اشتراك المتعاطفين في الحكم.

٢٥. وتفيد ﴿ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾؛ أنه ينبغي تحري الأحوال والوسائل الأكثر جمعا تأثيرا للناس. وتنزيله في الواقع يكون باختيار الوسائل وتقنية المعلومات الأكثر استخداما، وهي تختلف باختلاف الأحوال والأماكن والأقوام..

٢٦. تفيد: أن العمرة، حج أصغر. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وأيضا فإن العمرة هي الحج الأصغر بدليل قوله سبحانه: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ فإن الصفة إذا لم تكن مبينة لحال الموصوف فإنها تكون مقيدة له ومميزة له عما يشاركه في الاسم فلما قال: ﴿ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ علم أن هناك حجا أصغر لا يختص بذلك اليوم لأن الحج الأكبر له وقت واحد لا يصح في غيره والحج الأصغر لا يختص بوقت وقد روى الدارقطني عن ابن عباس قال: الحج الأكبر يوم النحر والحج الأصغر العمرة.

٢٧. فيها: إعلام المشركين بقوة الله وبطشه.

٢٨. تفيد: ما ورد في الحديث: "فليبلغ الشاهد الغائب" [رواه البخاري]؛ لأنه لا يمكن إعلام جميع الناس إلا بالبلاغ.

٢٩. فيها: سعة كرم الله وفضله؛ حيث دعاهم إلى التوبة ورغبهم فيها بعد الإعلام بالبراءة. وهذا يدلك على أن هذا الكلام، كلام الله. وأن الإسلام يريد الخير والسعادة للبشرية مهما بلغ سلطانه وقوته وهيمنته.

٣٠. تفيد بأن التوبة خير للمشركين وللكفار، وأن توبتهم لا تكون إلا بالإيمان بالله ونفي الشرك عنه سبحانه وتحقيق البراء من أهل الشرك.

٣١. فيها: أن للذنب توبة مهما عظم وغلظ؛ لأنه دعا المشركين إليها ولا أكبر من الشرك.

٣٢. تفيد: التحذير من المكابرة والإصرار على الباطل؛ لقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أصررتم وكابرتم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ تهديد ووعيد وتخويف.

٣٣. تفيد: أن البشارة تكون في الخير والشر، إلا أنها من حيث الأصل أنها في الخير، وقد تخرج عن معناها إلى الضد.

٣٤. فيها: مواجهة الكفار المعاندين والتصريح لهم وتبشيرهم بعذاب الله الأليم؛ إن أصروا على ما هم عليه، فينبغي إسماع الكفرة آيات العذاب.

٣٥. فيها التخويف من عذاب الله عز وجل بوصفه بالأليم مؤلم للأبدان والقلوب والأرواح.

٣٦. دلت الآية المباركة على نموذج البيان الإعلامي القرآني المتكامل حيث حددت عناصره بالآتي:

- الموضوع: ﴿وَأَذَانٌ﴾ إعلام، إعلان، تعميم بلغة العصر.
- المصدر: ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. المستهدفين: ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ جميع الناس.
- وسائل نقل الإعلام والتعميم: ﴿النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾.
- مضمون النص الإعلامي: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾.
- معينات الاهتمام بالمضمون: أسلوب الترغيب ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ والترهيب ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ الآية.

قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]

٣٧. فيها أهمية الوفاء بالعقود والالتزام بها في الشريعة الإسلامية.

٣٨. أن الالتزام بالميثاق المتفق عليه (دين)، ومن أصول أهل الديانة، وهو من تعظيم دين الله عز وجل، ومن تعظيم " النص الشرعي "، وأنه من موجبات تقوى الله، ومن موجبات محبته.

٣٩. سماحة الإسلام وعدله حتى مع المخالفين له بالرأي في العهود طالما لم يحصل منهم نقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٤]، فالسماحة دين (رحم الله رجلاً سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى) [رواه البخاري]. أيا كان هذا الرجل.

٤٠. نصرة أعداء الإسلام ومعاونتهم على المسلمين من نواقض العقود والاتفاقيات.

٤١. فيها: إثبات صفة المحبة لله.

٤٢. تفيد: أن مجرد المظاهرة، خيانة تستوجب النقض والعقوبة كما فعل ببني قريظة.

٤٣. فيها إشارة إلى: أهمية تحديد المدة في العقود، وأنها هي الأصل. وهذا أمر في غاية الخطورة والأهمية في المعاملات.

٤٤. تفيد: وجوب إتمام شروط العقد، وعدم الإنقاص منه شيئا، وأن الإخلال بالعقد يحق فيه الفسخ.

٤٥. تفيد: أن الوفاء بالعهد مع الكفار من "تقوى الله"، فما الظن إذا كان الوفاء مع أهل الإسلام. فهل رأيت دينا مثل هذا الدين؟

٤٦. فيها: دقة التعبير والبيان؛ لقوله تنبيها: ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾، ولم يكتف بقوله: ﴿ فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾- مع أنه يستقيم -، لكنه أكد ونبه على المدة لأمور: منها: للتنبيه على أنه عهد مؤقت، ومنها: أنه لا عهد ولا عقد إلا فيما يتعلق بالمدة فحسب. ومنها: دفعا للإيهام الذي يتخلل، لا سيما فيما يتعلق بالعقود والحروب. وهذا للفريقين؛ فللمؤمنين: بأن يحفظوا العهد مهما طالت مدته أو قصرت. وللمشركين: بأن ينتبهوا للمدة حتى لا يفاجئهم السيف، وحتى لا يطمعوا في الزيادة، وحث لهم على الدخول في الإسلام لأنه خير لهم.

٤٧. تفيد أن العقود تبنى على الدقة والتأكيد. وهذا مشاهد في صيغ العقود؛ فإنها مشحونة بمثل هذا.

٤٨. تفيد أنه لا مانع من الاتفاقيات والمعاهدات الدولية بشـــرط ألا تتعارض مع الشـــريعة الإسلامية وقد جاء في الحديث" إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا"(١).

٤٩. فيها: أن تقوى الله، تكون بمراعاة حق الله وحق الخلق؛ لا سيما والذكير بالتقوى في سياق المعاملات.

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٥].

٥٠. الانسلاخ فيما نحن فيه استعارة حسنة وتحقيق ذلك أن الزمان محيط بما فيه من الزمانيات مشـــتمل عليه اشـــتمال الجلد على الحيوان وكذا كل جزء من أجزائه الممتدة كالأيام والشـــهور والسنين، فإذا مضى فكأنه انسلخ عما فيه، وفي ذلك مزيد لطف لما فيه من التلويح بأن تلك الأشهر كانت حرزا لأولئك المعاهدين عن غوائل أيدي المسلمين فنيط قتالهم بزوالها.

٥١. تفيد: أن العقيدة الفاسدة تهدر الدم وتبيح المال الذي يملكه صاحب تلك العقيدة.

٥٢. تفيد قاعدة: المسايفة عند القوة. والمسالمة عند الضعف.

٥٣. فيها تعظيم الأشهر الحرم التي عظمها الله.

٥٤. فيها الأمر بمراقبة خطط الأعداء لمحاربة الإســـلام وأهله في كل زمان ومكان وأخذ الحيطة من مكرهم واتخاذ كافة إجراءات حماية البيضة، وقطع السبل التي تسهل لهم النيل من الإسلام وأهله ومحاصرتهم بكل وسيلة ممكنه سواءً كانت حرباً فكرية أو عسكريه ﴿ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ ﴾.

(١) أخرجه الترمذي٣/٢٨ وابن ماجة ٢/٧٨٨وصححه الألباني.

٥٥. تفيد: أن الإسلام أولى وأحق بالبر والعدل والإحسان من غيره. وأنه لا يدع باب خير كانوا يفعلونه إلا أتاه وأمر به، ولا حرمة بحق إلا عظمها. ووجهه: أن المشركين كانوا يعظمون الأشهر الحرم ويدعون القتال فيها؛ فأمر الله بذلك أيضا، فشتان بين أفعال المؤمنين والكافرين. ونحو ذلك، صيام النبي ﷺ عاشوراء، وقال: "نحن أولى بموسى منهم فصوموه". [رواه البخاري].

٥٦. فيها: الأمر بقتال المشركين ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، وأسرهم ﴿وَخُذُوهُمۡ﴾، والتضييق عليهم ومنعهم من التصرف في البلاد ﴿وَٱحۡصُرُوهُمۡ﴾، ومراقبة حركتهم ﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٍ﴾؛ كل هذا من أجل شركهم بالله، من أجل ذلك يسعى الكفار والمنافقون سعيا حثيثا، عدم تمكن المسلمين. كما أنهم يسعون إلى عدم نشر هذه النصوص ومنعها – ولكن هيهات.

٥٧. ففيها: شدة مقت الله للشرك وأهله.

٥٨. فيها إرشاد للمؤمنين لامتلاك زمام المبادرة لإظهار عزة الدين في طرق التعامل (استراتيجيات) مع الأعداء؛ وزيادةً في تجلية تلك الطرق مع شدة وضوحها في الآية الكريمة:

أولاً: قتالهم في كل زمان أو مكان إذا لم ينزلوا لحكم الله ورسوله فيهم، وهو أعلاها وأقواها.

ثانياً: وهو يتبع أولا: أسرهم ﴿وَخُذُوهُمۡ﴾ ويكون بالقوة القاهرة المذلة للعدو.

ثالثاً: حصارهم ﴿وَٱحۡصُرُوهُمۡ﴾؛ لإضعافهم، وأشده الحصار المكاني – بمنع خروجهم والدخول إليهم– والحصار الاقتصادي – بشل حركتهم التجارية– مثاله في حال ضعف المسلمين: حصار غزة.

رابعاً: مراقبة العدو ﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٍ﴾وفيه (تأصيل لمفهوم الاستخبارات العسكرية) لرد كيد العدو، ومؤامراته؛ ويلحق بذلك الرصد عدم إفساح المجال لهم بالسياحة في بلاد المسلمين، فضلا عن تمكينهم وتمكين معتقداتهم، وثقافاتهم.

٥٩. تفيد أن تعظيم الأشهر الحرم من تعظيم الله وشرعه.

٦٠. فيها ظهور وعزة الاسلام وقوته بعد الضعف.

٦١. فيها اختيار الله سبحانه لبعض الأشياء تفضيلا على غيرها لحكمة يعلمها كالأشهر الحرم من بين الشهور.

٦٢. تفيد: أن غاية الجهاد، تعبيد الناس لله رب العالمين وجه ذلك: أنه أمر بالكف عنهم، إن هم أسلموا لله بإقامة شعائر الإسلام، من صلاة وزكاة. وأيضا ختامها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لأن الإسلام يجب ما قبله. وهذا من سعة رحمة الله، ومحاسن هذا الدين العظيم. والعجيب ومع هذا البيان الرباني، هناك من يشنع على الإسلام بمطلع هذه الآية، لكنه يقتطع منها بقيتها، وهذا ظلم وعدوان بيّن ولو أرادوا الحق لوجدوه وعليه: إذا وجدنا من يحتج بنص على شبهة، طالبناه أولا بالنص كاملا، وإن أتى به كاملا، نضمه مع النصوص الأخرى الواردة في الباب المطروق؛ فبهذا تدمغ شبهتهم وتدحض حجتهم، كما نبه على معنى هذا الكلام الحافظ ابن حجر فقال: "لأن الأحاديث إذا ثبتت وجب ضم بعضها إلى بعض فإنها في حكم الحديث الواحد، فيحمل مطلقها على مقيدها ليحصل العمل بجميع ما في مضمونها"(١).

٦٣. فيها: الحث على التوبة؛ وأعظمها، التوبة من الشرك بالله.

٦٤. فيها: عرض التوبة على الأسير، وتخلية سبيله بعد توبته مباشرة؛ لأن أمره بالتخلية في حق الأحياء (الأسرى). وكما لا يخفى: أن معاملة الأسير والسجين في الإسلام له فقه واعتبار؛ فيجب الإسراع في فكاكه وتخليته، إذا تاب الأسير وظهرت براءة السجين. وهذا من محاسن هذا الدين.

٦٥. فيها فضل التوبة وأنها تجب ما قبلها حتى الشرك؛ لقوله: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾.

٦٦. تفيد: مكانة الصلاة والزكاة في الشرع.

٦٧. فيها دلالة على وجوب حفظ دم كل من أسلم وأقام الصلاة وآتى الزكاة، إلا في حد من حدود الله.

---

(١) الفتح ١١/٢٧٠.

٦٨. فيها ضـــرورة البرهان العملي الظاهر لمن ادعى التوبة أو الدخول في الإســـلام وهو التزام العمل بالشـــعائر العملية الظاهرة وإظهارها وهي الصـــلاة والزكاة. ولذلك قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾.

٦٩. فيها أهمية شـعيرة الزكاة؛ ولذا قال أبو بكر رضـي الله عنه لما قاتل مانعيها: (وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ) [البخاري ٦٨٩٣].

٧٠. فيها: أن الصلاة والزكاة، أعظم شعائر الإسلام بعد الشهادتين. وقد قرن الله بينهم كثيرا.

٧١. فيها: أن من دلائل صدق التوبة وصحتها إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة.

٧٢. فيها: أن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة من دلائل الإيمان، والصلة وهي نوعان:

الأولى: أن الصلاة صلة بين العبد وبين ربه جل وعلا.

والثانية: أن الزكاة صلة بين العبد وبين إخوانه المؤمنين من أهل الحاجة.

كما يجمع بين الصلاة والزكاة صلة خاصة بينهما في كتاب الله في مواضع كثيرة.

٧٣. فيهـا: أن ختم الآيـة بالاسمين الكريمين "الغفور الرحيم" يفتح باب المغفرة والرحمـة أمـام الآبقين من حظيرة العبودية لله لرب العالمين.

٧٤. فيها تعظيم الصلاة بأن تكون قائمة قويمة؛ لقوله: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يقل صلوا فقط.

قال تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

٧٥. فيها مشروعية إجارة المستجير الذي يرغب في التعرّف على الإسلام وسماع القرآن وتبليغه مأمنه بعد السماع.

٧٦. فيها رحمة الإسلام بالمخالف وحفظ حقوقه والحرص على تذليل العقبات أمامه لتشجيعه للدخول في الاسلام، أو تقام عليه الحجة وينقطع عنه العذر.

٧٧. فيها تأكيد عدم الإكراه على الدخول في الدين وإنما تذليل العقبات والحواجز التي تحول بين الناس وبين التعرف على الدين وتفهمه، على وجه تزول به الشبهة.

٧٨. فيها الحرص على هداية الناس ولو كانوا مشركين، وفي ذلك الأحاديث المتواترة المتضافرة المتكاثرة في فضل هداية الخلق للحق.

٧٩. فيها الحرص على هداية الناس ولو كانوا مشركين.

٨٠. فيها أهمية إقامة الحجة على المشركين.

٨١. فيها الرد على القائلين بأن القرآن مخلوق لبيانها أن الله تعالى هو المتكلم به؛ ولذا أضافه إلى نفسه تعالى من باب إضافة الصفة إلى الموصوف كما في سائر صفاته.

٨٢. فيها تأكيد أن الإسلام دين الأخلاق والقيم.

٨٣. فيها التنبيه على حث المسلمين على التعريف بالإسلام وبالقرآن وإسماع الكفار كلام الله تعالى. ولذا استنبط منها الفقهاء جواز دخول الكافر مساجد المسلمين – حاشا الحرمين – ليسمعوا القرآن ويتفهموه.

٨٤. فيها أن البيئة تؤثر على الهداية وجودا وعدما.

٨٥. تفيد: أهمية إسماع الكفار آيات الله، والإكثار من ذلك في الدعوة والمناظرات. وهذا أمر فيه تقصير شديد؛ عند أولئك المهتمين بهذه المناظرات؛ قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾، أي: بالقرآن.

٨٦. تفيد: أن الأصل في القرآن – العلم، السماع والتلقي؛ لا سيما فيما يتعلق بعلوم القراءات. وهذا بغض النظر عن كون السماع في الآية أنسب للأحداث الجارية مع المشركين.

٨٧. فيها جملة توجيهات للمصلحين والدعاة:أفادت النكرة في قوله ﴿أَحَدٞ﴾ عدم التفرقة، والتمييز بين طالبي الاستجارة من المشركين بنوع تفضيل أو محاباة من ذكر أو أنثى؛ وبالتالي حث التوجيه على المساواة في أصل الحقوق الإنسانية التي أذن فيها الشرع.

٨٨. منها: الحرص على رد الشبهات التي كثرت في الآونة الأخيرة في الوسائط الإعلامية المختلفة؛ التي انحرف بسببها كثير من أبناء المسلمين فضلا عن صد غيرهم عن سماع كلام الله والهدى والحق الذي جاء به.

٨٩. فيها، وبضميمة ما سبق: جواز حذف ما كان معلوما من السياق؛ لقوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾، يريد: استجارك ليسمع القرآن، أي: يسمع القرآن فقط وليس لغرض آخر؛ لأنه لا عهد لأحد بعد الأربعة الأشهر التي خلت – إما التوبة وإما السيف؛ إلا من كان له عهد بأكثر منها، فحينها هو مستأمن بهذا العقد، فلا حاجة له في أن يطلب الأمان وهو مأمن بطبيعة الحال؛ فدل أن المراد من قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ ليسمع القرآن ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

٩٠. فيها إنشاء مؤسسات تعليم القرآن لغير المسلمين ليسمعوا كلام الله ويتعلموه من مصادره. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وقوله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ قد علم أن المراد أنه يسمعه سمعا يتمكن معه من فهم معناه، إذ المقصود لا يقوم بمجرد سمع لفظ لا يتمكن معه من فهم المعنى، فلو كان غير عربي وجب أن يترجم له ما يقوم به عليه الحجة، ولو كان عربيا وفي القرآن ألفاظ غريبة ليست لغته، وجب أن يبين له معناها، ولو سمع اللفظ كما يسمعه كثير من الناس ولم يفقه المعنى وطلب منا أن نفسره له ونبين له معناه فعلينا ذلك.

٩١. تفيد كمال عدل الله تعالى.

٩٢. فيها: أن القرآن، أمان للعبد؛ فإذا كان الله قد أمر بإجارته وحمايته لأجل أن يسمع كلامه، فما الظن بأهل الله وخاصته أهل القرآن؟ فوجب تأمينهم وحمايتهم وعدم تفزيعهم.

٩٣. منها: أهمية العناية باستتباب الأمن لقبول الدعوة.

٩٤. فيها: رد على الكفار والمنافقين، الذين يزعمون أن الإسلام متعطش للدماء – حاشاه –؛ لقوله: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾؛ إذ لو كان كما يقولون، لأمر بقتله في الحال طالما لم يسلم بعد سماع

القرآن؛ لا سيما وقد تمكن منه وصار في قبضته! بل إنه تعالى أمر نبيه أن يؤمنه ويسمعه كلام الله لعله يقنع بالإسلام، فإذا لم يقنع به وأصر على الكفر، أمره أن يبلغه مأمنه؛ إذ لو أسلم لما كان هناك حاجة لتبليغه مأمنه وقد أمن بالإسلام.

٩٥. فيها: أن الإسلام، أمان للناس جميعا.

٩٦. فيها أن أعظم الجهل هو الكفر بالله تعالى؛ ولذا نفى عنهم العلم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ وما كان عندهم من علم بالماديات فهي كما قال تعالى ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾[الروم:٧] فهو لا يتجاوز مظاهر الحياة الدنيا.

٩٧. تفيد: جواز ترجمة القرآن و أهمية ترجمته للكفار عامة، وهؤلاء المأمنين خاصة؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾، سماع فهم؛ ليحصل المقصود وليس مجرد السماع. فإذا كان أعجميا، يترجم له؛ بقرينة: ﴿ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾. فالسماع المذكور في الآية، سماع فهم؛ وليس مجرد سماع الحاسة. وهذه أحسبها دقيقة.

٩٨. تفيد أن الشرك جهل وسفه في العقل؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

قال تعالى:﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٧].

٩٩. الالتزام بالعهود والمواثيق كما أراد الله عز وجل وأمر من تقوى الله.

١٠٠. تفيد: أن الإسلام ينهى أتباعه عن الجبن؛ لأن مفهومها: إن غدروا ولم يستقيموا لكم، فلا تستقيموا لهم، بل ووجب عليكم معاملتهم بالعقوبة.

١٠١. تفيد: أن الأماكن تتفاضل؛ وإلا فيجب الوفاء بالعهد في أي مكان كان، لكنه يشتد إذا كان في الحرم، ولأن اخلاف الوفاء معصية، والمعاصي يعظم اثمها في الزمان والمكان الفاضلين، ولذا أُوكد الإيفاء به في الحرم.

١٠٢. تفيد أن مكة كلها مسجد حرام، لأن عادة القرآن إذا أطلق المسجد الحرام يراد به مكة. ﴿عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ هنا قرب مكة كما قال قتادة يوم الحديبية. وفي المسألة قول آخر وهو اختصاص المسجد الحرام بمسجد الكعبة، والعلم عند الله تعالى.

١٠٣. أعظم العهود والمواثيق هو توحيد الله، فمن نقضه وخان نفسه، فكيف يؤتمن على غيره.؟!

١٠٤. الوفاء بالعهد، قيمة مطلقة منبعها الإيمان بالله، لا كما يراها الغرب من زاوية المنفعة والضعف والمصلحة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾.

١٠٥. تفيد تأصيلا لمبدأ المعاملة بالمثل بين الدول والكيانات؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡ﴾.

١٠٦. تفيد أن مبدأ المعاملة بالمثل من أقوى الأسلحة القانونية التي تمتلكها الدولة في إطار علاقاتها الدولية؛ وما يتعلق بالاتفاقات والمعاهدات المبرمة بينها وبين دولة أخرى.

١٠٧. تفيد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾أنَّ الوَفاءَ بِالعَهْدِ والِاسْتِقامَةَ عَلَيْهِ مِن أعْمالِ المُتَّقِينَ، فَيَكُونُ تَعْلِيلًا لِلْأمْرِ بِالِاسْتِقامَةِ.

قال تعالى: ﴿ كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨].

١٠٨. تفيد حسن أساليب القرآن في التشنيع بالمشركين، فالبدء باسم الاستفهام ﴿كَيۡفَ﴾ يدل على الإنكار، والتعجب، وهذا الاشتراك في البداية بـ﴿كَيۡفَ﴾ لم يتكرر في غيرها في القرآن الكريم.

١٠٩. تفيد أهمية بيان الأسس والقرائن التي اعتمد عليها واستند إليها صاحب القرار لإقناع السامعين بصحة قراراته؛ حيث دلَّ قولُه تعالى: ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗ﴾ على أنَّ مَن كانت حالُه أنَّه إذا ظهَرَ لم يَرقُبْ ما بيننا وبينه مِن العَهدِ- لم يكُنْ له عَهدٌ؛

لأنَّ مَن جاهَرَنا بالطَّعنِ في ديننا، كان ذلك دليلًا على أنَّه لو ظهر لم يَرقُبِ العَهدَ الذي بيننا وبينه؛ فإنَّه إذا كان مع وُجودِ العَهدِ والذِّلَّةِ يفعلُ هذا، فكيف يكونُ مع العِزَّةِ والقُدرةِ؟!

١١٠. فيها أن الإنسان لا يظهر على حقيقته في مواقف الضعف والذلة والهوان.

فيها أن الكلام سبيل من سُبل إرضاء الناس. على حد قول الشاعر:

لا خيل لك تهديها ولا مالُ فليسعد القول إن لم يسعد الحال

١١١. فيها: دقة التعبير، وأن المشركين لا تأخذهم رأفة بالمسلمين أبدا؛ لقوله: ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ نكرة؛ للدلالة على خيانتهم في أي عهد – دق أم غلظ، وعدم مراعاتهم في ذلك لأي قرابة كانت – قربت أم بعدت؛ وهذا من شدة كراهيتهم للمسلمين.

١١٢. تفيد بيان لؤم طباع هؤلاء المشركين؛ ودناءة صفاتهم وخسة أفعالهم؛ وأنهم بعيدون عن صفات الكرام الذين إذا ظفروا غفروا؛ وإذا قدروا ما غدروا.

١١٣. تفيد: أن الصدق والوفاء، يتضمن مواطأة القلب للسان.

١١٤. تفيد أن من صفات المشركين المداهنة، وهي بذل الدين لصلاح الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾.

١١٥. تفيد: أن الحكم، للغالب الشائع لا للنزر اليسير، ونادر الوقوع.

١١٦. تفيد: وجوب السعي إلى عدم ظهور المشركين.

١١٧. تفيد: أن المشركين ينافقون. وعليه: فالمنافق، أخو المشرك، فليحذر ويقلع المغتر بالكفار.

١١٨. تفيد أن مقياس الأخلاق حال امتلاك القوة، فعند القوة تظهر أخلاق الناس وخبايا نفوسهم، ولإن في حال العجز فالناس سواء.

١١٩. فيها: رد على المشنعين على الإسلام؛ لقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾، ولم يقل: "كلهم"، فهل هناك عدل وإنصاف ودقة مثل هذا؟!.

١٢٠. تفيد أن نقض العهد من أعظم الفسق؛ قال البغوي في قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾. فإن قيل: هذا في المشركين وكلهم فاسقون فكيف قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾؟ قيل: أراد بالفسق: نقض العهد، وكان في المشركين من وفى بعهده، وأكثرهم نقضوا، فلهذا قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩].

١٢١. تفيد حرص الكفار والمشركين على حطام الدنيا؛ للتعبير بالشراء ﴿ٱشْتَرَوْا۟﴾ الذي يدل على الحرص والرغبة، وهذا يدل على ضلالهم وجهلهم. وأنهم تعاطوا أبخس التجارات وأخسها هي المتاجرة بالدين مقابل حطام الدنيا الزائل، حالهم كما قال ابن القيم رحمه الله:

قد باع طيب العيش في دار النعيـ ـم بذا الحطام المضمحل الفاني

١٢٢. فيها فضل الآيات القرآنية وشرفها لإضافتها إلى الله عز وجل العزيز الحميد.

١٢٣. فيها أن أبخس التجارات وأخسها هي المتاجرة بالدين مقابل حطام الدنيا الزائل.

١٢٤. تفيد: أنه مهما دُفع من المال مقابل آيات الله، فهو لا يساوي شيئاً؛ لأن آيات الله لا يقيمها البشر، لكن لما رخصت السلعة في قلوبهم، رضوا بالثمن القليل.

١٢٥. التجارة الخاسرة هي التي يصبح فيها الدين بضاعة، والثمن الصد عن سبيل الله.

١٢٦. تفيد: أن اعتبار العمل بالمفهوم له شروط؛ بل قد يكون العمل بالمفهوم واعتباره كفراً، كما في قوله تعالى" محمد رسول الله" افاده الشيخ محمد الأمين في نثر الورود، أن العمل بالمفهوم، ليس مطردا ولا حجة مطلقة؛ لأنه لا معنى للمفهوم في قوله ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، فهل يقال: اشتروا بها كثيرا – مثلا –، كما في قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ وكما يقول المشنعون على الإسلام، وأولئك الذين يفتون بجواز أكل الربا إذا كان قليلا – افتراء على الله، مستدلين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ

تُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: ١٣٠]، فعملوا بمفهومها فضلوا وأضلوا. وأما عن الشنعين على الإسلام من الكفار (المستشرقين) والمنافقين، فإنهم يقولون في قوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور:٣٣]. بهذا الإسلام يبيح البغاء إذا لم يكن مكرهات – قاتلهم الله. ألم يبلغهم قول الله: {ولا تقربوا الزنا}، مجرد قرب، ونهي رسوله عن الخلوة.

١٢٧. تفيد: أن الله أنزل الآيات ليعمل بها ويدعى إليها؛ فليست لمجرد القراءة والعكوف عليها دون الدعوة إليها؛ لقوله: ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ بمنع إيصالها للناس، بعدما أعرضوا هم واعتاضوا عنها حقيرا.

١٢٨. تفيد، وبضميمة ما قبلها: أن من خان الله، فهو للناس أخون؛ لقوله قبلها ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ وكأنه يقول: "وكيف يرقبونه فيكم، وهم قد خانوا الله وشروا بآياته ثمنا قليلا؟.

١٢٩. تفيد بمفهومها أن الدعوة إلى الله، خير الأعمال؛ ولذا قال مالك لما سأله ربيعة الرأي : من السفلة؟ قال: قلت: " من أكل بدينه " قال: فمن سفلة السفلة؟ قال: " من أصلح دنيا غيره بفساد دينه).

١٣٠. في: قوله ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ توضيح لتأصل القبائح عندهم بل هي جبلتهم.

قال تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠].

١٣١. تفيد: استمرار عداوة المشركين للمؤمنين؛ دل عليه المضارع في قوله:﴿لَا يَرْقُبُونَ﴾.

١٣٢. فيها: دقة التعبير والبيان؛ لقوله: ﴿فِى مُؤْمِنٍ﴾ نكرة؛ للدلالة على عداوتهم الشديدة لأي مؤمن ولو كان فاسقا؛ فإنهم لا يرضون إلا بالكفر. وهذه مهمة جدا، أن الفجور والفسوق لا يشفع عند الكفار، فقط يريدون منك أن تكون مثلهم في الكفر؛ ومن فوائده عدم السعي مطلقا في إرضائهم ولو بشطر كلمة.

١٣٣.فيها رسالة للمنادين بحقوق الإنسان، تتمثل في: أن الإسلام دينٌ يحفظ حق أصحابه ويأمر بمراعاة ذممهم.

١٣٤.فيها: أن التكرار زيادة في الفوائد، وكما قال ابن تيمية – رحمه الله –: "ليس في القرآن تكرار محض، بل لا بد من فوائد في كل خطاب"(١). وكما قيل لكل اعادة افادة.

١٣٥.تفيد أن الذين ينتظرون عدالة وكرامة من دول الكفر والطغيان واهمون، وهم عبر التاريخ لا يزيدون الأمة إلا وهنا.

١٣٦.تفيد الإشارة إليهم بإشارة البعيد "أولئك" الدلالة على بعدهم في الشر والسوء والاعتداء وقبح الصفات.

١٣٧.فيها أن ما خفي في النفوس لابد أن تظهره المواقف. قال زهير بن أبي سُلمي المزني:

ومهما تكن عن امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلمِ

١٣٨.تفيد مع ما قبلها أنه كلما كَثُرَ فسق الإنسان كَثُرَ اعتداؤه.

١٣٩. تفيد: الحذر من الكفار، وإن بان للمسلم مسالمتهم وودهم.

قال تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [التوبة: ١١].

١٤٠.فيها: سعة رحمة الله عز وجل حيث فتح لأولئك القوم مجال التوبة والقيام بحقوق الإسلام فتثبت لهم أخوة الإسلام.

١٤١.تفيد ما عليه جادة العلماء من ذكر الشروط في بعض العبادات والعقود، فالآية شاهد لذلك لما تضمنته من فعل الشرط وجوابه.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٤/٤٠٨

١٤٢.فيها: أهمية فرض الزكاة بعد عظم حق الصلاة ولهذا قاتل أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم من منع الزكاة.

١٤٣.تفيد مع ما قبلها أن شعيرتي الصلاة والزكاة من أعظم العلاجات النفسية للمرء؛ والتي تعالج سلوكياته الخاطئة تجاه إخوانه المؤمنين؛ وتحول البغضاء والشحناء والعداوات إلى المحبة والأخوة والتعاون والمودة والرحمة؛ فبعد أن قال تعالى في الآية السابقة: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ قال بعدها: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾. فانظروا كيف تحولت تلك الحالة السيئة إلى حالة أخوة ومحبة بعد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ فيا لعظم هذا العلاج الرباني.

١٤٤.ومن هنا تظهر للمتأمل والمتدبر بعض الفوائد من ذكر هاتين الشعيرتين؛ مع أن الكافر لو أسلم ولم يصل لأنه لم يدخل وقت الصلاة؛ ولم يزك ماله لأنه لم يحل عليه الحول فهو أخونا في الدين ولا شك؛ ولكن لعظم فوائد هاتين الشعيرتين ذكرتا في هذا السياق.

١٤٥.تفيد أن التخلية ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ مقدمة على التحلية ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

١٤٦.تفيد أهمية التحقق ممن دخل الإسلام حديثا ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ حتى لا يؤتى الإسلام، والمسلمون من قبله.

١٤٧.تفيد: معاملة من أسلم على ظاهره وعدم التنقيب عن نيته؛ وكما قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء:٩٤]. ولقول النبي ﷺ: "وحسابهم على الله". [متفق عليه]. وفي الحديث عند البخاري:... قال خالد بن الوليد: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ قال: «لا، لعله أن يكون يصلي» فقال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه، قال رسول الله ﷺ: «إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم» [البخاري]، وهذا عام في كل المسلمين؛ يكتفى ويعاملون بظاهرهم.: قال الشاطبي في الموافقات: "فإن أصل الحكم بالظاهر مقطوع به في الأحكام خصوصا، وبالنسبة إلى الاعتقاد في الغير عموما أيضا".

١٤٨. تفيد أن أخوة الإسلام تستند على هذه الأمور الثلاثة: التوحيد، إقامة الصلاة، إيتاء الزكاة.

١٤٩. تفيد مع ما قبلها أن الدين الإسلامي يزرع قيم التسامح والتآخي والمحبة في نفوس أتباعه (القديم منهم والحديث)؛ ويحثهم على نسيان الماضي العنيف والمؤلم؛ ويرغبهم في التجاوز عن الزلات والظلم والاضطهاد والأفعال الشنيعة التي قام بها حديثو العهد بالكفر قبل إسلامهم على المسلمين وعدم مؤاخذتهم في شيء من ذلك؛ فإن الإسلام يجب ما قبله؛ والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

١٥٠. تفيد أن الأخوة في الدين رحم مقدم على إخوة الرحم؛ لتعلقها بعقيدة الولاء والبراء.

١٥١. تفيد، وبضميمة ما قبلها: أن الأخوة الإيمانية، تعصم من القتل والاعتداء. وفي الحديث المتفق عليه: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله" [متفق عليه].

١٥٢. فيها التنبيه الى الأخوة في الدين. ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ وهي الأخوة الإيمانية الراسخة المقدمة على أخوة الحسب والنسب والأوطان والمصالح، ولا شك أن الأخوة الدينية أوثق من أخوة الطين كما قيل.

١٥٣. فيها: أن الأخوة الإيمانية مدعاة للكف عمن أظهرها حتى يرتكب ما يوجب المؤاخذة. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: "حرّمت هذه الآية دماء أهل الصلاة".

١٥٤. تفيد مع ما قبلها أهمية تقديم الخيار الأفضل والتوقع الأجمل للمستقبل الذي يعزز روح التفاؤل في النفوس؛ وينشر السلام والمحبة بين القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾.

١٥٥. تفيد مع ما قبلها أن خيار التسامح والتآخي والمحبة بين الفرقاء والخصوم في إطار الأخوة الدينية الحقة هو الخيار الأول والأجمل والأفضل لدى الشارع الحكيم.

١٥٦. تفيد مع ما قبلها أن الشارع الحكيم يتيح الفرصة لأهل الباطل بالرجوع إلى الحق ومد جسور المحبة والأخوة مع أهل الحق؛ قبل اتخاذ أي قرار تصعيدي قد يصل إلى القتال والمواجهة العسكرية. وفي الحديث عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا غزا بنا قوما، لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذانا كف عنهم، وإن لم يسمع أذانا أغار عليهم[1]. وهنا ففي الأولى قال: ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ وهذا جزاء توبتهم، والثانية قال ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ يعني خلوا سبيلهم بسبب أنهم أصبحوا إخواناً لكم في الدين قال الطاهر ابن عاشور: ولَمّا كانَ المقامُ هُنا لِذِكْرِ عَداوَتِهِمْ مَعَ المؤْمِنِينَ جُعِلَتْ تَوْبَتُهم سَبَبًا لِلْأُخُوَّةِ مَعَ المؤْمِنِينَ، بِخِلافِ مَقامِ قَوْلِهِ قَبْلَهُ ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] حَيْثُ إنَّ المعَقَّبَ بِالتَّوْبَةِ هُنالِكَ هو الأمْرُ بِقِتالِهِمْ والتَّرَصُّدِ لَهم، فَناسَبَ أنْ يُفَرَّعَ عَلى تَوْبَتِهِمْ عَدَمُ التَّعَرُّضِ لَهم بِسُوءٍ. وقَدْ حَصَلَ مِن مَجْمُوعِ الآيَتَيْنِ أنَّ تَوْبَتَهم تُوجِبُ أمْنَهم وأُخُوَّتَهم. ومِن لَطائِفِ الآيَتَيْنِ أنْ جُعِلَتِ الأُخُوَّةُ مَذْكُورَةً ثانِيًا لِأنَّها أخَصُّ الفائِدَتَيْنِ مِن تَوْبَتِهِمْ، فَكانَتْ هَذِهِ الآيَةُ مُؤَكِّدَةً لِأُخْتِها في أصْلِ الحُكْمِ.

١٥٧. تفيد فضل الأخوة في الدين وأنها تعصم الدم والمال.

١٥٨. تصميم التعليم بما يؤدي لإبراز التفاصيل الدقيقة في موضوعات التعليم المهمة وحقائقه الرئيسية وتوضيح العلاقات بينها سيحقق التعلم الذي يتسم به أصحابه كناتج ظاهر في سلوكهم وأدائهم ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

١٥٩. تفيد فضل الله ورحمته بعباده بتفصيل الآيات لهدايتهم.

١٦٠. تفيد أن العلم يرسخ، وينفع صاحبه بأخذه مفصلا.

---

(١) أخرجه البخاري ١/١٢٥.

١٦١.فيها إشارة إلى تأصيل مفهوم التخصص في العلوم المختلفة خاصة الشرعية منها ﴿وَنُفَصِّلُ﴾؛ لما فيه من تفصيل المسائل، وتحريرها؛ ويجعل صاحبه من العلماء في ذلكم التخصص.

١٦٢. فيها الحث على تأمّل الآيات وتدبرها واستنباط هداياتها فتفصيلها ليتدبرها العالمون فهم المستفيدون من هذا التفصيل المدركون لحكمته.

١٦٣.فيها: فضل العلم والسعي في تحصيله.

١٦٤.التعبير بالمضارع في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ يفيد الحرص والاستمرار في تعلم الآيات المفصلة واستنباط هداياتها والعمل بها حتى الممات..

١٦٥.فيها: بيان مرتبة العلم العالية وعظم شأن العلماء حيث بهم تعرف الآيات والأحكام وتحفظ معالم الدين.

قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢].

١٦٦.تفيد: عظم أمر العهد، حيث عبر عنه بالنكث، وهو الشيء المشدود الصعب الفك.

١٦٧.يسعى الإسلام على تربية المرء المسلم على احترام العهود والمواثيق واعتبر من لم يلتزم بالعهد فيه صفة من صفات المنافقين وفي الحديث (آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان) [متفق عليه].

١٦٨.فيها دليل على عظم جريمة: الطعن في الدين وأنها لا تصدر الا من زنديق متضلع في الكفر ومن أئمته.

١٦٩.في نسبة الدين الى المؤمنين ﴿فِي دِينِكُمۡ﴾ استنهاض للهمم وحفز للنفوس وإثارة الغيرة لحمايته وقتال من طعن فيه وتعدى عليه بسخرية أو استهزاء واستهانه.

١٧٠.من مظاهر الطعن في الدين:

- الطعن في مصادره، بإثارة الشبهات، والشكوك حول القرآن والسنة.
- الطعن في الصحابة نقلة هذا الدين.
- الغزو الفكري والثقافي لغسلة أدمغة ابناء المسلمين؛ ليطعنوا في الدين بأيديهم كما هو مشاهد في كثير من بلاد المسلمين، ومن ذلك:

-تحجيم التعليم الديني في المدارس والجامعات.

-الحملات الإعلامية المسعورة بشيطنة دعاة الإسلام ووسمهم بالإرهاب، والدعشنة في هذا الزمان.

-تشجيع ودعم دور عبدة الشيطان، والدعوة للردة تحت غطاء حرية الاعتقاد.

١٧١.تفيد، وبضميمة ما قبلها: الدقة في كتابة العقود وإملاء والشروط؛ وذلك بالبيان والتنبيه على ما يترتب على مخالفة العقد وما تستوجبه؛ بدليل "إن" الشرطية في قوله قبلها ﴿فَإِنتَابُواْ﴾ وفيه دليل أن القرآن أحكمت آياته؛ لأنه لم يقتصر على ذكر الكف عنهم وتخلية سبيلهم وأنهم إخوة لنا إن تابوا، بل بيّن ونبه على أنهم إن نكثوا يجب أن يقاتلوا.

١٧٢.فيها: التحذير الشديد من نكث العهد مع الدولة المسلمة، والطعن في دينها؛ حتى لا يقع المخالف تحت طائلة هذا الأمر. وعليه: تفيد: أن الأصل براءة الذمة حتى تشغل، وأن الإسلام لا يؤاخذ إلا بجريرة، وأنه لا جرأة على الدماء ولا تحل إلا بحق؛ وفي الحديث المتفق عليه: لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك الجماعة" [متفق عليه].

١٧٣.فيها: تشريف عزيز للمؤمنين؛ لقوله:﴿فِي دِينِكُمْ﴾ ولو شاء لقال: "وطعنوا في ديني". ولما فيه من تحريض النفس على الحمية للدين.

١٧٤.تفيد مع ما قبلها التأكيد على مبدأ أن الإسلام دين السلام والتسامح والمحبة؛ وان خيار الحرب في الإسلام من آخر الخيارات والحلول التي يتم اللجوء إليها؛ وفي أضيق الحدود؛ لقوله

تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ ولم يقل مثلا: ﴿فقاتلوا أهل الكفر﴾، وقال أيضا: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾.

١٧٥.فيها، وبضميمة ما قبلها: هيبة الإسلام وصرامته وأنه سلم على من سالم وحرب على من يطعن فيه، ويستخف بالعهد مع أتباعه؛ وفي الحديث عند مسلم من حديث أنس – رضي الله عنه –: قال: لما أتى رسول الله ﷺ خيبر، قال: " إنا إذا نزلنا بساحة قوم {فساء صباح المنذرين} "[البخاري ٣٩٦٤].

١٧٦.فيها: الأمر بقتال الطاعنين في الدين قال ابن تيمية في الصارم المسلول: أمر سبحانه بقتال الناكثين الطاعنين في الدين وضمن لنا إن فعلنا ذلك أن يعذبهم بأيدينا ويخزيهم وينصرنا عليهم ويشفي صدور المؤمنين الذين تأذوا من نقضهم وطعنهم وأن يذهب غيظ قلوبهم..."

١٧٧.فيها: رد على المنافقين الذين ينادون بحرية التعبير والكفر.

١٧٨.تفيد: أن القتال في سبيل الله، ليس من أجل الدنيا؛ بل من إعلاء كلمة الله والذود عن دينه وحفظه من أن يتلاعب به. تفيد: أن غاية القتال في سبيل الله، هداية الناس. ففيها: دليل بيّن أن الجهاد في سبيل الله ينفع الكفار وأنه سبب في هدايتهم؛ وفي الحديث: قال: "عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل". [رواه البخاري].

١٧٩.تفيد: أن الخيانة، تستوجب العقوبة. وأنها سبب في تمكين الله من العبد، وأنها جناية على النفس.

١٨٠.فيها: الحث على استئصال الأصل الخبيث والتركيز عليه.

١٨١.وعليه: تفيد: قاعدة "التابع تابع"؛ لأنه يجب قتال كل من نكث وطعن في الدين؛ إماما كان في الكفر أم لا. ولأن الأصاغر أتباع للأكابر.

١٨٢.تفيد: وجوب قتال الطاعنين في الدين، وعدم تمكينهم وتركهم يخوضون وينتقصون من الإسلام؛ لقوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ﴾، والأمر للوجوب. وبدليل ما بعدها: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ

﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾تحضيض على قتالهم {نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين}. وأذية الرسول والانتقاص منه مثل إخراجه.

١٨٣.تفيد: أن ترك أئمة الكفر وعدم قتالهم اذا طعنوا في الدين، يجرؤ الأصاغر على الطعن في الدين؛ على ما ذكره الطاهر بن عاشور: "والمرادُ بِأئِمَّةِ الكُفْرِ: المشْرِكُونَ الَّذِينَ نَكَثُوا أيْمانَهم مِن بَعْدِ عَهْدِهِمْ، فَوُضِعَ هَذا الِاسْمُ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ حِينَ لَمْ يُقَلْ: فَقاتِلُوهم، لِزِيادَةِ التَّشْنِيعِ عَلَيْهِمْ بِبُلُوغِهِمْ هَذِهِ المنزِلَةَ مِنَ الكُفْرِ، وهي أنَّهم قُدْوَةٌ لِغَيْرِهِمْ؛ لِأنَّ الَّذِينَ أضْمَرُوا النَّكْثَ يَبْقُونَ مُتَرَدِّدِينَ بِإظْهارِهِ، فَإذا ابْتَدَأ بَعْضُهم بِإظْهارِ النَّقْضِ اقْتَدى بِهِمُ الباقُونَ، فَكانَ النّاقِضُونَ أئِمَّةً لِلْباقِينَ".

١٨٤.تفيد أن الإسلام دين سلام ولا يسعى إلى إدامة الحروب بل يحث على مناجزة رؤوس الضلالة ومناكفة أئمة الغواية والتخلص منهم.

١٨٥.تفيد: أهمية التعليل في الأوامر؛ إذا وجد له مسوغ يقتضيه؛ لما له تأثير في العمل والإسراع فيه. على ذكره الطاهر بن عاشور – ولله دره: "وجُمْلَةُ ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾تَعْلِيلٌ لِقِتالِهِمْ بِأنَّهُمُ اسْتَحَقُّوهُ لِأجْلِ اسْتِخْفافِهِمْ بِالأيْمانِ الَّتِي حَلَفُوها عَلى السَّلْمِ، فَغَدَرُوا. وفِيهِ بَيانٌ لِلْمُسْلِمِينَ كَيْلا يَشْرَعُوا في قِتالِهِمْ غَيْرَ مُطَّلِعِينَ عَلى حِكْمَةِ الأمْرِ بِهِ، فَيَكُونُ قِتالُهم لِمُجَرَّدِ الِامْتِثالِ لِأمْرِ اللَّهِ، فَلا يَكُونُ لَهم مِنَ الغَيْظِ عَلى المشْرِكِينَ ما يُشَحِّذُ شِدَّتَهم عَلَيْهِمْ.

قال تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣].

١٨٦.اشتملت الآية الكريمة على عدة أساليب بلاغية:

منها: أسلوب الربط الموضوعي؛ للتقوية والتأكيد، أو التكامل والتذييل؛ ذلك لما تقدم الأمر بقتال أئمة الكفر جاء في هذه التحريض على القتال.

والتحريض على القتال جاء بعدة أساليب أيضاً:

منها: أسلوب الحض، والحث (ألا).

ومنها: أسلوب التنكير﴿قَوۡمًا﴾ للتهوين، والتقليل من شأنهم، وذلك محفز لمقاتلتهم.

ومنها: أسلوب التحريض الخاص لإعلاء القيم، والدفاع عنها ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾.

ومنها: أسلوب التحريض الخاص بالدفاع عن الرسول القائد ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ الذي بموته، أو إخراجه سينفرط عقدهم.

ومنها: أسلوب التحريض بإثارة الأنفة عن قبول الذل والدونية ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وأنتم الأعلون بالإيمان.

١٨٧. تقرر الآية مبدأ البادي أظلم ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

١٨٨. تفيد أن الإنسان مؤاخذ بمجرد الهم بفعل ما لا ينبغي، إذا عزم عليه وحال دونه مانع، أو هم به ثم فعله كصنيع الكفار في إخراجه. ولو لم يخرجوه لمانع لوجب قتالهم. ويؤكد هذا حديث: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار" قال في المقتول: "إنه كان حريصا على قتل صاحبه" [متفق عليه].

١٨٩. أن من أسباب تأكد جهاد الدفع: قيام الكفار بالتعدي على إمام المسلمين ودولتهم، ومن أسباب جهاد الطلب: نقض العهد.

١٩٠. تفيد: تقديم النبي ﷺ وإيثاره على النفس في كل شيء عامة والحب والبغض خاصة.

١٩١. فيها الغضب لله ورسوله ونصرته والحمية لأجله إذا نيل منه ﷺ. وللمفارقة بين "إخراج الرسول والنيل من الصحابة"؛ فإنه لم يقل: "وأخرجوكم".

١٩٢. تهدي الآية الكريمة إلى الاستفادة من العاطفة الدينية في حماية حق الله وحفظ جناب الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم والدعوة إلى ذلك أمام الملأ.

١٩٣. الحفاظ على رموز الإسلام وقادة الأمة مسؤولية الجميع واعتبار ذلك تأكيدا لقوة الدين وأهله والمدافعين عنه.

١٩٤.أن الدفاع عن الله والانتصار لرسوله ﷺ شرف لمن ينصره ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥] فإن الله ليس بحاجة إلى من ينصره ولكن الناصر له منصور من الله مقرب من رسوله عليه الصلاة والسلام.

١٩٥.تفيد: أن الكفار، يخرجون الأفاضل والأخيار من البلاد.

١٩٦.فيها: علم الله، وأنه عليم بذات الصدور؛ لقوله: {وهموا}.

١٩٧.تفيد: أن القيام بهذا القتال، يبقي للدولة المسلمة هيبتها، ويردع ويزجر من يفكر ويهم بالطعن في الدين ونكث العهود.

١٩٨.فيها: تهديد وترهيب للمعاهد بأن يحفظ العهد مع المسلمين، وألا يقع في دينهم؛ فالمعاهد مستأمن إلا أن يغدر ويطعن في الدين. على ذكره الطاهر بن عاشور: "والمقْصُودُ مِن هَذا الكَلامِ تَهْدِيدُهم عَلى النَّكْثِ الَّذِي أضْمَرُوهُ، وأنَّهُ لا تَسامُحَ فِيهِ"

١٩٩.أهمية معرفة حجم العدو، واستغلاله عند قتاله. ووجهه: أنه ذكر عدة صفات في العدو، ويمكن للمسلمين استغلالها.

٢٠٠.تفيد مكانة ومنزلة الرسول عليه السلام عند الله تعالى، فمجرد الهم السيء ضده يستوجب العقوبة، نظيرها إن إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم ليس كإيذاء غير كما في سورة الأحزاب.

٢٠١.تشتمل الآية على جملة من الحث على الإعداد النفسي للمجاهدين، وتقوية معنوياتهم، وإيقاظ الحوافز الإيمانية في قلوبهم.

٢٠٢.تفيد: أن الإسلام لا ينسى ويتغافل عن أعدائه وما يصدر منهم؛ ولقوله: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

٢٠٣.تشير إلى: ثمرة الإيمان وأعمال القلوب، وتأثيرها على الجوارح؛ فإن خشية الله وحده وعدم خشيتهم، يحمل على امتثال الأمر بقتالهم. الحمد لله على توفيقه وامتنانه. قال ابن عاشور

- رحمه الله -: وفُرِّعَ عَلى هَذا التَّقْرِيرِ جُمْلَةُ ﴿ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ ﴾ أيْ فاللَّهُ الَّذِي أمَرَكم بِقِتالِهِمْ أحَقُّ أنْ تَخْشَوْهُ إذا خَطَرَ في نُفُوسِكم خاطِرُ عَدَمِ الِامْتِثالِ لِأمْرِهِ، إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ؛ لِأنَّ الإيمانَ يَقْتَضِي الخَشْيَةَ مِنَ اللَّهِ وعَدَمَ التَّرَدُّدِ في نَجاحِ الِامْتِثالِ لَهُ.

٢٠٤. وجوب إفراد الله بالخشية. "﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ "، إنكار ثم تقرير.

٢٠٥. أن الخشية من ثمار الإيمان ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

٢٠٦. الدعوة إلى عدم الاغترار والإحباط بسبب ما عند الكفار من القوة الظاهرة في العصر الحاضر، وعدم اليأس من التمكن منهم ولو بعد حين. ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾؟

٢٠٧. فيها أن الخشية عبادة لا تكون إلا لله عز وجل؛ لقوله: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ وهي من دلائل العلم والإيمان.

٢٠٨. تفيد أن القتال في الإسلام له دوافعه وأسبابه.

٢٠٩. تفيد أهمية بناء العقيدة التي من أجلها يقاتل المؤمن والجند.

٢١٠. تفيد أهمية ذكر أسباب القتال ودوافعه بصورة واضحة للجند.

قال تعالى: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٤ - ١٥].

٢١١. يفيد إسناد التعذيب إلى الله، ليتأمل المتأمل أي عذاب هو؟ وليذهب الذهن كل مذهب في تقديره، نسأل الله أن يقينا عذابه يوم يبعث عباده.

٢١٢. فيها التنبيه إلى بعض فوائد وثمرات الجهاد وهي استكمال لمحفزات القتال السابقة.

-منها ما يتعلق بالمشركين وهي:

تعذيبهم بأيدي المؤمنين.

إحلال الخزي عليهم.

-ويتعلق بالمؤمنين:

النصر عليهم.

شفاء صدورهم.

ذهاب غيظ قلوبهم.

ثم الخاتمة وهي: التوبة على من يشاء من هؤلاء المشركين.

٢١٣.تفيد أن النصر على أعداء الله من الكفار موجب لشفاء ما في صدور المجاهدين خصوصا والمسلمين عموما. وهذا لا يكون الا من خلال الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته.

٢١٤.في نسبة تعذيب المشركين الكائن من الله تعالى إلى أيدي المؤمنين تشريف وتكريم لهم. قال ابن القيم: وَأمّا تَأْثِيرُ الجِهادِ فِي دَفْعِ الهَمِّ والغَمِّ فَأمْرٌ مَعْلُومٌ بِالوِجْدانِ، فَإنَّ النَّفْسَ مَتى تَرَكَتْ صائِلَ الباطِلِ وصَوْلَتَهُ واسْتِيلاءَهُ اشْتَدَّ هَمُّها، وغَمُّها، وكَرْبُها، وخَوْفُها، فَإذا جاهَدَتْهُ لِلَّهِ أبْدَلَ اللَّهُ ذَلِكَ الهَمَّ والحُزْنَ فَرَحًا ونَشاطًا وقُوَّةً.

٢١٥.فيها: تبشير المجاهدين، وبث الفأل فيهم بالنصر.

٢١٦.قال ﴿بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ فلا يكفي الشجب والإدانة التي لا تتجاوز طرف الألسن

٢١٧.تفيد: أن الأمة إذا خالفت هذا الدال على الوجوب، عاشت هي في الغم والحزن... إلخ.

٢١٨.فيها أن توبة الله عز وجل على عبادة باقية ومستمرة؛ لقوله: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن﴾ بصيغة المضارع التي تدل على الاستمرار.

٢١٩.فيها دلالة على نبوة محمد ﷺ، لأن الله تعالى قد وعد المؤمنين على لسان النبيّ ﷺ أن يعذب الكفار بأيديهم ويخزهم وينصركم عليهم، فأنجز وعده ولم يظهر خلاف ما وعد لهم.

٢٢٠.تفيد مدحا عظيما للصحابة فهي تَدُلُّ عَلى أنَّ قُلُوبَهم كانَتْ مَمْلُوءَةً مِنَ الغَضَبِ، ومِنَ الحَمِيَّةِ لِأجْلِ الدِّينِ، ومِنَ الرَّغْبَةِ الشَّدِيدَةِ في عُلُوِّ دِينِ الإسْلامِ، وهَذِهِ الأحْوالُ لا تَحْصُلُ إلّا في قُلُوبِ المؤْمِنِينَ.

٢٢١.تفيد: أن من ثمرات الجهاد، هداية بعض الكفار. وهذا ربح؛ لقوله: ﴿ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾.

٢٢٢.تفيد: أن الهداية والتوفيق للتوبة، بيد الله وأنه فضـــل منه وليس حق. وهذا يدل أن للعبد كسبا وإرادة واختارا يختار الخير أو الشر؛ وبدليل ما سبق من الآيات.

٢٢٣.فيها: مناسبة التذييل الدقيق للسياق؛ فهو عليم بالصدور والقلوب وشفاءها ودواءها، وحكيم في تشريعه لما أمر بقتالهم؛ فلو شاء لأهلكهم وعذبهم من غير أيدي المؤمنين. وغير ذلك من الفوائد التي تتعلق بصفتي العلم والحكمة لله – جل ذكره.

قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٦].

٢٢٤.حتمية الابتلاء للمؤمنين؛ ووجه الدلالة من أسلوب الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ﴾؟.

٢٢٥.تفيد أن الحسبان لا يغني من الحق شيئا، ولو تكاثر عليه الناس.

٢٢٦.تفيد أن الناس لا يُعرفون في وقت الرخاء والنعمة وإنما تظهر معادن الرجال في الابتلاء والشدة.

٢٢٧.في قوله تعالى ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ التنبيه على علم الظهور والجزاء الذي يكون عليه الثواب والعقاب فالله تعالى لكمال عدله لا يؤاخذ بعلمه الأزلي سبحانه وإنما بما يظهر من العبد بعد اختياره وتنفيذه.

٢٢٨.فيها الإشارة إلى أحد مقاصد الجهاد العظيمة وهو تمييز المؤمن الصادق من مدعي الإيمان المتخذ الولائج والأولياء من دون الله ورسوله والمؤمنين.

٢٢٩.فيها التنبيه إلى سنة الله تعالى الكونية في ابتلاء عباده المؤمنين وتمييز الصفوف لكشف اللثام عن المنافقين مدعي الإيمان وفضحهم.

٢٣٠. فيها أن تنقية الصف من الدخلاء، وفضح المنافقين للتحذير منهم من مهمات الدعاة إلى الله.

٢٣١. فيها التحذير من التودد للكفار واتخاذهم أولياء وبطانة من دون المؤمنين.

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [التوبة: ١٧].

٢٣٢. تفيد وبضميمة ما قبلها: أن الولاء والبراء، يكون على أساس الإيمان بالله؛ لا على محاسن الأعمال ومكارم الأخلاق فحسب، " لَمّا حَذَّرَهم مِنَ اتِّخاذِ وَلِيجَةٍ مِن دُونِهِ، شَرَعَ يُبَيِّنُ أنَّ الوَلِيجَةَ الَّتِي يَتَّخِذُها بَعْضُهم لا تَصْلُحُ لِلْعاطِفَةِ بِما اتَّصَفَتْ بِهِ مِن مَحاسِنِ الأعْمالِ ما لَمْ تُوضَعْ تِلْكَ المَحاسِنُ عَلى الأساسِ الَّذِي هو الإيمانُ المُبَيَّنُ بِدَلائِلِهِ، فَقالَ سائِقًا لَهُ مَساقَ جَوابِ قائِلٍ قالَ: إنَّ فِيهِمْ مِن أفْعالِ الخَيْرِ ما يَدْعُو إلى الكَفِّ عَنْهم مِن عِمارَةِ المَسْجِدِ الحَرامِ وخِدْمَتِهِ وتَعْظِيمِهِ!". ذكره البقاعي.

٢٣٣. فيها: أهمية المساجد في المجتمع؛ لتثبيت الإيمان، والدعوة إليه، وأنها من شعائر المؤمنين العظمى.

٢٣٤. فيها: تشريف للمساجد؛ حيث أضافها الله إلى نفسه مع أن الكل له.

٢٣٥. فيها: شهادة المرء على نفسه، وأنها حجة عليه.

٢٣٦. تفيد: أن لسان الحال، يقوم مقام لسان المقال. على ما ذكره البغوي في تفسيره عن الحسن: "لم يقولوا نحن كفار، ولكن كلامهم بالكفر شاهد عليهم بالكفر".

٢٣٧. تفيد: الأخذ والعمل بالقرائن، وأنها تقوم مقام التصريح والاعتراف – عدا الحدود على تفصيل يبين في موضعه. وهذه تنفع في الرد على الزنادقة الذين يزعمون أنهم مسلمون، وقبلهم اليهود والنصارى فإنهم زعموا أبناء الله وأحباؤه.

كلٌّ يدعي وصلا بليلى وليلى لا تقر لهم بذلك.

٢٣٨.وبه يرد على من يثني على الكفار وحسن معاملتهم ويطعن ويخوض في المسلمين؛ ليس من منطلق ديني وانصاف – مثلا، ولكن من أجل درهمه ودينار ه هاجرا كفرهم وشركهم وسبهم لله وما جاء من عنده.

٢٣٩.إحباط العمل بسبب الكفر والشرك من موجبات الخلود في نار جهنم.

٢٤٠.من أسس العقيدة عند أهل السنة والجماعة أن الخلود في النار لا يكون الا للمشركين والكفار.

٢٤١.أفادت الآية الكريمة الحديث عن جمل من القضايا الإيمانية المهمة: منها: أن الإيمان شرط لقبول العمل؛ حيث أثبت لهم عمارة للمسجد الحرام بخدمتهم له في قوله تعالى ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، ونفى عنهم العمارة الحقيقية ـ التي يقوم على الانتفاع، وقبول هذه العمارة ـ حال شهودهم على أنفسهم بالكفر، وعبادة الأصنام، والأوثان.

٢٤٢.فيها: خطر الشرك وأنه يحبط الأعمال ويوجب الخلود في النار.

٢٤٣.فيها إثبات النار والتخويف منها وخلود المشركين فيها..

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨].

٢٤٤.تفيد بدلالة المناسبة من هم أحق بعمارة المساجد، ف لما بين سبحانه عدم استحقاق المشركين لعمارة المساجد، حصرها وقصرها هنا على المسلمين.

٢٤٥.تفيد شرف عمارة المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله حسيا ومعنويا.

٢٤٦.فيها أن العبرة بالمخابر لا بالمظاهر.

٢٤٧.تفيد بدلالة التضمين أمر المؤمنينَ بعِمارةِ المساجِدِ، ويتناوَلُ عِمارَتُها رَمَّ ما تهدَّمَ منها، وتنظيفَها، وتنويرَها، وتعظيمَها، واعتيادَها للعِبادةِ والذِّكرِ- ومِن الذِّكرِ دَرسُ العِلمِ، بل هو أجَلُّه- وصَونَها عمَّا لم تُبْنَ له.

٢٤٨.تفيد دليلاً على أنَّ الشَّهادةَ لعُمَّارِ المساجِدِ بالإيمانِ صحيحةٌ؛ لأنَّ اللهَ سُبحانه ربَطَه بها، وأخبَرَ عنه بمُلازَمتِها. وقد قال بعضُ السَّلَفِ: (إذا رأيتم الرَّجُلَ يعمُرُ المسجِدَ، فحَسِّنُوا به الظَّنَّ).

٢٤٩.فيها: نسبة المساجد إلى الله نسبة تشريف وتعظيم، وهذا الشرف يناله المسلم متى ما عمر المساجد.

٢٥٠.تفيد أن إحدى علامات خشية الله ومحبته عمارة المساجد والتردد عليها من أجل العبادة من صلاة وذكر ودعاء وتلاوة كتاب الله وكذلك من أجل التعليم والتعلم.

٢٥١.فيها أن الخشية لا تكون إلا من الله عز وجل وحده دل على ذلك أسلوب القصر في قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ففيها النفي والاثبات.

٢٥٢.تفيد أن عسى من الله واجبه فهدايته متحققة.

٢٥٣.تفيد: السعي لتحصيل الهداية، وأن لها أسبابا يتعين الأخذ بها.

قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩].

٢٥٤.فيها: التوبيخ وقوة الإنكار، واستدراج المخاطب في إعمال التفكر وعدم الوقوع في الشطط مستفاد من الاستفهام الإنكاري، وأن الافتتاح به بدلا من الجزم، يكون أبلغ من غيره – إذا اقتضاه المقام.

٢٥٥.حرمة الإشادة وتفخيم الإحسان الذي يقوم به الكفار، مع لمز المسلمين واحتقار جهودهم. ووجهه: أسلوب الاستفهام الإنكاري ﴿أَجَعَلْتُمْ﴾؟

٢٥٦.فيها شرف الإيمان.

٢٥٧.تفيد منزلة الجهاد في سبيل الله، حيث عطف على الإيمان بالله واليوم الآخر.

٢٥٨.مزية المسلم وفضله على الكافر مهما قام به الكافر من إحسان في الدنيا.

٢٥٩. أن قيام الكافر ببعض شعب الإيمان لا ينفعه إذا لم يدخل في الإسلام. ووجهه: أن عمارة المسجد وسقاية الحاج من القربات النافعة إذا قام بها مسلم.

٢٦٠. كراهية التفاخر بالأعمال الصالحة، والحث على الاجتهاد فيها، مع ترتيب الأولويات.

٢٦١. تفيد أن أعظم حسنة عند الله تحقيق التوحيد فهو أجل الأعمال الصالحة فلا يتقدمه عمل أو يوازيه، فهو أول الأعمال وأساسها وأثقلها في ميزان العبد يوم القيامة.

٢٦٢. تفيد عدم الإعجاب بأعمال المشركين والكافرين الحسنة، لأنها فقدت الأساس وهو الإيمان.

٢٦٣. تفيد أن أهل الباطل يغترون ببعض الحسنات التي يقومون بها، ويظنون أنها تنفعهم.

٢٦٤. أن بناء الأرواح أهم من بناء الأجساد وبناء الحضارة أبقى من المدنية وأن الجهاد في سبيل الله أسمى قيم الحضارة.

٢٦٥. تفيد من الظلم مقارنة من لا يستحق بمن يستحق؛ بله الترقي في كمالات الدين ومراتبه.

٢٦٦. أن الأعمال تتفاضل وأن من أعظم الأعمال هي أعمال القلوب وهي أجلها وأسماها وأكثرها رفعه ومن أعظم أعمال القلوب هو الإيمان بالله واليوم الآخر.

٢٦٧. تفيد: أن الإيمان شرط في قبول الأعمال مهما كانت.

٢٦٨. فيها: عظم فضل الجهاد في سبيل الله؛ لأنه خص من دون سائر الأعمال.

٢٦٩. تفيد مع ما قبلها أن العمل قد تقل قيمته لا لذاته، ولكن لسبب معين، أو بمقارنته مع ما هو أعظم منه.

٢٧٠. الكافر، لا ينفعه شيء من إحسانه في الآخرة، وأن ذلك لا يخفف عنه العذاب؛ اللهم إلا ما ورد في أبي طالب؛ وهذا من خصائصه ﷺ.

٢٧١. تفيد: أن التفضيل والتحسين، مردُّه إلى الله، فالحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع.

٢٧٢.فيها رد على القائلين بالتحسيين والتقبيح العقليين.

٢٧٣.تفيد: الدعوة إلى عدم اهتمام أمة الإسلام بما يشغلها عن دينها وجهادها في سبيل الله؛ بالمظاهر التي لا تحقق ما يحققه الإيمان والجهاد؛ وإلا كان نفاقا.

٢٧٤.تفيد: أن إحسان الكافر لا ينفعه في الآخرة إذا لم يمت على الإيمان.

٢٧٥.تفيد: أن الكافر ظالم، وإن قام في الدنيا بأصناف من الإحسان؛ بل هو من أعظم أنواع الظلم.

٢٧٦.تفيد: أن الأعمال الظاهرة مبناها على الأعمال القلبية؛ ولذلك كانت أعمال القلب أعظم عند الله وأثقل في الميزان.

٢٧٧.تفيد: أن الهداية بيد الله وهي متحققة بأسبابها.

٢٧٨.تفيد: كمال علمه وحكمته جل وعلا فهو مطلع على جميع أعمال العباد الطاهرة والباطنة ويجازي العباد عليها في الدارين.

٢٧٩.تفيد: أن ميزان الأعمال الحقيقي ومعيارها هو ميزانها عند الله لا عند البشر

٢٨٠.فيها: عدل الله، وأنه لا يسوي بين المؤمنين والكافرين؛ فمن خالف هذا العدل الرباني، فهو من أظلم الناس؛ ولذا توعده بعدم الهداية، ولما فيه من المكابرة.

٢٨١.فيها: فضل الهداية، والتحذير من أن يحرمها العبد.

٢٨٢.ففيها: إشارة إلى أعمال العباد وكسبهم ومحض اختيارهم لها.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ [التوبة: ٢٠].

٢٨٣.فيها: بيان تفاوت أهل الجنة في علو الدرجات وأرفع المقامات.

٢٨٤.يجب أن يكون الله وحده، هو المقصود بالعمل، وهي نية المعمول له.

٢٨٥.تفيد: أن التفضيل، لا يعني الأفضلية. أو: لا يعني الفضل وثبوته للطرفين؛ لقوله: ﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً﴾.

٢٨٦.تفيد السلوى والعزاء لمن حرم القدرة على بعض الفضائل كسقاية وعمارة المسجد الحرام وقس عليها العاجز عن الصدقات أو الحج أو غيره بسبب الفقر أو العجز الجسدي فليعلم أن الأعمال الصالحة والإيمان أعظم درجة إذا خلصت النوايا.

٢٨٧.فيها: بيان أن الفوز حقيقة هو النجاة من النار والدخول في الجنان.

٢٨٨.تفيد: أن الفوز، ينال بالعمل؛ لا بالتمني.

٢٨٩.فيها رفعة درجة هؤلاء وعظيم منزلتهم عند ربهم جل وعلا للإشارة إليهم بإشارة البعيد ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾.

قال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١].

٢٩٠.فيها: استحباب البشارة.

٢٩١. فيها ميل النفوس ومحبتها لاستماع الأخبار السعيدة وبشارات الخير والرحمة.

٢٩٢.فيها تشريفٌ لأهل الإيمان بإضافة (رب) لضمير الجمع (هم).

٢٩٣.تفيد: أن الرحمة من الله؛ لقوله: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾، وفي الحديث: "وبها يتراحمون" روى مسلم في صحيحه، من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– مرفوعا: "إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعا وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة". رواه مسلم.

٢٩٤.يفيد: تنكير الرحمة والرضوان للتفخيم والتعظيم.

٢٩٥.فيها: ﴿وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ تشويق، فنعيم الدنيا زائل ونعيم الآخرة مقيم.

٢٩٦.فيها دليل لأهل السنة بأن الجنة لا تفنى كما ادعى ذلك بعض المعتزلة ﴿لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ لا يحول ولا يزول.

٢٩٧. يدل جمع الجنات وتنكيرها على كثرتها وكثرة ما فيها من النعيم والحبور والسرور.

٢٩٨. فيها أن هذا النعيم خاص بهم لا يشاركهم فيه غيرهم؛ أفاده تقديم لهم على فيها، وفي هذا أيضا تعجيل البشرى لهم.

قال تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٢].

٢٩٩. تفيد تأكيد خلود نعيم الجنة، لما جاء وصف نعيم أهل الجنة في الآية السابقة بأنه (مقيم) لا يحول ولا يزول. جاءت هذه الآية بتأكيد أن المنعمين فيها خالدون في هذا النعيم. ثم جاء التأكيد الثاني بأن هذا الخلود موصوف بالتأبيد ﴿أَبَدًا﴾ فلا نهاية له. فكانت الآيتان صريحتين على أن أهل الجنة ونعيمهم فيها خالد مؤبد لا زوال له ولا انتهاء.

٣٠٠. أفادت التصريح ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ بما تقدم فيه التلويح ﴿مقيم﴾؛ فالتصريح بالخلود الأبدي فيه قوة طمأنة لا يتطرق إليها أدنى خاطر بعدم ديمومة النعيم، أو انقطاعه.

٣٠١. تفيد الحث والترغيب وشحذ الهمم، وتقوية العزائم في التنافس على النعيم المقيم في جنات الخلد وفي مقعد صدق عند مليك مقتدر، جعلنا الله جميعا من ساكنيها والمتنعمين فيها.

٣٠٢. تفيد عظم ثواب الله تعالى المعد في الجنة لعباده المؤمنين، حيث عظمه الله تعالى بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾ وتعظيم العظيم للشيء يدل على أنه عظيم عظمة لا يتخيلها العبد ولا يتصورها، ولهذا قال تعالى: ((قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)) [رواه البخاري].

٣٠٣. أفاد تنكير الأجر ﴿أَجۡرٌ﴾ كثرته، ونُعِتَ هذا الأجر الكثير بالعظيم، فأكرم به من أجر.

٣٠٤. تفيد أن ذكر الثواب والأجر العظيم من أقوى المحفزات على أداء الأعمال وإنجاز المهمات؛ وعليه؛ فإن على أصحاب الأعمال مراعاة هذا الجانب وإعطائه الكثير من الاهتمام إذا أرادوا من عمالهم إنجاز الأعمال التي يكلفونهم بها.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [التوبة: ٢٣].

٣٠٥. فيها: فائدة التذكير بالإيمان بالله واليوم الآخر، عند الأمر والنهي.

٣٠٦. هذه الآية الكريمة المباركة من أعظم آيات الولاء والبراء والموالاة والمعاداة.

٣٠٧. تفيد: عظم حق الأب والأخ بناء على الأصل؛ لأنه خصهما بالذكر.

٣٠٨. أفادت الآية الكريمة الجمع بين الآباء والإخوان لشدة القرابة والتعصيب، والموالاة؛ وقُدم الآباء في الذكر؛ لقوة القرابة، والبر، والسمع والطاعة، والموالاة.

٣٠٩. تفيد: أن القرب الحقيقي، هو قرب الدين لا قرب النسب. وأنه لا ينفع مع الكفر قرابة ولا نسب؛ كما أنه لا يحتاج إليه مع الإيمان.

٣١٠. يفيد التعبير بصيغة الاستفعال ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ دون غيره؛ تنبيها على أن الإيمان لكثرة محاسنه وظهور دلائله وبراهينه محبوب بالطبع، فلا يتركه ذو عقل وفطرة إلا بنوع معالجة ومكابرة لعقله وفطرته.

٣١١. فيها: قوة العقيدة الإسلامية؛ فالبراءة من المشركين والنهي عن موالاتهم، مما يختص به الإسلام ويميز به عن غيره.

قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

٣١٢. فيها مجامع زهرة الحياة الدنيا التي يحبها الإنسان؛ مرتبة ترتيباً هو الغاية في الحسن.

٣١٣. تفيد: أن هؤلاء المذكورين لهم حق على المرء بناء على الأصل؛ لأنه نص عليهم. ولعظم حقهم، نبه على أنه لا يجوز طاعتهم في معصية الله بالكفر والقعود عن الجهاد وسائر المعاصي.

٣١٤.فيها وجوب مخالفة القبيلة والفصيلة إذا صدت المؤمن عن الجهاد.

٣١٥.يفهم منها: أهمية التجارة؛ للتصـــريح بها بعد المال – مع أنها من جملة المال –، ولأنه خصها بالذكر دون سائر مصادر الكسب.

٣١٦.فيها: أن الترف والمبالغة في التشـييد والإعمار، سـبب من أسـباب ترك الجهاد؛ لقوله: ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ﴾؛ ولا يحصـل الرضـى بكل المسـاكن؛ ولذا لم يكتف بقوله: ﴿وَمَسَٰكِنُ﴾ ولم يقل: "وبيوت"، بل ذكر المساكن والرضى، ليدخل القصور. وعليه: ففيها دقة التعبير.

٣١٧.فيها: أن الزهد يعين على الآخرة.

٣١٨.أن الحب وعاطفته السـيالة في الإسـلام علامة فارقة في الإيمان والكفر وتنمية ذلك راجع إلى رغبة المرء وقوة إرادته.

٣١٩.تفيد: أن القعود عن الجهاد في سبيل الله كبيرة من الكبائر بدليل الوعيد الشديد.

٣٢٠.المذهب السليم القويم: تصحيح الأصول وتوضيح الأسس والعمل على معالجة الأخطاء من جذورها وحتى قبل وقوعها، لذا جاء الخطاب شديداً ﴿قُلۡ﴾ بما تحمله من توبيخ، ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ وما فيها من تهديد، فعدم تحديد العقاب أشد تخويفاً ووقعاً على النفس من ذكره.

٣٢١.تفيد: أن المخالف محفوف بمخاطر العقاب حتى يرجع. فيجب على من زل أن يســـرع الأوبة.

٣٢٢.تفيد أهمية ممارسة الضغط النفسي على أصحاب الانحراف والسلوك الخاطئ لتصحيح سلوكياتهم؛ وذلك من خلال إيعازهم بتوقع الأسوأ في حياتهم. وعليه؛ فإن هذا النوع من الضغط النفسي الذي استخدمه القرآن الكريم ينبغي أن يتقنه الدعاة والمربون من أجل تصحيح الأفكار في العقول؛ وإصلاح الانحرافات في النفوس؛ وتقويم الأقوال والأفعال والسلوكيات.

٣٢٣.الآية تتضمن أصولا كبيرة في العلوم النفسية وذلك كما يلي:

أولا: التأكيد على الوجود التكويني الجبلي للدوافع النفسية والاجتماعية والمادية والبيئية المؤثرة في سلوك الأفراد والجماعات.

ثانيا: الترتيب القرآني لقوة الحاجات العامة للإنسان ابتداء بالأكثر قوة وضرورة للإنسان في وضعه الطبيعي بحيث تكون الحاجة للأبوة هي القاعدة وتليها الحاجة للأبناء وتليها الحاجة للأخوة وتليها الحاجة للزوج وتليها الحاجة للعشيرة وتليها الحاجات المادية للمال والسكن. وهذه الحاجات مقررة ببيان كثير في العلوم النفسية المعاصرة وخاصة في علم نفس الدوافع والحاجات.

ثالثا: بيان أن هناك حاجة روحية تعبدية ليست مرتبطة بسلطان العادة والمسايرة وهي الحاجة لحب الله ورسوله والجهاد في سبيل الله. وهذه الحاجة ليست مقررة في العلوم النفسية المعاصرة نظرا لعدم اعتمادها القرآن الكريم مصدرا من مصادرها.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥].

٣٢٤. تفيد تناسقا رائعا وترابطا عجيبا بين سورتي الأنفال والتوبة؛ حيث ذكرت فيهما غزوتان؛ افتتحت بأحدهما غزوات النبي صلى الله عليه وسلم للعرب؛ وهي غزوة بدر؛ وختمت الأخرى بذلك وهي غزوة حنين؛ وأيضا فإن ملائكة الرحمن نزلت وقاتلت مع المسلمين في هاتين الغزوتين؛ كما أن النبي صلى الله عليه وسلم رمي وجوه المشركين بالحصباء في كلتيهما، كما أن في إحداها ذكرت قلة المسلمين (بدر)؛ والأخرى ذكرت كثرة المسلمين (حنين)؛ وذلك في إشارة واضحة إلى أن كلا الأمرين سيان عند الله تعالى؛ وأن القلة أو الكثرة ليسا معيارين في استحقاق النصر وإلحاق الهزيمة بالخصم.

٣٢٥. تفيد أهمية تذكر أيام الله تعالى وضرورة استحضار نعمه وآلائه، لما لها من عظيم الأثر على تهذيب النفس وتزكيتها من الانحرافات المهلكة.

٣٢٦.خطورة إعجاب المرء بنفسه ورأيه. ﴿إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ﴾ وأنها من أكبر أسباب الهزيمة.

٣٢٧.يفيد تَخصيص يومِ حُنَينٍ بالذِّكرِ مِن بينِ أيَّامِ الحُروبِ؛ لأنَّ المسلِمينَ انهَزموا في أثناءِ النَّصرِ، ثمَّ عاد إليهم النَّصرُ؛ فتخصيصُه بالذِّكرِ؛ لِما فيه مِن العِبرةِ بحُصولِ النَّصرِ عند امتثالِ أمرِ اللهِ ورسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وحُصولِ الهَزيمةِ عند إيثارِ الحُظوظِ العاجلةِ على الامتثالِ.

٣٢٨.تفيد أن النصر بيد الله تعالى مهما تعدد أسبابه وأشكاله، لقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ﴾.

٣٢٩.تفيد تعدد غزوات النبي ﷺ واصحابه مما يدفع المسلمين من بعدهم لحذو حذوهم بدليل قوله: في مواطن كثيرة.

٣٣٠.تفيد: أن الشرع لا يمنع أو يمانع أو يثرب في كثرة العدد والعتاد، وإنما ينهى عن الإعجاب بذلك. ولأن التكثير، مما أمر به وحث عليه.

٣٣١.فيها: تسمية مكان المعركة، بال"موطن". قال الجوهري في الصحاح تاج اللغة: والموطن: المشهد من مشاهد الحرب. قال تعالى: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ﴾ وقال طرفة:

على موطن يخشى الفتى عندَه الرَدَى متى تعترك فيه الفوارس ترعد.

٣٣٢.فيها ان المجاهدين" لا ينتصرون بكثرة عددهم" بل بالتوكل على الله وصفاء عقيدتهم من كل شرك ومن حسن ظن بموعود نصر الله وبرص صفوفهم ووحدتهم وتمسكهم بقرآنهم وسنه نبيهم عليه الصلاة والسلام، إضافة إلى أخذهم بأسباب النصر المادية من عده وعتاد (دون الركون إليها وحدها ودون الاغترار بها) ومن حسن اعداد بالتخطيط الاستراتيجي العسكري والسياسي.

٣٣٣.من الحكم الظاهرة في ابتلاءات المؤمنين كسر غرور النفس وطغيانها لتستكين إلى الله.

٣٣٤.تفيد أن البشر مهما علا فضلهم ومقامهم فهم محل للنقص ولا يخلو أحد منهم من زلة أو هفوة أو خطأ؛ ولكنهم متفاوتون في التذكر والأوبة والرجعة والإنابة إلى الله تعالى؛ ولهذا أسند سبحانه وتعالى الإعجاب إلى الجميع في قوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾.

٣٣٥.تفيد أنه لا طريق إلى حصول أي مطلوب من جلائل النعم ودقائقها وكبارها وصغارها إلا بالاعتماد على الله تعالى والتطفل على موائد كرمه وفضله وجوده، وأنه سبحانه وتعالى يحب من عباده أن يثقوا به لا أن يثقوا بأنفسهم، وأن يسألوه ما أهمهم من مصالح الدنيا والآخرة.

٣٣٦.وهنا نكتة: إذا كان مجرد العجب، أوقع الأخيار في الهزيمة وتسبب في تولية الدبر، فما الظن بما يقع من غيرها من سائر الأمة ومن مخالفات عظام لم يسمع عنها من قبل؟.

٣٣٧.فيها: العظمة والعبرة والتعلم من الأخطاء.

٣٣٨.تفيد ضيق الأرض وضيق الصدر والعذاب النفسي يتبع الذنوب والخطايا ومفهوم ذلك سعة الارض والنفس تتبع التقوى والعمل الصالح.

٣٣٩.تفيد أن الوجدان والانفعال النفسي هو محرك السلوك والأفعال لأنهم لما ضاقت أنفسهم ولوا مدبرين ودليله ثم التي تفيد الترتيب مع التراخي لقوله: ﴿أَعْجَبَتْكُمْ﴾؛ فحصل ما حصل بسبب الإعجاب.

٣٤٠.تفيد: أن المعصية تغير الحال.

٣٤١.تفيد: أهمية الاستمرار والثبات على الاستقامة، وأن التحول عنها سبب في تغير الحال لقوله ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ لما استقمتم على التوكل وسلامة القلب من العجب. ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ فتحولتم بهذا العجب عن الاستقامة المنشودة، حصل ما حصل لكم حتى ﴿وَلَّيْتُم﴾ وليس هذا فحسب بل وليتم ﴿مُّدْبِرِينَ﴾ يريد: هربتم.

٣٤٢.تفيد: أهمية راحة البال، وأن العامل النفسي مهم، وتأثيره على الشعور بالضيق والسعة بيّن؛ فإن من الناس من يعيش في سعة، ولكنها تضيق عليه لذعر أو غم أو حزن؛ لقوله: ﴿

وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾، يريد: على سعتها ورحبها وفي هذا إشارة إلى شؤم المخالفة وعدم الاستئناس بالله والاعتماد عليه.

٣٤٣.أفادت مع ما قبلها عدداً من الأسباب الجالبة لهزائم الأمة:

- منها: اتخاذ الكافرين أولياء من دون الله، ورسوله، والمؤمنين.
- ومنها: الركون إلى الدنيا، وتقديم محبتها على محبة الله ورسوله، والجهاد في سبيله.
- ومنها: الركون إلى أسباب القوة المادية من العدة، والعدد والاعتماد عليها في النصر دون الاعتماد، على مسبب الأسباب وحده سبحانه وتعالى.
- ومنها: داء العجب ذلكم الداء القلبي العضال الذي خُصّ بالذكر؛ لشدة ضرره، وخطره، وأثره في الخذلان، والهزائم؛ ويظهر خطره في أمور:

-منها: مخالفته للعبودية التي خلق الإنسان من أجلها؛ القائمة على التذلل، والتواضع لله تعالى.

-ومنها: التشبه بعدو الله إبليس الذي أُعجب بأصل خلقته؛ فمنعه عجبه من الطاعة لخالقه؛ فاستحق الطرد من رحمة الله.

-ومنها: شق صف وكلمة المسلمين، والتنازع فيما بينهم؛ حتى بين الدعاة إلى الله، وطلبة العلم منهم إلا م.

وفيه فوائد:

- منها: أن الزلل وارد من أي أحد مهما علا قدره وارتفع شأنه ف/ "لكل جواد كبوة".
- ومنها: أن الحكم للغالب؛ فإن منهج الرجل – مثلا – يحسب بغالب ما يصدر منه؛ أما ما يقع منه نادرا فهو على القاعدة الواردة في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ [القارعة: ٦].
- ومنها: أن الله يدرك عباده المؤمنين ببركة ما كان منهم من قبل من فضائل ومحاسن وطاعات؛ بدليل ما بعدها (بعد الآية التي نحن بصددها): ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾ [التوبة: ٢٦].

■ومنها: وجل القلب من الوقوع في الزلل؛ وهذا يحمل على.

٣٤٤.تفيد أن الانهزام والتولي لا ينافي الإيمان فقد وصـــفهم بأنهم ولوا مدبرين ومع ذلك أثبت لهم الإيمان؛ وعليه فيها رد على من يكفر بالكبائر والذنوب.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٦].

٣٤٥.بيان عناية الله بأوليائه ومنّته عليهم، وأن السكينة لا تكون إلا للمؤمنين الصادقين.

٣٤٦. تفيد: بشرية الرسول وأنه يصيبه ما يصيبهم من الخوف والقلق والسكينة والطمأنينة.

٣٤٧.فيها ضعف العباد وحاجتهم لنصرة خالقهم.

٣٤٨.فيها إثبات علو الله ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ﴾ ﴿وَأَنزَلَ﴾.

٣٤٩.في نسبة السكينة لله تعظيم لها واختصاص بإنزالها، وأنها لا تكون إلا من الله.

٣٥٠.فيها أن السكينة والطمأنينة وراحة البال نعمة، لابد من استحضارها وشكر الله عليها.

٣٥١.فيها أن القلق والهم (انعدام السكينة واطمئنان النفس) بلاء، ينبغي الاستعاذة منه.

٣٥٢.على المرء أن يدعو ربه ويسأله أن يرزقه السكينة، وراحة البال، والفرج عند ضيق الحال، وحسن المآل.

٣٥٣."إعادة حرف ﴿وَعَلَى﴾ بعد حرف العطف تنبيه على تجديد تعليق الفعل بالمجرور الثاني للإيماء إلى التفاوت بين السكينتين فسكينة الرسول ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ سكينة اطمئنان على المســلمين الذين معه وثقة بالنصــر، وســكينة المؤمنين ســكينة ثبات وشــجاعة بعد الجزع والخوف."[ابن عاشور].

٣٥٤.تفيد ﴿ثُمَّ﴾ بحملها على التراخي الزمني ـ التأكيد على دور العوامل النفســية في المعركة وعظيم أثرها، فزمن الشدة يُعاش طويلاً رغم قصر مدته حقيقة لهوله وصعوبته، وهنا يظهر كذاك الأثر الكبير للحل والعلاج (السكينة).

٣٥٥.إنزال السكينة على قلوب المؤمنين هي أول علامات النصر الإلهي وأسبابه. ولذلك كانت من دعاء النبي ﷺ في غزواته. ففي البخاري عَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ يَنْقُلُ التُّرَابَ، وَقَدْ وَارَى التُّرَابُ بَيَاضَ بَطْنِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلِ السَّكِينَةَ عَلَيْنَا ... وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

[أخرجه البخاري].

٣٥٦.فيها: فضل الله، وأنه يدركه عبده بلطفه وواسع كرمه.

٣٥٧.فيها أن لله جنودًا نعلمهم أو لا نعلمهم، يسخرهم الله لنصرة أوليائه، ويسلطهم على أعدائه.

٣٥٨.تفيد: أن الله يؤيد عبده المؤمن بما غاب عنه وما لم يره ويتوقعه.

٣٥٩.تفيد: أن موازين الهزيمة والنصر في حساب المؤمن غير ما هي عليه في حسبان غيرهم.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التوبة: ٢٧].

٣٦٠.منهج القران في تربية المؤمنين فتح باب التوبة بعد التنبيه على الأخطاء والتذكير بمواقع الخلل.

٣٦١.فيها: عظم نعمة فبعد إنزال السكينة تفضل على عباده بالتوبة.

٣٦٢.فيها: سعة فضل الله وكرمه وجوده – سبحانه.

٣٦٣.تفيد: أن الله لا يعجزه هداية الطغاة ومهما بلغوا من الكفر، وكيف يعجزه ويعز عليه ذلك ولو شاء لهداهم أجمعين.

٣٦٤.فيها: عظم شأن التوبة، وقد كان النبي يكثر منها، ويسألها ربه ﷺ.

٣٦٥.تفيد: أن التوبة معروضة إلى يوم القيامة، وليست قاصرة على المقصودين بالآية؛ وفي الحديث: "والتوبة معروضة بعد". [رواه البخاري]. ولأن الاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [التوبة: ٢٨].

٣٦٦.فيها ذم المشركين.

٣٦٧.فيها خطورة النجاسة المعنوية. لم يقل (نجسون) وإنما أتى بالمصدر (نجس) لأنهم جمعوا النجاسة من أقطارها. وجاءت (نجس) بالفتح دون الكسر: لاتساع نجاستهم؛ فالشرك أنجس النجاسات. وجمع (المشركون) لأنه ليس هناك استثناء من النجاسة؛ فنجاستهم عامة.

٣٦٨.فيها أن المعتقدات تطهر صاحبها أو تنجّسه.. فالمشرك نجّسته عقيدته.

٣٦٩.فيها إبطال الإعجاب بالمشرك؛ لأنه نجس.

٣٧٠.فيها أنه مادام الشرك نجاسة فالتوحيد والإيمان طهارة؛ ولذا أمر الله تعالى خليله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم به قال تعالى: ﴿ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة: ١٢٥] وذلك شامل للتطهير الحسي والمعنوي وأول التطهير تطهيره من لوثات الشرك والوثنية. وكذلك فعل نبينا صلى الله عليه وسلم أول دخوله مكة فاتحا بأن أخذ بتطهير الكعبة من الأصنام مردداً﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾.

٣٧١.تفيد التدرج في تطبيق أحكام الشريعة.

٣٧٢.فيها تطهير الحرم الشريف من كافة أنواع النجاسة.

٣٧٣. فيها تقديم العلة قبل الحكم. قدم العلة ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ على الحكم ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ﴾.

٣٧٤.تفيد خصوصية المسجد الحرام وعظم مكانته عند الله تعالى؛ وأنه لا يجوز للكافر ذميا كان أو مستأمنا أن يدخله بحال من الأحوال، لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾؛ وإلى هذا الحكم ذهب جمهور أهل العلم.

٣٧٥.يفيد ظاهر العبارة القرآنية ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ دليلا لمن ذهب من أهل العلم إلى أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة؛ وذهب الجمهور إلى أن الخطاب ههنا للمؤمنين بدليل السابق واللاحق؛ وأن هذه العبارة كناية عن نهي المؤمنين عن تمكينهم مما ذكر.

٣٧٦.فيها عناية الله تعالى ببيته الحرام وتطهيره من الشرك وأهله؛ ولذا جعل له محارم لحمايته.

٣٧٧.فيها أن من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه.

٣٧٨.تفيد أن الله عز وجل يغني من يشاء من فضله وفي هذا دلالة على أن من أراد الغنى وسعة الرزق وقوة الاقتصاد أن يطلبه من الله تعالى؛ وبما شرعه الله تعالى من الأسباب المادية والمعنوية؛ وأن يعلم يقينا وجزما بأن ما عند الله خير وأبقى؛ وبأن من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه.

٣٧٩.تفيد: أن الرزق والعوض، قد يتأخر لقوله: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لما بين السين وسوف من البعد والوسع؛ ولذا لم يقل: {فسيغنيكم}. وللإشارة إلى الأصل، وهو: الامتثال لا العوض والمقابل. وفيه من الاختبار والابتلاء ما فيه.

٣٨٠.فيها: مناسبة التذييل للسياق والأحداث السابقة واللاحقة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

قال تعالى:﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

٣٨١.تفيد دقة التناسب وروعة التناسق مع ما قبلها فبعد أن ذكرت الآيات السابقة غزوة حنين وما حدث فيها من مواجهة آخر وأقوى الجيوب المناوئة للدعوة الإسلامية من مشركي

العرب؛ انتقلت هذه الآية الكريمة إلى الحث على توسيع نطاق المواجهة لتشتمل الكفار من أهل الكتاب؛ وقد امتثل النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الأمر الإلهي فقام بالتجهز لمواجهة الرومان في غزوة تبوك؛ أو ما سميت بغزوة العسرة؛ وهي آخر غزوة غزاها النبي صلى الله عليه وسلم في حياته؛ وقد ذكرت في هذه السورة الكريمة؛ وفي هذا براعة استهلال لما سيأتي في هذه السورة مما يتعلق بأحداث هذه الغزوة؛ وما سبقها من وقائع ظهر فيها النفاق والمنافقون.

٣٨٢.فيها بيان الموقف من أهل الكتاب في بلاد المسلمين فإما الدخول في الإسلام أو الجزية أو القتال.

٣٨٣.فيها الرد على دعاة وحدة لأديان، لأن الآية نصت على أن دين الحق واحد وهو الإسلام.

٣٨٤.تفيد: أن تحريم ما حرم الله وتحليل ما أحل الله، من الدين ومقتضيات الإيمان. وعليه: فالإيمان: قول وعمل واعتقاد.

٣٨٥.تفيد: أن الطاعة، تكون على وفق مراد الله وما شرعه؛ لقوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾، وعليه: فدينهم وعملهم باطل مزعوم مفترى.

٣٨٦.تفيد: أن الجزية لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب؛ لأنه تعرض للأمر بقتال المشركين ولم يأمر بأخذها منهم؛ اللهم إلا المجوس.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

٣٨٧.فيها: الكفر البيّن الصراح لليهود والنصارى.

٣٨٨.فيها الدعاء على اليهود والنصارى؛ لقوله: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

٣٨٩.فيها أن كل من ادعى لله الولد ادعاؤه ظاهريّ لقوله ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾.

٣٩٠.تفيد أن ادّعاء الولد لله تعالى دعوة قديمة تبنتها أديان قبل اليهود والنصارى وتصديقه ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾.

٣٩١.تفيد: أنه كلما ازداد المرء علما، واستكبر عن الانقياد للحق، شدد عليه في العقوبة والمقت؛ لقوله: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ أي: من أين ينصرفون عن الحق، وهو ظاهر لهم؟، يريد: ليس لهم عذر فيما قالوه.

٣٩٢.تفيد خطورة عدم تنزيه الله تعالى من الصحابة والولد وأنه سبب اللعنة وغضب الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١].

٣٩٣.تفيد: أن صاحب الهوى، يتمسك بالآراء الضالة ويدافع عن قائلها ويتعصب له؛ لقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾، ولم يقل "اتبعوا" – مثلا –؛ فليس مجرد اتباع وقفوا. ولما في الاتخاذ من المحبة والخصوصية والإيثار والتشبث والمواظبة.

٣٩٤.تفيد: أن التحريم والتحليل من خصائص الرب – جل وعلا – وأن التعبد لله بالحلال والحرام على وفق ما شرعه الله؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [البيّنة:٥]. وعليه: فمن نازع الله في تحريم الحرام وتحليل الحلال، فقد أشرك في الربوبية.

٣٩٥.فيها أن اليهود والنصارى ما زالوا حتى يومنا هذا يتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، بل زادوا غيا إلي غيهم وضلالا فوق ضلالهم وتحريفا على أصل تحريفهم.

٣٩٦.فيها: وجوب إفراد الله وحده بالعبادة، لأن الله ذكر ذلك إخبارا عنهم على سبيل الذم.

٣٩٧.لفظ اتخذوا يدل على أمور منها:

- تعمدهم في جعل الأحبار والرهبان أربابا، فأطاعوهم في تبديل الدين
- فيها (تكلّف ظاهر) لأنه خلاف الفطرة، فالفطرة تدعو لعبادة الله.
- واو الجماعة، للدلالة معنى الاجتماع وتواصيهم على ذلك.

٣٩٨.تفيد: أن اليهود والنصارى، أشركوا في الربوبية والألوهية.

٣٩٩.تشير إلى: خطر وضرر الرؤساء الجهال على الأمة؛ لقوله:﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا ﴾.

٤٠٠.فيها خطورة علماء وعباد الضلالة، فينخدع بهم الأتباع ويغلون فيهم حتى يتخذوهم أرباباً من دون الله، وكما قال الأول:

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

٤٠١.فيها التحذير من الغلو ومغبته فالغلو جرّ ضحاياه إلى عبادة المخلوقين أمثالهم.

٤٠٢.فيها التنبيه والتحذير من شرك الطاعة، وهو: طاعة العلماء والعباد في تبديل الدين بتحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله.

٤٠٣.فيها التأكيد على أن التوحيد هو أول الواجبات وآكد المهمات، بدلالة حصر الأمر على تحقيقه ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾.

٤٠٤.فيها تنزيه الله تعالى عن الشرك ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ وهذا بعد قوله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ بسبب شركهم، فنزه الله تعالى نفسه عن ذلك النجس.

٤٠٥.في هذه الآية – كما قال الألوسي رحمه الله: (ناعِيَةٌ عَلى كَثِيرٍ مِنَ الفِرَقِ الضّالَّةِ الَّذِينَ تَرَكُوا كِتابَ اللَّهِ تَعالى وسُنَّةَ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لِكَلامِ عُلَمائِهِمْ ورُؤَسائِهِمْ، والحَقُّ أحَقُّ بِالِاتِّباعِ فَمَتى ظَهَرَ وجَبَ عَلى المُسْلِمِ اتِّباعُهُ وإنْ أخْطَأهُ اجْتِهادُ مُقَلِّدِهِ) [1]، ولذلك أمرنا الله تعالى في كل ركعة من صلاتنا أن نستعيذ من سلوك طريق المغضوب والضالين، والمغضوب عليهم من فسد قصدهم وانحرفوا عن علم ومنهم اليهود. والضالون من عبد الله على جهل. ومنهم النصارى، ولهذا قال سفيان: من فسد من علمائنا ففيه شبه من يهود ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى).

(١) روح المعاني ١٠/٨٤.

٤٠٦.على أهل العلم والعبادة أن يجتهدوا في تحذير الناس من تعظيمهم تعظيما يؤدي إلى طاعتهم طاعة مطلقة، وأن لا يملوا من بيان خطورة شرك الطاعة، فإن من أوسع أودية الباطل الغلو في الأفاضل.

٤٠٧.فيها ما في معنى الحديث المتفق عليه: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعا، ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما، اتخذ الناس رءوسا جهالا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا" [١].

٤٠٨.تشير إلى: أن وظيفة العلماء، تعبيد الناس لله رب العالمين؛ لا تعبيد الناس لهم أو لغيرهم؛ قال الله: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران:٧٩].

٤٠٩.تشير إلى: الجمع بين العلم والعمل معا، وعدم التفريق بين ذلك؛ لقوله: ﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ ﴾.، أي: العلماء والعباد؛ فيعاب على العالم الذي لم يعمل بعلمه، وعلى الجاهل الذي يعمل بلا علم؛ ولذا قيل: من علم ولم يعمل فقد شابه اليهود، ومن عمل من غير علم فقد شابه النصارى؛ وجماع ذلك قول الله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

قال السفاريني رحمه الله:

وعـــالم بعلمـــه لم يعملـــن ... معـذب مـن قبـل عبـاد الـوثن

وكـل مـن بغـير علـم يعمـل ... أعمالـــه مـــردودة لا تقبـــل

٤١٠. تفيد: أن الغاية لا تبرر الوسيلة، فلم ينفعهم قصدهم في اتباع الصالحين – بظنهم–ولكن يقال من المعني بالصالحين؟؛ فإن كانوا يعنون "الأحبار والرهبان"، فليسوا كذلك، بل هم طواغيت

(١) أخرجه البخاري ٣١/١، ومسلم ٣٠٥٨/٤.

ينازعون الله أمره؛ وفي الحديث – عن الأحبار والرهبان –: "كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه"(١).

٤١١.تفيد: أن من أطاع أحدا في التحريم والتحليل من دون الله، فهو مرتكب لكبيرة، وكما هو مقرر في حد الكبيرة كل ذنب ترتب عليه وعيد خاص من لعن أو غضب أو حد؛ لقوله قبلها: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾، ثم قال بعدها: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٤١٢.تفيد استمرار الشرك وبقاءه إلى آخر الدنيا؛ دل على ذلك فعل المضارع ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ الذي يفيد الاستمرار.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢].

٤١٣.تفيد أن محاربة الدين وشرع الله تعالى يبدأ من الأفواه التي هي محل الكلام فالطعن واللمز والغمز بالدين وأهله يبدأ من الأفواه. وكما قيل: فإن الحرب أولها كلام

٤١٤.فيها أن حال أعداء الإسلام، كحال من يريد أن يطفئ النور العظيم بالنفخ فيه بفمه، ولا يزيد ذلك النور إلا توهجا، فهم حريصون على إطفائه ومستمرون على ذلك دل عليه الالتفات إلى صيغة المضارع لبيان أن كيدهم متجدد.

٤١٥.فيها عظم شان اللسان ومحله الفاه فكلمة واحدة تتدخل الدين وتخرج منه وتعادي وتحارب به فهو ينوب عن كل الجسد؛ لذا يوم القيامة يختم عليه بل يعترف بما اغترف "عنكن كنت أناضل" (٢).

٤١٦.فيها وصف دين الله بأنه نور، يستضاء به الى الحق وطريق النجاة والسعادة، فهو كالنور البين الذي لا يتخطاه البصر وينكره المنكر أو يجحده جاحد.

---

(١) السلسلة الصحيحة للألباني ٩/٦٣.

(٢) أخرجه مسلم ٤/٢٢٨٠.

٤١٧.فيها الوعد الإلهي الذي لا يخلف بحفظ هذا الدين إلى يوم القيامة مهما تكالبت عليه سهام العداوات فإنها لا تزيده الا ثباتا ورسوخا.

٤١٨.في قوله تعالى:﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ تشريف هذا الدين الذي هو نور وتعظيمه بإضافته إلى الاسم الأعظم.

٤١٩.وهذه الآية من أرجى الآيات التي تطمئن المؤمن وتحيي في قلبه جذوة الأمل والتفاؤل وحسن الظن بالله ودفع وساوس اليأس والقنوط في أيام الفتن وحرب الدين وبروز رؤوس النفاق وهي خير دليل دامغ لظن الجاهلية في أن الله لن ينصر دينه وأولياءه.

٤٢٠.تفيد: أن للعبد إرادة، وكسبا للكفر بمحض اختياره – الذي منه منازعته الله أمره في التحريم والتحليل –؛ بقرينة: ﴿وَلَوْ كَرِهَ﴾. وعليه: ففيها رد على الجبرية.

٤٢١.فيها أن تمام دين الإسلام، لن يكون برضا الكفار؛ بل لا بد من وجود الإكراه.

٤٢٢.تفيد: أن محاربة الدين، سنة قديمة، متوارثة.

٤٢٣.فيها: تهوين وتحقير لأمر هؤلاء وبيان عجزهم؛ فهم مع هذا الاستمرار والإصرار ومكر الليل والنهار، ما استطاعوا ولن يستطيعوا إطفاءه، قال ابن عاشور: إضافة النور إلى اسم الجلالة إشارة إلى أنّ محاولة إطفائه عبث وأنّ أصحاب تلك المحاولة لا يبلغون مرادهم [١].

٤٢٤.فيها تمام دين الله، وهذا مناسب للسياق قبله من عدم اتباع أحد من الناس لاكتمال الدين وتمامه.

٤٢٥.في الآية تشبيه لطيف حيث شبه من يريد هدم هذا الدين بكامله واستئصال شأفته برجل يريد أن يطفئ نورا عظيما بمجرد النفخ فيه بفمه فتكون ثمرة ذلك أنه بنفخه فيه لا يزداد ذلك النور إلا تماما وكمالا وتوهجا.

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/١٧٣.

٤٢٦. في قوله سبحانه ﴿كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أن كراهية دين الله كله الذي هو نوره أو كراهية تمامه وكماله كفر محبط للعمل وهو من صفات الكفار والمنافقين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد:٩]، أما كراهية أبعاضه وأجزائه التي هي شاقة على النفس كصلاة الفجر والجهاد في سبيل الله فليس بكفر إذ وصف به أصحاب رسول الله صلى الله عليه واله وسلم ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة:٢١٦].

٤٢٧. تفيد مع ما بعدها أن الله عز وجل لم يتوف رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم إلا وقد أتم به نوره وأكمل به دينه وأعلى به كلمته، وأظهره على الدين كله؛ حيث توفي عليه الصلاة والسلام وقد ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها؛ لا يزيغ عنها إلا هالك..

٤٢٨. جيء بهذا التركيب هنا لشدّة مماحكة أهل الكتاب وتصلّبهم في دينهم، ولم يُجأْ به في سورة الصف إذ قال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الصف:٦] لأنّ المنافقين كانوا يكيدون للمسلمين خُفية وفي لين وتملّق [١].

٤٢٩. فيها بلاغة القرآن الكريم؛ قال ابن عاشور: "والكلام تمثيل لحالهم في محاولة تكذيب النبيﷺ، وصدّ الناس عن اتّباع الإسلام، وإعانة المناوئين للإسلام بالقول والإرجاف، والتحريض على المقاومة، والانضمام إلى صفوف الأعداء في الحروب، ومحاولة نصارى الشام الهجوم على المدينة بحال من يحاول إطفاء نور بنفخ فمِه عليه، فهذا الكلام مركّب مستعمل في غير ما وضع له على طريقة تشبيه الهيئة بالهيئة، ومن كمال بلاغته أنّه صالح لتفكيك التشبيه بأنّ يشبّه الإسلام وحده بالنور، ويشبّه محاولو إبطاله بمريدي إطفاءِ النور ويشبّه الإرجاف والتكذيب بالنفخ، ومن الرشاقة أنّ آلة النفخ وآلة التكذيب واحدة وهي الأفواه. والمثال المشهور للتمثيل الصالح لاعتباري التركيب والتفريق قول بشار:

كَأنَّ مُثَار النَّقْع فوقَ رؤوسنا وأسْيافَنَا ليلٌ تَهاوَى كواكبُه

(١) التحرير والتنوير ١٠/١٧٢.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٣].

٤٣٠. فيها بيان لكيفية اتمام الله لنوره المذكور في الآية السابقة، وذلك بإرسال رسوله بدين الإسلام، والقرآن.

٤٣١. فيها كراهية الكفار على مر الدهور وحسرتهم من انتشار الإسلام.

٤٣٢. تفيد بشارة للنبي ﷺ ومن معه من المؤمنين بأن الله عز وجل ناصرهم، ومظهر دينهم على سائر الأديان بالحجة والغلبة والقهر على سائر الأمم، فهو وعدٌ إلهي لا يُخلف بانتشار الإسلام وغلبته في جميع بقاع المعمورة.

٤٣٣. فيها دلالة واضحة على صدق القرآن الكريم وأنه من عند الله تعالى علام الغيوب.

٤٣٤. فيها الدلالة على صدق نبوة النبي محمد ﷺوصحة رسالته الربانية.

٤٣٥. فيها منة الله على عباده بإرسال نبيه ﷺ وإنزال كتابه عليه.

٤٣٦. فيها فرحٌ وسرور وتفاؤل لكل مسلم، فالآية تبعث الطمأنينة في نفوس القلقين على مستقبل هذا الدين، بأن النصر والغلبة لهم، وأن العبرة بالخواتيم والعواقب، فإن الإسلام إذا حورب اشتد، وإذا ترك أمتد.

٤٣٧. فيها بشرى من الله تعالى للمسلمين بأنهم سيسودون العالم في يوم من الأيام وسيصبح دينهم الإسلامي الدين الذي يعبد الله به في الأرض لا غيره، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال:٣٩]، فلو لم يعلم الله أن ذلك كائن لم يجعله غاية وطالب بالوصول إليها.

٤٣٨. فيها أن طريق الحق واحد، وطرق الباطل متشعبة وكثيرة.

٤٣٩.فيها التعبير عَنِ الإسْلامِ ﴿بِالهُدى ودِينِ الحَقِّ﴾ تَنْوِيهًا بِفَضْلِهِ، وتَعْرِيضًا بِأنَّ ما هم عَلَيْهِ لَيْسَ بِهُدًى ولا حَقٍّ) [١].

٤٤٠.تفيد مع ما بعدها أن ظهور الأمة المحمدية منذ بعثة النبي محمد ﷺ قائم على ركنين عظيمين:

الركن الأولى: إقامة العدل بين الناس؛ ونصرة المظلومين.

الركن الثاني: إعانة الضعفاء والمحرومين ورعايتهم.

٤٤١.فيها أنه يجب على أصحاب الديانات الباطلة سرعة الاستجابة للإسلام لأنهم مهزومين بأديانهم الباطلة إن استمروا عليها.

٤٤٢.فيها إضعاف لأعداء الاسلام، بحرب معنوية بجانب الحرب الحقيقية، فمجرد إخبارهم بأنهم مهزومون مهما عملوا فيه تثبيط لهمتهم وسعيهم.

٤٤٣.فيها أن الله تولى نصرة هذا الدين وأهله، ومن نصره الله فلا غالب له.

٤٤٤.تفيد: ان الدين الحق ولا- دين حق غيره- هو الدين الإسلامي العظيم وما دونه من الأديان باطل... لأن أديان أهل الكتاب الأخرى حرفت وبدلت.

٤٤٥.فيها شكر الله عز وجل على هذه النعمة العظيمة بالهدى ودين الحق وإظهار ديننا الحنيف على الدين كله.

٤٤٦.فيها الحث على تعلم الهدى ودين الحق لينصر هذا الدين بالحجج والبراهين.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:٣٤].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ١٠/١٧٣.

٤٤٧.تفيد مكانة أهل الإيمان ومنزلتهم، حيث خصهم بهذا الخطاب العظيم " فأَقْبَلَ سُبْحانَهُ وعَزَّ شَأْنُهُ عَلى أهْلِ وُدِّهِ مُسْتَعْطِفًا مُتَلَطِّفًا مُنادِيًا بِاسْمِ الإيمانِ..."[١].

٤٤٨.فيها التنبيه إلى أثر المال واستغلاله في استعباد الأفراد والشعوب؛ فلما ذكرت الآية السابقة حال الأتباع للأحبار والرهبان المستعبدين لهم المتخذينهم أرباباً من دون الله، بينت هذه الآية حال المتبوعين من الأحبار والرهبان وكيف يستعبدون الناس بالمال أكلاً وكنزاً. وتوظيفاً للصدّ عن سبيل الله.

٤٤٩.يفيد افتتاح الآية بنداء المؤمنين إشارة إلى خطورة هذه القضية على المؤمنين وتحذيرهم من الوقوع فيما وقع فيه الأحبار والرهبان؛ وخصوصا أنها أصبحت في مرحلة (الظاهرة الخطيرة) التي ينبغي الانتباه والحذر من الوقوع في مثلها.

٤٥٠.تفيد: أن ديدن الأغلب الأعم من الأحبار والرهبان أكل أموال الناس بالباطل والصد عن سبيل الله وتعبيد الناس لشهواتهم وأهوائهم وكنز الذهب والفضة وحب المال والتعلق به وشح أنفسهم، وتاريخهم القديم والحديث يثبت هذا القول ويصدقه، ولذلك ثارت أوربا على الكنائس وثارت على هؤلاء الرهبان. ومن كان هذا ديدنه فلا يعرف للمال حقا ولا للصدقة بابا.

٤٥١.فيها إشارة إلى وجوب إنصاف الناس ولو كانوا مخالفين في الدين ووجوب الدقة في الأحكام وعدم التعميم فيها إلا بدليل، ولأن منهم من لا يأكل مال الغير بالباطل. ولا غرو فالله يقول: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾.

٤٥٢.تفيد أن أكل أموال الناس بالباطل تفتح للعبد أبوابا كثيرة من الشرور والآثام؛ ولها نتائج وخيمة على العبد في دينه ودنياه وآخرته.

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٣/٣٠٥.

٤٥٣.تفيد أن أولى الناس وأقربهم إلى الابتعاد والتورع عن أكل أموال الناس والتعدي عليها هم العلماء والعباد؛ فإن كان هذان الصنفان منغمسين في وحل الظلم والتعدي على الناس وأخذ أموالهم وممتلكاتهم؛ فكيف سيكون حال الطبقات الأخرى في المجتمع؟.

٤٥٤.فيها أن الاختبار الحقيقي لأهل العلم والدين مهما بلغ في العلم مبلغه إنما يكون في الأموال.

٤٥٥.تفيد أهمية مقياس دين المرء وعدالته وفضله من خلال معاملته بالدرهم والدينار؛ وقد جاء في الأثر عن خرشة بن أبحر قال شهد عند عمر بن الخطاب رجل شهادة؛ فقال له: لست أعرفك ولا يضرك أن لا أعرفك فأت بمن يعرفك. فقال رجلٌ من القوم: أنا أعرفه. فقال بأي شيء تعرفه؟ قال: بالعدالة والفضل. قال: فهو جارك الأدنى الذي تعرف ليله ونهاره ومدخله ومخرجه؟ قال: لا. قال: فمعاملك في الدينار والدرهم اللذين يستدل بهما على الورع؟ قال: لا. قال: فرفيقك في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا.

قال: لست تعرفه. ثم قال للرجل: ائت بمن يعرفك.

٤٥٦.تفيد أن من لم يتورع عن أكل أموال الناس بالباطل فلن يتورع عن إصدار فتاوى وبيانات وتوجيهات تصد الناس عن سبيل الله تعالى.

٤٥٧.فيها التنبيه إلى الصلة بين التصرف في المال بغير الحق أكلاً أو إنفاقاً وبين الصدّ عن سبيل الله، فالأكل قد خرج مخرج الغالب وما كان كذلك لا يفيد الاختصاص به، بل النهي على كل أنواع التصرفات فيه، من احراق واتلاف، وغيرهما.

٤٥٨.فيها الإشارة إلى العناصر الأكثر تأثيراً في المجتمعات وهم:

-العلماء (الأحبار) -والعباد (الرهبان) - (وأرباب الأموال من السلاطين وغيرهم)

٤٥٩.تفيد صحة مقولة ما أشبه الليلة بالبارحة... "فمَن تَأمَّلَ أحْوالَ أهْلِ النّامُوسِ والتَّزْوِيرِ في زَمانِنا، وجَدَ هَذِهِ الآياتِ كَأنَّها ما أُنْزِلَتْ إلّا في شَأْنِهِمْ، وفي شَرْحِ أحْوالِهِمْ، فَتَرى الواحِدَ مِنهم يَدَّعِي أنَّهُ لا يَلْتَفِتُ إلى الدُّنْيا، ولا يَتَعَلَّقُ خاطِرُهُ بِجَمِيعِ المَخْلُوقاتِ، وأنَّهُ في الطَّهارَةِ والعِصْمَةِ

مِثْلُ الملائِكَةِ المقَرَّبِينَ حَتّى إذا آلَ الأمْرُ إلى الرَّغِيفِ الواحِدِ تَراهُ يَتَهالَكُ عَلَيْهِ، ويَتَحَمَّلُ نِهايَةَ الذُّلِّ والدَّناءَةِ في تَحْصِيلِهِ) أهـ، هذا في زمانه فكيف بزماننا.

٤٦٠.فيها أن الباطل يَشْمَلُ وُجُوهًا كَثِيرَةً، مِنها تَغْيِيرُ الأحْكامِ الدِّينِيَّةِ لِمُوافَقَةِ أهْواءِ النّاسِ، ومِنها القَضاءُ بَيْنَ النّاسِ بِغَيْرِ إعْطاءِ صاحِبِ الحَقِّ حَقَّهُ المعَيَّنَ لَهُ في الشَّرِيعَةِ، ومِنها جَحْدُ الأماناتِ عَنْ أرْبابِها أوْ عَنْ ورَثَتِهِمْ، ومِنها أكْلُ أمْوالِ اليَتامى، وأمْوالِ الأوْقافِ والصَّدَقاتِ.

أفاده الطاهر ابن عاشر وهذه نماذج لصور يصعب حصرها [١].

٤٦١.فيها: بيان لواجبين مهمين فيما يتعلق بالمال، الأول: جمعه من حل. الثاني: إنفاقه كما أمر الله، فجمعه من حله ووضعه في محله.

٤٦٢.تشير إلى: فتنة المال، وأنه يحمل هؤلاء ومن شاكلهم على الصد عن الدين، وفي المقابل: أثره على نشر الدين وبيانه للناس؛ ولذا جعل الله بذله من أجل إعلاء كلمته، جهادا في سبيله؛ وكما قال: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة:٤١].

٤٦٣.فيها: التعريض بتحذير المؤمنين أن يسلكوا سبيل هؤلاء، وأن أكل أموال الناس بالباطل، ينافي الإيمان الواجب.

وهنا فائدتان:

الأولى: أن من طرق التعليم، التعريض وعدم التصريح، والنداء بأطيب الألفاظ وبما يدفع السامع أن يربأ بنفسه عن الوقوع في المخالفة والملامة، وهذا الأسلوب نافع للصغير والكبير.

الثانية: أن القرآن خير وبركة كله، وفيما يخبر ويقص؛ فبمجرد أن يسمع المسلم الخبر ينتفع ويزداد إيمانا؛ لأن الله تعالى أخبر المؤمنين عن أفعال "الأحبار والرهبان" ولم يصرح بالتحذير من فعلهم؛ فلم يقل: "فلا تفعلوا كما فعل الأحبار والرهبان.

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/١٧٥.

٤٦٤.فيها تلطف وعناية من الله لعباده المؤمنين. وهذا يدل على فضل الإيمان بالله وأنه يحث على الخير المحض.

٤٦٥.فيها دليل لقاعدة "الأصل في المعاملات الحل"، لقوله: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾، فلم يعب عليهم مجرد الأكل، بل لكونه بالباطل، وأيضا دليل لقاعدة: "الأصل في أموال الناس الحرمة".

٤٦٦.في قوله سبحانه ﴿أَمْوَالَ النَّاسِ﴾ جواز نسبة الشيء لغير مالكه الحقيقي؛ لأدنى ملابسة، وإلا فالمالك الحقيقي هو الله تعالى كما قال جل وعلا: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد:٧].

٤٦٧.فيها: تبيين لشناعة صنيعهم – ومن نحا نحوهم، وأن عملهم مستمر والتأكيد على ذلك؛ لقوله: ﴿لَيَأْكُلُونَ﴾، واللام للتوكيد. والمضارع في "يأكلون – يصدون – يكنزون" لإفادة استمرارهم في كل زمان.

وعليه: ففي هذا التأكيد، إشارة إلى عدم الاغترار بهم بحالهم؛ لمقدرتهم على خداع الناس وتسويق مآربهم. ناهيك عن افتتاح الإخبار عنهم بـ "إن" المؤكدة؛ وهو أصدق القائلين.

وعليه أيضا: فينبغي عند الحديث عن الأفعال الشنيعة التي يمقتها الشرع، أن يؤكد على خطرها.

وفي الجمع بين الأحبار والرهبان بالعطف بالواو الذي يدل في أصل وضعه النحوي على مطلق الاشتراك في الحكم (في الفعل)، وفي تقديم الأحبار على الرهبان في العطف بالواو الذي يفيد عند البلاغيين الاهتمام بالمقدم منهما جملة من الفوائد، منها:

الأولى: تقديم العلماء على العباد في الفضل والمنزلة.

الثانية: إشارة إلى تقدم الأحبار على الرهبان في الوجود.

الثالثة: أن تحقق أكل أموال الناس بالباطل في الأحبار أكمل وأكثر منه في الرهبان.

الرابعة: أن الصد عن سبيل الله أشد وأكثر وأمكن في أحبار اليهود منه في رهبان النصارى.

الخامسة: أن الاهتمام بالجانب المادي عند أحبار اليهود أشد في النفس وأمكن في حياة أحبار

اليهود منه في رهبان النصارى، والواقع شاهد صدق على ذلك..

٤٦٨.فيها: أن النبي – صلى الله عليه وسلم – مبلغ عن الله؛ لقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾.

٤٦٩.فيها: مشروعية التحذير من علماء السوء وعباد الضلالة؛ بل تفيد الأمر بذلك ولما فيها من المؤكدات..

٤٧٠.في الآية جملة من الدلالات الدالة على عظم ما أخبرت به، منها:

النداء بقوله سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾

التأكيد ب إن واللام الداخلة على خبرها.

٣–التعبير بالاسم الموصول الدال على التحقير والإهمال.

٤– تعظيم السبيل بإضافته إلى الله تعالى.

٤٧١.بيان عظم العذاب المتوعد به وعظم الألم الموصوف به العذاب والمعذب معا بما يفيده وصف العذاب بكونه أليما وبما يحتمله وزن فعيل من صلاحيته لكل من معنى فاعل ومعنى مفعول.

٤٧٢.تشير إلى: سلطان الدين على النفوس؛ فيجب على من أولاه الله علما، أن يتقي الله فيه. وأن يدل الناس على الخير ويعلمهم الهدى ودين الحق. ولا يجعله مطية للدنيا، وقد قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٥-١٦]، وكيف يليق بالعاقل أن يجعل الأعلى وسيلة للأدنى.

٤٧٣.يفهم منها: أهمية شأن الذهب والفضة؛ دون غيرها من الورقيات، وهي من أصول الأموال وأروش الجنايات وقيم المتلفات. وجه ذلك التنصيص عليها؛ ولذا لم يقل: والذين يكنزون المال – مثلا..

٤٧٤.فيها التحذير من علماء السوء وعباد الضلال؛ كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى" [١] وفي الحديث الصحيح: لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة. قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟. وفي رواية: فارس والروم؟ قال: ومن الناس إلا هؤلاء؟" [٢].

٤٧٥.في التعبير بالصد في قوله تعالى ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى أن الأحبار والرهبان يمنعون الناس عن سبيل الله ويمنعون سبيل الله من الوصول إلى الناس بكل ما أوتوا من قوة بالغة، قوة المناصب الدينية من العلم والعبادة التي يتسترون خلفها وقوة أموال الناس التي يأكلونها بالباطل.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة:٣٥].

٤٧٦.فيها: الإيمان باليوم الآخر، وأن النار حق والتذكير بها، وأن هذا اليوم آت لا محالة.

٤٧٧.تفيد: أن من الناس من يعذب بما عصى به – أعاذنا الله؛ وتصديقه الحديث المتفق عليه: "ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا..." [٣].

٤٧٨.فيها: أن المال أحد أكبر الأشياء التي سوف يحاسب عليها الإنسان يوم القيامة.

٤٧٩.فيها تقديم الجِباهَ ثمَّ الجُنُوبَ؛ لأنَّ مانِعَ الصَّدَقةِ في الدُّنيا كان يَصرِفُ وَجْهَه أوَّلًا عن السَّائِلِ، ثم يَنُوءُ بِجانِبِه، ثمَّ يتولَّى بِظَهْرِه" [٤]. وقدمت الجباه، للمبالغة في العذاب والإهانة والإذلال – أعاذنا الله. وكثيرا ما يذكر وجوه المعذبين في النار لشرف الوجه ولأنه مجمع الحواس؛ فكان هذا أدعى في شدة الإهانة.

---

(١) أورد الأثر شيخ الإسلام ابن تيمية في الاقتضاء ١/٧٩.

(٢) أخرجه البخاري ٤/١٦٩، ومسلم ٤/٢٠٥٤.

(٣) أخرجه البخاري ٧/١٣٩، ومسلم ١/١٠٣.

(٤) البرهان في علوم القرآن، ٣/٢٦٨ .

٤٨٠. فيها أن عذاب النار ألوان الإحماء والكي وكونهم أصلا في النار.

٤٨١. فيها أن المجرم يكشف له سبب عقوبته تقريرا له وتبكيتا.

٤٨٢. فيها: التأكيد على حكم وجوب الزكاة، وأن منعها من الكبائر..

٤٨٣. تشير إلى: أن الإنفاق في سبيل الله، من أعظم ما يدخره العبد ليوم معاده.

٤٨٤. فيها: عظيم قدرة الله، وأنه لا يعجزه شيء؛ لأنه تعالى يأتي بهذه المكنوزات ليحمى عليها في نار جهنم؛ جاء في الحديث "تأتي الإبل على صاحبها على خير ما كانت، إذا هو لم يعط فيها حقها، تطؤه بأخفافها، وتأتي الغنم على صاحبها على خير ما كانت إذا لم يعط فيها حقها، تطؤه بأظلافها، وتنطحه بقرونها" (١).

٤٨٥. تفيد، وبضميمة ما قبلها: أن الله لا يعذب بمجرد الكنز والجمع؛ لقوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ولأن جمع المال محبب للنفوس بالفطرة؛ كما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات:٨]، فدل أنه لم يرد مجرد الكنز. حتى الذي عاب عليه في قوله: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾﴾ [الهُمَزة:٢]، لم يرد مجرد الجمع بقرينة: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾﴾ [الهُمَزة:٣].

٤٨٦. في الآيتين المتتاليتين إشارة إلى خطورة أمر الأموال في طرق الاكتساب ومصادر الإنفاق.

٤٨٧. فيها إشارة إلى عظم الحساب والجزاء على كل ذلك، ففي الآية الأولى حديث عن مصادر الدخل الحرام في حياة أبرز طوائف المجتمع (الأحبار والرهبان) فهم يأكلون أموال الناس بالباطل ثم حديث عن جهات الإنفاق فتارة يستعملون هذا المال في الصد عن سبيل الله وتارة أخرى يكنزونها ولا ينفقونها في سبيل الله، بل ينفقونها في سبيل الشيطان، وفي الآية الثانية ذكر عقوبة جانب واحد من جوانب التعامل مع المال. ولشدة خطورة أمر الأموال كان السؤال يوم القيامة

---

(١) أخرجه البخاري ٢/١٠٦.

عن المال من جهتين (من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟) بينما كان السؤال عن غيره من جهة واحدة عن عمره وعن شبابه، ونلاحظ في الحديث "وفيم أنفقه؟" [1] ولم يقل ولم ادخره؟ وهكذا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٣٦].

٤٨٨.تفيد بلاغة القرآن في لفت نظر السامع، قال ابن عاشور في التحرير والتنوير: وافْتِتاحُ الكَلامِ بِحَرْفِ التَّوْكِيدِ لِلِاهْتِمامِ بِمَضْمُونِهِ لِتَتَوَجَّهَ أسْماعُ النّاسِ وألْبابُهم إلى وعْيِهِ.

٤٨٩.فيها بدلالة المناسبة لما قبلها أن الزكاة – التي تنجي من العذاب المذكور آنفا – تجب بحلول الأشهر القمرية جميعها (سنة كاملة).

٤٩٠.تفيد دقة التعبير القرآني حيث قال تعالى: (عدة الشهور) ولم يقل (عدة الأشهر) وذلك لأن الأشهر (جمع قلة)؛ والشهور (جمع كثرة)؛ فناسب أن يجعل ما كان أكثر من عشرة من (جموع الكثرة) وما كان أقل من عشرة من (جموع القلة).قال ابن مالك رحمه الله في الألفية:

أفعلة أفعل ثم فعلة... ثمت أفعال جموع قلة..

٤٩١.فيها أن الأصل في التقويم هو التقويم القمري بدليل أن الشهور عند الله يوم خلق السموات والأرض اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم. وهي أشهر قمرية، تشير الآية الى أن اتباع التقويم القمري جزء من الدين القيم مثله مثل التوحيد الذي هو دين الفطرة وعبادة الله وحده سواء بسواء.

٤٩٢.في الآية مؤكدات كثيرة تدل على الاهتمام بهذا التقويم بهذه الشهور (عند الله – في كتاب الله – يوم خلق السماوات والأرض– ذلك الدين القيم) النهي عن الظلم في بعضها – اعتبار تحريم قتال الكفار ببعضها – ختم الآية بالتنويه بشأن التقوى التي غالبا ما تستعمل في الأحكام الشرعية.

---

(١) قال الشيخ الألباني: (حسن) انظر حديث رقم: ٧٢٩٩ في صحيح الجامع

٤٩٣. تفيد: أن الله فضل للأزمان بعضها على بعض. خصص الله تعالى لعباده في كل لحظة ومكان وزمان عبادات بأجور مضاعفة لزيادة الحسنات وذلك لرفع الهمم فالليل ثلثه الاخير، وفي الجمعة ساعه يتحراها حتى المغيب،، وفي رمضان ليلة القدر في ذي الحجة العشر منه متضمنا عرفات، وفي الشهور اربعة رجب، وذي القعدة وذي الحجة والمحرم، يضاعف الله تعالى فيها الحسنات وكذلك السيئات، حتى يجتهد العبد في عمل الأحسن واجتناب الأسوأ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، قال ابن عاشور في التحرير والتنوير: "والمرادُ بِالشُّهُورِ: الشُّهُورُ القَمَرِيَّةُ بِقَرِينَةِ المِقامِ؛ لِأنَّها المَعْرُوفَةَ عِنْدَ العَرَبِ وعِنْدَ أغْلَبِ الأُمَمِ، وهي أقْدَمُ أشْهُرِ التَّوْقِيتِ في البَشَرِ وأضْبَطُها... " (١).

٤٩٤. فيها: الإيمان بحرمة الأشهر الأربعة. وعليه: فيجب العمل بمقتضاها،

٤٩٥. فيها: الإيمان باللوح المحفوظ، وأن الله كتب كل شيء.

٤٩٦. تفيد أن التعدي على حرمات الله تعالى والوقوع فيها ظلم للنفس؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾.

٤٩٧. تفيد: أن ظلم النفس يعظم في أزمنة دون غيرها؛ لقوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾؛ وإلا فالواجب عدم ظلم النفس في كل وقت.

٤٩٨. تفيد أن مرور الأيام والأشهر نعمة من نعم الله تعالى على عبده فعليه أن يستغلها في طاعة الله والبعد عن المعاصي والآثام؛ (وخصوصا الأشهر الحرم). لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ على الوجهين في تقدير الضمير: هل يعود إلى الأشهر كلها أم إلى الأشهر الأربعة؟.

٤٩٩. تفيد جواز حذف ما يعلم من السياق؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ تقديره: منها أربعة أشهر حرم.

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/١٨٠.

٥٠٠. تفيد جواز حذف ما لا يحتاج السياق إلى ذكره؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ وخلقه سبحانه وتعالى للسموات والأرض لم يكن يوما واحدا؛ بل كان الخلق في ستة أيام؛ كما ذكر ذلك في عدة آيات من القرآن الكريم.

٥٠١. فيها: وجوب قتال المشركين.

٥٠٢. فيها: العدل والقسط؛ حيث أمر بقتال المشركين جميعا، كما يقاتلون المسلمين جميعا.

٥٠٣. تفيد: أن من أعلى مراتب التقوى الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته.

٥٠٤. فيها: تذكير المجاهدين بتقوى الله – عز وجل، وتلميح بأن التقوى تجلب النصر.

٥٠٥. تفيد: أهمية تركيز المرء على الثلث في إنجازاته وأعماله الكثيرة؛ ووضع كامل اهتماماته عليها؛ (فالثلث والثلث كثير)؛ لقوله تعالى بعد أن ذكر أن أشهر السنة اثنا عشر شهرا؛ قال تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾، وهذه استراتيجية مهمة في إدارة الأوقات أشار إليها القرآن الكريم.

٥٠٦. تشير إلى: أن الجيوش إذا تكافئ عددها، فالعبرة بتقوى الله؛ ولذا عقب بعد الأمر بقتالهم: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾. والشرك أعظم وأول ما يتقى، فإن "الشرك" أول ما يتقى.

٥٠٧. فيها: معية الله الخاصة، قال ابن عاشور: وجُمْلَةُ ﴿واعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ مَعَ المُتَّقِينَ﴾ تَأْيِيدٌ وضَمانٌ بِالنَّصْرِ عِنْدَ قِتالِهِمُ المُشْرِكِينَ؛ لِأنَّ المَعِيَّةَ هُنا مَعِيَّةُ تَأْيِيدٍ عَلى العَمَلِ، ولَيْسَتْ مَعِيَّةَ عِلْمٍ، إذْ لا تَخْتَصُّ مَعِيَّةُ العِلْمِ بِالمُتَّقِينَ" [١].

٥٠٨. فيها: أن الإسلام وحده، هو الدين القيم لا اعوجاج فيه؛ بخلاف ما كان عليه المشركون من إعوجاج عام ومن إنسائهم الشهور الحرام خاصة لمآرب فاسدة؛ ولما اشتمل عليه واجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره.

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/١٨٨.

٥٠٩. فيها: بيان لشناعة الشرك وأنه أظلم الظلم؛ لأن المشرك يسوي بين هذا الخالق العظيم الحكيم الذي خلق السماوات والأرض وحكم وشرع، وبين معبودات وأصنام عاجزة لا تفعل شيئا من ذلك.

٥١٠. تفيد: أن التقوى تتأكد عند قتال المشركين؛ كما أن اتقاء الظلم يتأكد في الأشهر الحرم.

٥١١. تفيد أن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم جاءت لتقيم ما اعوج وانحرف فيما حدث من نسيئة وزيادة في أشهر السنة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾؛ وكانت هذه السورة من أواخر ما نزل من القرآن؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع: "إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ والأَرْضَ: السَّنةُ اثْنَا عَشَر شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُم: ثَلاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقعْدة، وَذو الْحِجَّةِ، والْمُحرَّمُ، وَرجُب مُضَر الَّذِي بَيْنَ جُمادَى وَشَعْبَانَ" (١).

٥١٢. تفيد، وبضميمة ما بعدها: أن المشركين، مفسدون في الأرض؛ ومن إفسادهم: تغيير الحقائق والتواريخ والأحداث.

٥١٣. تفيد خطورة المشركين وأنهم يد واحدة ضد الإسلام والمسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾.

٥١٤. في الآية وجه من وجوه الإيجاز والبلاغة العالية حيث ذكر اللفظ الواحد بمعنيين مختلفين بناء على إعرابين مختلفين وكلاهما صحيح، فإن قوله سبحانه ﴿كَآفَّةً﴾ في الموطنين يجوز أن يكون حالا من ضمير الواو في ﴿وَقَٰتِلُوا۟﴾ وفي ﴿يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ وهو الفاعل فيهما، ويجوز أن يكون حالا من المشركين في الموطن الأول ومن ضمير الكاف في ﴿يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ وهو المفعول. والمعنى على الأول: كفوا أذى المشركين عنكم بأن تجتمعوا لقتالهم كما يجتمعون لقتالكم. والمعنى على الثاني: قاتلوا المشركين حال اجتماعهم كما يقاتلونكم حال اجتماعكم ليقضوا عليكم

(١) أخرجه البخاري ٤/١٠٧، ومسلم ٣/١٣٠٥.

ويستأصلوا شأفتكم. وعليه فإنه ينشأ عن هذين الاحتمالين في كلا الموضعين أربعة أوجه في المعنى وكل الأوجه صحيحة في نفسها وإن ترجح أحدها على غيره بمرجحات أخرى.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة:٣٧].

٥١٥. تفيد: أن الكفر يزداد بالمعاصي؛ كما أن الإيمان يزيد بالطاعة.

٥١٦. فيها أن تشريع ما فيه استحلال لما حرم الله كفر.

٥١٧. فيها وجوب تعظيم الأشهر الحرم.

٥١٨. فيها عظم التحايل على الشرع، وأنه من عادة المشركين، كما أنه من عادة اليهود أيضا.

٥١٩. فيها أن أهل الباطل يحترمون الاتفاقيات إذا كانت في مصلحتهم ويتحايلون عليها إذا كانت ضد أهوائهم.

٥٢٠. فيها تحريم الديمقراطية لأنها أحيانا يكون فيها تصويت على تغيير الثوابت والحكم للغالب.

٥٢١. فيها دقة التذييل ومناسبته للسياق؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ فلما حُرموا توفيقه، ضلوا بهذا النسيء، وكذا كل من حرم توفيق الله؛ حتما سيضل..

٥٢٢. رد على الجبرية والقدرية.

٥٢٣. تفيد: أن مقولة: "ليس بعد الكفر ذنب"، ليست على إطلاقها؛ فإن الكافر تكتب عليه المعاصي كلها؛ إلا أن يراد ليس ذنبا أعظم من الكفر فهذا صحيح.

٥٢٤. فيها: كفر المشرع من دون الله.

٥٢٥. تفيد أن الكفر من أعظم موانع هداية التوفيق.

٥٢٦. تفيد أن من أسباب الخذلان أن يزين للإنسان سوء عمله فيراه حسنا.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم

بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [التوبة:٣٨].

٥٢٧.فيها: دقة المناسبة وروعة التناسق بين آيات القرآن: لما بين سبحانه معايب الكفار وفضائحهم، رغب هنا بمقاتلتهم، أو أنه؛ لما بين سبحانه أن الجهاد لا يختص بشهر دون آخر لا كما كانوا يفعلون من تحليله وتحريمه في وقت دون آخر، فمتى حصل النفير وقع الجهاد عاتبهم هنا على التخلف عن رسوله عليه الصلاة والسلام.

٥٢٨.فيها: بيان أن نعيم الآخرة لا يوازيه نعيم فهو أبدي غير منقطع.

٥٢٩.فيها: التذكير بثواب الجهاد في سبيل الله.

٥٣٠.فيها: حقارة الدنيا وأن نعيمها وملذاتها زائلة مهما كانت.

٥٣١.فيها تمثيل لحال الكارهين للجهاد الباحثين عن الأعذار كسلا بحال من يطلب منه النهوض والخروج فقابل ذلك بالالتصاق بالأرض ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

٥٣٢.تفيد أن التثاقل عن الجهاد في سبيل الله من علامات حب الدنيا وايثارها عن الاخرة.

٥٣٣.فيها استخدام أسلوب العتاب لمن يرجى رجوعه.

٥٣٤. فيها التلطف في الخطاب عند العتاب.

٥٣٥. تفيد أنه ينبغي على من أراد أن يعاتب أهل الفضل والصلاح والقرب والمحبة –إن بدرت منهم بادرة– أن يقدم بين يديه استهلالات بديعة ومقدمات مديحة وتساؤلات لطيفة تتوغل في قلوبهم، وتثبت مكانتهم عنده وقربهم منه وحظوتهم لديه؛ فذلك أقوى وأدعى في الاستجابة وأشد تثبيتا في القلوب؛ لا كما يفعله بعض أدعياء العلم تجاه أهل الفضل والصلاح – إن بدرت منهم بادرة أو سقطة – من مخاطبتهم واستعمالهم لألفاظ البذاذة والفظاظة والجفاء؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

٥٣٦.فيها وجوب المسارعة للاستجابة لأمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

٥٣٧.فيها: وجوب الاستجابة عند النداء للقتال في سبيل الله، وعدم التباطؤ. وفي الحديث المتفق عليه: «وإذا استنفرتم فانفروا" [١].

٥٣٨.فيها أن في العمل والسعي راحة للمرء، وليس في طلب الراحة راحة غالبًا.

٥٣٩.فيها التزهيد في متعلقات الدنيا، والترغيب في متعلقات الآخرة.

٥٤٠.فيها الرضا باعثٌ للعمل وعدمه، محفزٌ أو مثبطٌ.

٥٤١.تفيد: أن الإيمان يدفع صاحبه ويحثه على الجهاد في سبيل الله؛ وتصديقه، ما رواه مسلم مرفوعا: «من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من نفاق" [٢].

٥٤٢.تشير إلى: التحذير من فتنة الدنيا.

٥٤٣.فيها استخدام القياس، وعقد المقارنات بين الأشياء، والنظر في النتائج، واختيار الأفضل لدين المرء.

٥٤٤.تفيد أن الحق – وإن كان مرّا- يجب أن يؤخذ ويقبل من كل أحد كائنا من كان؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾..

٥٤٥.تفيد بلاغة القرآن الكريم وروعة دلالاته الصوتية واللفظية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾؛ ولم يقل: (تثاقلتم إلى الأرض)؛ وذلك للدلالة على القوة في أداء الفعل؛ وفي هذا دلالة على أن الزيادة في المبنى زيادة في المعنى.

٥٤٦.تفيد: أن من طرق الحث على الجهاد، التزهيد في الدنيا وأن متاعها قليل.

٥٤٧.تفيد أن التثاقل والتقاعس في أداء الفرائض والواجبات لا ينافي أصل الإيمان وصحته؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ﴾. وفي هذا دلالة على أن المعاصي والآثام لا تزيل إيمانا ولا توجب كفرا.

---

(١) أخرجه البخاري ١٤/٣، ومسلم ٩٨٦/٢.

(٢) أخرجه مسلم ١٥١٧/٣.

٥٤٨.فيها: أَنَّ تَرْكَ الخَيْرِ الكَثِيرِ لِأَجْلِ الشَّرِّ اليَسِيرِ شَرٌّ عَظِيمٌ، وعليه فتكون قاعدة " درء المفاسد مقدم على جلب المصالح" ليست مضطردة اضطرادا يمنع الاستثناء.

٥٤٩.تفيد، وبضميمة ما بعدها: أن من اثاقل عن نصرة الدين ونشره والدعوة إليه وهو قادر على ذلك هو عرضة أن يستبدله الله بخير منه، وعليه: فمن فتح له باب لخدمة الدين – مثلا، فليسارع ويرابط ولا يعرض فإنه على ثغر؛ خشية أن يستبدله الله.

٥٥٠.تفيد حقارة الدنيا وأنها متاع زائل فان، وما يرضى بها ويؤثرها على الآخرة الباقية إلا ضعيف العقل، تفيد التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة.

٥٥١.تفيد أن النفرة التي يحبها الله هي التي تكون في سبيله.

٥٥٢.تفيد أن الجهاد يحتاج إلى تعبئة ونفرة كبيرة قبله دعوية وإعلامية.

٥٥٣.تفيد أن القعود والتثاقل ليست من صفات المجاهدين.

٥٥٤.تفيد أن حب الدنيا والركون إليه من أعظم موانع الجهاد.

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة:٣٩].

٥٥٥.فيها: مناسبة دقيقة وعجيبة لما قبلها؛ لأن الكلام لما خرج مخرج العتاب – قبلها، أكد بعدها أن الأمر لا يقتصر على مجرد كونه عتابا فحسب؛ بل فيه عذاب مترتب على هذا التخلف والتثاقل.

٥٥٦.تفيد أن لله عز وجل سننا كونية لا تتبدل ولا تتغير؛ ولا تعرف المحاباة ولا المجاملة؛ وهي سنة التبديل والتغيير والهلاك والتمكين..

٥٥٧.تفيد أن عذاب التخلف عن النفير منه ما هو دنيوي عاجل ومنه ما هو أخروي مؤجل.

٥٥٨.تفيد: أن القعود عن القتال، كبيرة، لما تقدم مرارا وتكرارا في حد الكبيرة، ولذا استنبط العلماء من كون الفعل كبيرة من الكبائر ورود الوعيد على فعله أو تركه؛ ولذا عد التخلف عن الجهاد الواجب كبيرة موبقة على قاعدة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وغيره من المحققين.

٥٥٩.تفيد التحذير من خطورة الآثار المترتبة على التقاعس والتكاسل والتباطؤ وعدم النفرة إلى مصالح البلاد والعباد..

٥٦٠.فيها أن من ترك الجهاد عذبه الله عذابا أليما بالذل وغيره، ونزع الأمر منه فأعطاه لغيره، فإن هذا الدين لمن ذب عنه، أفاده شيخ الإسلام ابن تيمية...

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

٥٦١.تفيد مناسبة ظاهرة وتناسقا ساطعا بين هذه السورة والسورة التي قبلها وهي سورة الأنفال؛ حيث ذكر هناك مكر الكفار بالنبي صلى الله عليه وسلم وتشاورهم إما بحبسه أو قتله أو إخراجه؛ وذكر ههنا تنفيذهم لواحد من تلك الخيارات المطروحة هناك وهو إخراجهم للنبي صلى الله عليه وسلم.

٥٦٢.ففيها تلميح بأن أهل الأرض إذا لم ينصروه، أيده الله بأهل السماء، وعليه فدين الله منصور بجهادهم أو بغيره، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾.

٥٦٣.تفيد: أن للعباد أفعالا وقدرة على الاختيار والفعل؛ لقوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾. ففيها: رد على الجبرية.

٥٦٤.تفيد أنه ينبغي للمؤمن أن يكون دائم الاستحضار لقدوته وأسوته صاحب الرسالة محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾؛ وبيان وجه الاستنباط: أنه لم يتقدم ذكر النبي محمد صلى الله عليه وسلم في الآيات القريبة السابقة ومع ذلك جاء بالضمير

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ ولم يقل: (تنصروا رسولي أو نبيي)؛ مما يعني أن المؤمن وقارئ القرآن خصوصا؛ دائم الاستحضار لقدوته وأسوته محمد صلى الله عليه وسلم؛ بحيث لا يحتاج إلى أن يذكر له علمه حتى يتذكره؛ ومن هنا يمكن أن يلمح الفطن سبب مقولة بعض النحاة: إن الضمائر هي أعرف المعارف.

٥٦٥.فيها: تسلية الصاحب وتسليته وبشارته، وتذكيره بلطف الله ومعيته.

٥٦٦.فيها: معية الله الخاصة، معيار الصحبة، يظهر في تخفيف الأحزان واللآلام.

٥٦٧.فيها حث وترغيب في الجهاد من وجه غير مباشر فتفيد الآية أن الله تعالى ناصر دينه ونبيه صلى الله عليه وسلم فالنصر متحقق بكم أو بغيركم فخير لكم أن تكونوا من أنصاره. وإلا فقد نصره الله في مواطن أشد بلاء من هذه ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾، ولا شك أن الطمأنينة المبكرة على نتائج المعركة من أكبر الحوافز على خوض غمارها والمشاركة فيها.

٥٦٨.فيها: تصديق لورقة بن نوفل – رضي الله عنه – لما قال للنبي – صلى الله عليه وسلم –: "ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"... أو مخرجي هم قال نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا"[(١)].

٥٦٩.تفيد أن المؤمن المسافر تستجاب دعوته؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾؛ ويشهد له حديث النبي صلى الله عليه وسلم: ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن؛ وفيها: ودعوة المسافر" [(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري ١/٧، ومسلم ١/١٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد١/٤٣، وحسنه الألباني.

٥٧٠.تفيد جواز نسبة الفعل إلى من كان سببا فيه؛ وإن لم يكن فاعله الحقيقي؛ لقوله تعالى: ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: أنهم كانوا سببا في خروجه؛ وإلا فهم كانوا يريدون قتله ليلة الهجرة؛ وخرج عليه الصلاة والسلام هربا منهم.

٥٧١.فيها التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب مع توكله صلى الله عليه وسلم فقد هاجر ولجأ إلى الغار.

٥٧٢.تفيد: أن النبي ﷺ – بشر، ويحتاج إلى معية ربه – جل ذكره.

٥٧٣.فيها: أن الله عند ظن عبده به، وأنه يصدق عبده إذا تحدث عنه؛ وتأمل لما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾على وجه السرعة بدليل الفاء، وهذا يدل على استحباب الفأل الحسن والتحدث بالخير. "أخذنا فألك من فيك".

٥٧٤.فيها بيان عظيم توكل النبي صلى الله عليه وسلم واعتماده على الله تعالى وثقته بنصره ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾، ثقة مطلقة بالله فالجملة مفعمة بذلك من خلال الأسلوب التوكيديّ الذي يفتح أبواب الثقة بالله سبحانه وتعالى على مصاريعها.

٥٧٥.فيها: تأييد الله لأنبيائه وأوليائه.

٥٧٦.تفيد أعظم رد على الشيعة الروافض عليهم من الله ما يستحقون.

٥٧٧.ومن دلائل هذه الآية على فضيلة أبي بكر التي لم يشركه فيها أحد ما قاله الشعبي: عاتب الله عز وجل أهل الأرض جميعاً في هذه الآية غير أبي بكر، يعني في قوله تعالى ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾، في قوله سبحانه ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ فهي إشارة قوية إلى أن أبا بكر رضي الله عنه وأنه أولى الناس بالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه واله وسلم إذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم أول الاثنين وكان أبو بكر ثانيهما.

٥٧٨.فيها الرد على الرافضة في طعنهم وتكفيرهم لأبي بكر من وجوه كثيره ذكرها الرازي في تفسيره.

٥٧٩.فيها استدلال المالكية وغيرهم على تكفير من أنكر صحبة أبي بكر رضي الله عنه، قال الحسن بن الفضل: من قال إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر لإنكاره نص القرآن.

٥٨٠.أشارت الآية الكريمة إلى الصديق خمس مرات ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ أحدهما أبوبكر، ﴿إِذۡ هُمَا﴾ أحدهما أبوبكر، ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾أحدهما أبوبكر، ﴿لَا تَحۡزَنۡ﴾ يا أبابكر، ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾أحدهما أبوبكر رضي الله عنه.

٥٨١.فيها إفادة أن كلمة الله هي العليا إلى الأبد حيث أخبر الله سبحانه وتعالى عن كلمة الذين كفروا بالجملة الفعلية التي تفيد الحدوث والتجدد، فقد تعلو كلمة الذين كفروا وقتا لحكمة أرادها الله، ولكن كلمة الله هي العليا دائما وعلى استمرار وإن لم يكن ذلك ظاهرا في بعض الوقت، لهذا أخبر عنها سبحانه وتعالى بالجملة الإسمية التي تفيد الدوام والاستمرار فهذا من أسرار وإعجاز كلام الله تعالى.

٥٨٢.فيها أن مدد السماء ترى آثارها ولا ترى أعيانها ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾.

٥٨٣.كل من وافق الرسول ﷺ في أمر خالف فيه غيره، له نصيب من قوله: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾.

٥٨٤.تفيد أهمية التركيز على الأقوال المفعمة بالتفاؤل والثقة بالله تعالى؛ والمثيرة في نفس المؤمن القوة والعزيمة والشجاعة والحماسة؛ لقوله: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾

٥٨٥.فيها التأكيد على أن النصر ليس بكثرة العدد والعتاد ولكن بمعية الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ فعلى المجاهدين والدعاة والمصلحين الحرص على تحقيق وسائل توفير معية الله تعالى الخاصة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ ليتحقق لهم مرادهم.

٥٨٦.تفيد أن هجرة النبي صلى الله عليه وسلم كانت فاتحة الانتصارات على أهل الكفر والطغيان؛ وبداية مرحلة جديدة توالت فيها الفتوحات والانتصارات لأهل الإسلام؛ حيث تم لهم عقبها تأسيس دولة الإسلام وتكوين جيش قوي يهابه جميع الأعداء؛ وحق لحادثة الهجرة النبوية المباركة أن تكون بداية للتأريخ في دولة الإسلام؛ لما لها من فضل عظيم وبركة على الأمة الإسلامية.

٥٨٧.سلسلة ذهبية من التأييد:

-فأنزل الله سكينته عليه

-وأيّده بجنود لم تروها

وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا.

٥٨٨.تفيد: أن كلمة الله هي العليا أزلا وأبدا؛ لقوله ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾، ولم يقل: "وجعل" كما قال في كلمة المشركين..

٥٨٩.تفيد أهمية القدوات وأنهم في المقدمة في الجهاد والشدة بل يصبرون ويحثون من خلفهم ويبثون فيهم الثقة والتفاؤل.

٥٩٠.تفيد أن من عناصر النصر ما يلي: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾هجرة وترك مكان الباطل لله، ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ الرفقة والاتباع، ﴿فِي ٱلْغَارِ﴾اتخاذ مكان وملاذ آمن ومقر، ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ القيادة والإمارة، ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ الدعم المعنوي والتوجيه﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ استصحاب التوكل على الله..

٥٩١.تفيد أن أهل الفضل والمقام قد يحصل لهم من المشاعر النفسية السيئة كغيرهم من البشر؛ ما يجعله محتاجا إلى النصح والوعظ والتذكير من غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾؛ ومن هنا تظهر فائدة الصحبة الصالحة التي تذكرك بالله تعالى وتزيل عنك الضغوط النفسية والمشاعر السلبية التي تمر بها في الأوقات العصيبة؛ واللحظات الصعبة الأليمة..

٥٩٢.فيها أن أعرف الناس بالله أكثرهم ثباتا عند الفتن والابتلاءات.

٥٩٣.تفيد ذم الحزن؛ وهو من المشاعر السلبية في النفس البشرية؛ وقد جاء النهي عنه في آيات كثيرة من القرآن الكريم والسنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم..

٥٩٤.تفيد أن النصر يكون بعد امتحان وتمحيص حتى تعرف قيمته ويستحق أن يسمى نصرا.

٥٩٥.تفيد مكانة وقدر النبي عليه السلام حيث تولى الله نصرته وكفايته.

٥٩٦.تفيد أن المكان يشرف ويعلو شأنه ويخلد ذكره ببركة من حل فيه.

٥٩٧.تفيد أهمية بث الثقة والطمأنينة في أوقات القلق والخوف.

٥٩٨.تفيد أهمية انتقاء عبارات الوعظ والنصح المختصرة وخصوصا في الأوقات العصيبة واللحظات التي ينشغل الوجدان وتختلط المشاعر؛ ويغيب التركيز؛ لقوله: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾.

٥٩٩.تفيد مع ما قبلها وما بعدها خطورة مشاعر الحزن على أهل الجهاد؛ حيث يورث لهم الوهن ويضعف قوتهم وعزيمتهم؛ ولهذا قال تعالى محفزا المجاهدين في سبيله ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد:٣٥].

٦٠٠.تفيد بيان عظيم عناية الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم؛ وأنه كان في أمان وسكينة من كل ما يثير الاضطراب والقلق والتوتر في النفوس البشرية حتى في الأوقات العصيبة؛ وصدق الشاعر حين قال:

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان.

٦٠١.تفيد أهمية أن يذكر الناصح المشير للطرف الآخر ما يعزز أقواله ومواقفه؛ ويقوي حجته؛ لقوله: ﴿لَا تَحۡزَنۡۖ﴾.ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾.؛ أي: لا تحزن لأن الله معنا.

قال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة:٤١].

٦٠٢. تفيد على ما ذكره بعض أهل العلم: من لزوم الخروج للجهاد في سبيل الله على كل حال، إلا أنه قد جاءت آيات أخرى تدل على خلاف ذلك، كقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ الآية [التوبة: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾.

٦٠٣. تفيد أن الجهاد في سبيل الله بمعناه الخاص (قتال المشركين) يجب أن تسبقها صحوة ونفرة في جميع المجالات الدينية والدنيوية؛ وعلى جميع المستويات والطبقات؛ لقوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

٦٠٤. تفيد: أن القعود عن القتال، شر للعباد في العاجل والآجل؛ لمفهوم قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٦٠٥. فيها: تأكيد على أنه غني وقادر على نصرة نبيه وإعلاء كلمته، دون الحاجة إليكم؛ بقرينة: ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٦٠٦. فيها: أهمية المال في الجهاد في سبيل الله، فإن فضل الجهاد بالمال عظيم؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والجهاد بالمال مقدم على الجهاد بالنفس... وذلك لأن الناس يقاتلون دون أموالهم فإن المجاهد بالمال قد أخرج ماله حقيقة لله والمجاهد بنفسه لله يرجو النجاة لا يوافق أنه يقتل في الجهاد ولهذا أكثر القادرين على القتال يهون على أحدهم أن يقاتل ولا يهون عليه إخراج ماله ومعلوم أنهم كلهم جاهدوا بأموالهم وأنفسهم لكن منهم من كان جهاده بالمال أعظم ومنهم من كان جهاده بالنفس أعظم" (١).

٦٠٧. فيها الأمر بالإخلاص في الجهاد؛ لقوله: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢].

---

(١) منهاج السنة ٨/٢٣٠.

٦٠٨. فيها محبة النفس للغنيمة الحاضرة سهلة الجني، التي لا تعب فيها ولا كد﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾.

٦٠٩.فيها أن التخلف والتثاقل وتقديم الأعذار والحجج الواهية والأيمان الكاذبة من صفات المنافقين المذمومة فينبغي الحذر من الاتصاف بها.

٦١٠.فيها أن الدنيا مليئة بالمغريات، والملهيات والشهوات، وعلى اللبيب الحذر منها.

٦١١.فيها وجوب تقديم المصالح الدينية على المصالح الشخصية.

٦١٢.تفيد أهمية تحليل الشخصيات ودراسة التصرفات والسلوكيات للأفراد والجماعات لمعرفة الصادق منهم والكاذب.

٦١٣.فيها أن هلاك النفس بيد الإنسان نفسه، وكذلك نجاته.

٦١٤.فيها تشنيع لصفة الكذب، للابتعاد عنها.

٦١٥.تفيد أن على من حلف له بالله أن يصدّق وأن يرضى ويقتنع بيمين الحالف؛ إن لم يجد دليلا واضحا وصريحا على الكذب؛ والله يتولى معاقبة الكاذب.

٦١٦. تفيد أن الأيمان الكاذبة مهلكة لأصحابها؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ...يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾.

٦١٧.فيها أن نظرة المرء قد تكون قاصرة وغير صائبة، ويزين الشيطان إيحاء النفس، فيرى الإنسان نفسه غير مستطيع، والواقع خلاف ذلك.

٦١٨.فيها أن الاستطاعة قرار، لمن امتلك الأدوات.

٦١٩.فيها أن من أراد الإنجاز والإقدام استصغر عظائم الأمور، ومن أراد التخلف والكسل فليستعظم الصغائر ﴿بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾.

٦٢٠.تفيد أن خير الطرق وأفضل السبل المحببة إلى النفس هي الوسط والوسطية؛ وجاء في الأثر: (وخير الأمور أوسطها) لقوله تعالى: ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي متوسط المسافة؛ وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾؛ ولله در الشاعر حيث يقول:

عليـك بأوسـاط الأمـور فإنّهـا طريـق إلى نهـج الصّـواب قـويم
ولا تـك فيهـا مفرطـا أو مفرّطـا كـلا طـرفي قصـد الأمـور ذميم

٦٢١.تفيد صدق القرآن الكريم وإعجازه الغيبي؛ حيث أخبر بأنهم سيحلفون بالله قبل الرجوع من غزوة تبوك؛ وبالفعل حصل ما أخبر به القرآن الكريم؛ فقد حلفوا بالله تعالى بعد رجوع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من غزوة تبوك.

٦٢٢.تفيد: أن الإيمان الكاذبة، من دأب المنافقين.

٦٢٣.فيها أن العبودية الحقة لله تعالى تقتضي الطاعة والامتثال لأمر الله ورسوله في العسر واليسر والمنشط والمكره.

٦٢٤.تفيد أن الركون إلى الدنيا من المثبطات عن الجهاد في سبيل الله.

٦٢٥.تفيد أن من سمات المنافقين الكذب؛ ولذا يغطون هذا الكذب الذي يعلمه الناس منهم بالأيمان الفاجرة فهم يكثرون الحلف على الكذب. قال تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ يعني مع أيمانهم.

٦٢٦.فيها أن خروجهم – لو حصل –فليس لأجل الجهاد ونصرة الدين، وإنما هو مجاملة ومن أجل استنفار النبي صلى الله عليه وسلم يدل على ذلك تقييد الخروج بالمعية ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾؛ لأن همتهم رضا الناس لا رضا الله؛ قال ابن عاشور في التحرير والتنوير: وتَقْيِيدُهُ بِالمعِيَّةِ إشْعارٌ بِأنَّ أمْرَ الغَزْوِ لا يَهُمُّهُمُ ابْتِداءً، وأنَّهم إنَّما يَخْرُجونَ لَوْ خَرَجُوا إجابَةً لِاسْتِنْفارِ النَّبِيءِ ﷺ: خُرُوجَ النّاصِرِ لِغَيْرِهِ، تَقُولُ العَرَبُ: خَرَجَ بَنُو فُلانٍ وخَرَجَ مَعَهم بَنُو فُلانٍ، إذا كانُوا قاصِدِينَ نَصْرَهم" (١).

٦٢٧.تفيد: أن النبي – صلى الله عليه وسلم – لا يعلم الغيب.

(١) التحرير والتنوير ٢٠٩/١٠.

٦٢٨.تفيد أن المخلص لله تعالى في عمله تقرب له وتختصر عليه المسافات الطويلة (الحسية والمعنوية)؛ ويصل إلى مراده أسرع من غيره ممن لم يخلص لله تعالى حيث تتباعد على هذا الشقة والمسافات (الحسية والمعنوية)؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾؛ أي: بعدت عليهم لا على غيرهم الشقة؛ وذلك لعدم إخلاصهم لله تعالى في نية الخروج.

٦٢٩.تفيد أن المخلص لله تعالى ييسر ويسهل له القيام بالأعمال التي لا يقدر عليها غيره من الأمور الحسية والمعنوية؛ والتي قد يراها غيره من أصعب وأثقل الأشياء وأبعدها عن التنفيذ.

٦٣٠.هذه الآية تدعو إلى التأمل وإعمال الذهن كيف أن الله عز وجل قصد إيراد نص كلامهم؛ وليس إخبارا عن حالهم فقط؛ فلم يقل سبحانه وتعالى: (وسيحلفون بالله لو استطاعوا لخرجوا معكم)؛ بل قال موردا نص عبارتهم:﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾؛ وذلك من أجل بيان خبث مقالهم؛ وقلة ذوقهم وأدبهم؛ وضعف إدراكهم بمقام النبي صلى الله عليه وسلم.

٦٣١.تفيد كمال علمه جعل وعلا بسرائر الخلق لا تخفى عليه خافية.

قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة:٤٣].

٦٣٢.فيها: تقديم الدعاء بين يدي العتاب، وفي هذا ترقية رفيعة لأخلاق أهل الإيمان في ضرورة مراعاة المشاعر في التخاطبات والتجاذبات، في تقديم الله تعالى للعفو على موجِبه مراعاة ربنا سبحانه لخاطر النبي صلى الله عليه وسلم وقلبه؛ إذ لم يفجأه... بل هيأه أولًا..

٦٣٣.فيها: أن النبي – صلى الله عليه وسلم – لو فاته الأكمل، أدركه الله وبين له.

٦٣٤. فيها: حاجة النبي لعفو ربه. وغيره أولى وأحق.

٦٣٥.يفيد تصدير الخطاب الإلهي بقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ تعظيما لقدر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وبيانا لمكانته ومقامه عند ربه.

٦٣٦. تفيد ضعف ما ذكره بعض أهل العلم من دلالة الآية على جواز صدور الذنب من النبي صلى الله عليه وسلم وذلك أن ذكر العفو وتوجه الاستفهام الانكاري عليه صلى الله عليه وسلم يستدعيان ذنبا. والمحققون من أهل العلم على ضعف هذا الاستدلال؛ وأجابوا بأن الآية خارجة مخرج العتاب على ترك الأولى والأكمل في حقه عليه الصلاة والسلام؛ وأنه لا يسلم لهؤلاء أن ذكر العفو يستدعي سابقة الذنب؛ إذ إن صدر الآية دل على حصول العفو؛ وبعد حصوله، يستحيل أن يتوجه الانكار عليه صلى الله عليه وسلم؛ وعلى القول بأن للنبي صلى الله عليه وسلم أن يجتهد؛ دل هذا على أنه لم يصدر منه صلى الله عليه وسلم ذنب؛ وأن المجتهد له أجر على اجتهاده.

٦٣٧. تفيد أن الجزاء من جنس العمل؛ وأن الله عز وجل يعامل عبده بما يعامل به العباد؛ ووجه ذلك: أن الرسول صلى الله عليه وسلم عامل هؤلاء المتخلفين بالعفو؛ فجاء العفو من الله تعالى عنه متصدرا الآية الكريمة؛ لقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ أي: كما عفوت عنهم، ويستحسن أن استحضر في هذا السياق حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (فإن الإمام لأن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة"[١].

٦٣٨. تفيد أن للتأني والتمهل في اتخاذ القرارات والأحكام فائدة عظيمة لصاحب القرار؛ حتى يكون قراره وحكمه موافقا للحق والعدل؛ حيث قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ﴾ولم يقل: (حتى يتبين الذين....).

٦٣٩. تفيد جواز حذف ما يعلم من السياق؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ أي: في التخلف والقعود.

٦٤٠. يفيد التعبير بالفعل الماضي في الصدق ﴿يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾؛ ولم يقل: (يتبين لك الصادقون) وباسم الفاعل في الكذب ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾؛ دلالة على أن الأصل في هؤلاء

(١)ضعيف – المشكاة ٣٥٧٠، الارواء ٢٣٥٥ ضعيف الجامع الصغير ٢٥٩

المنافقين الراغبين في التخلف والقعود هو الكذب؛ وذلك لثباتهم في الكذب واستمرارهم عليه؛ وأن الصدق لم يتمكن فيهم بل هو أمر حادث صدر منهم؛ وقد يصدق الكذوب في بعض الأحيان.

٦٤١.تفيد فضيلة الصدق والصادقين وأنهم يؤجرون على صدقهم وأنه لا مؤاخذة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾؛ وبيانه: أنه نسب فعل التبين إلى الذين صدقوا؛ ولم يقل مثلا: (حتى تتبين الذين صدقوا)؛ كما قال في الكاذبين ﴿وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾..

قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٤٤].

٦٤٢.في مجيء هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ إشارة إلى المؤمنين الصادقين ليس من طبيعتهم ولا من شأنهم أن يستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من قام مقامه من بعده في القعود أو في التخلف عن الجهاد في سبيل الله.

٦٤٣.بيان أثر الإيمان بالله واليوم الآخر والتقوى في الاستعداد للجهاد بالمال والنفس.

٦٤٤.في هذه الآية إشارة إلى أنه يجب على المؤمن أن يبادر إلى عمل الصالحات وفضائل الطاعات ومحاسن الأخلاق دون استئذان أو تباطؤ.

٦٤٥.فيها: فضل الإيمان، وأنه يحجم النفس عن الوقوع في المحرمات.

٦٤٦.تفيد: أن التقوى، تكون بترك المحرمات كما تكون بفعل الواجب.

٦٤٧.فيها: دقة التذييل؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾؛ للإشعار أن القضية ليست في ذات الاستئذان فحسب، بل وفيما تخفيه صدورهم الخبيثة ومن كراهيتهم للجهاد وانعدام العذر؛ وإلا فلا جناح على المعذور الصادق في استئذانه في التخلف؛ كما فعل عثمان – رضي الله عنه – في استأذنه رسول الله من أجل تمريض ابنته رقية. وقد أذن له رسول الله – صلى الله عليه وسلم.

٦٤٨.تفيد: أن الاستئذان في التخلف عن الجهاد بالمال والنفس – من غير عذر، من سمات المنافقين. ولم لا وهم يحاربون أهل الإسلام أصلا!.

٦٤٩.تفيد: أن الإيمان بالله واليوم الآخر، يحث على العمل...

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة:٤٥].

٦٥٠.فيها: المناسبة: لما بين سبحانه أن الاستئذان لا يصدر إلا عند عدم الإيمان به وباليوم الآخر، بين هنا أن عدم الإيمان ناتج من الشك به.

٦٥١.فيها: بيان لمثالب الكفار والمنافقين في البحث عن الأعذار الواهية عن الجهاد.

٦٥٢.فيها: من ليس لديه إيمان تام ويقين صادق فرغبته في الخير قليلة.

٦٥٣.في الآية شهادة على المنافقين بأنهم ليسوا بمؤمنين، مع أنهم يقرون بالإيمان ظاهرا، وهو رد على الكرامية الذين يقولون: الإيمان هو مجرد الإقرار.

٦٥٤.فيها: التعدية بـ (في) التي تفيد الظرفية للدلالة على انغماسهم بالشك والريب..

٦٥٥. إضافة الشك والريب للقلب لأن القلب محل المعرفة والإيمان.

٦٥٦. فيها الإشارة إلى سمة من أبرز سمات المنافقين وهي الشك وعدم اليقين وما يترتب عليه من التردد وعدم الثبات.

٦٥٧.الحامل على الجهاد والتضحية بالنفس والمال هو الإيمان بالله واليوم الآخر، بينما الحامل على التقاعس عن الجهاد والاعتذار عن الخروج في سبيل الله هو ضعف الإيمان بالله واليوم الآخر.

٦٥٨.تفيد: أن المنافق، دائم التردد؛ بدليل المضارع في قوله: ﴿يَتَرَدَّدُونَ ﴾.

٦٥٩.فيها عظمة مكانة الإيمان بالله واليوم الآخر وتلازمهما في كثير من آيات القرآن الكريم قال الشوكاني في تفسيره:" وذَكَرَ الإيمانَ بِاللَّهِ أوَّلًا، ثُمَّ بِاليَوْمِ الآخِرِ ثانِيًا في المَوْضِعَيْنِ، لِأنَّهُما الباعِثانِ عَلى الجِهادِ في سَبِيلِ اللَّهِ" (١).

قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة:٤٦].

٦٦٠.الأخذ بالأسباب دليل على صدق العزيمة والإرادة.

٦٦١.ينبغي الحذر من التثاقل عن فعل الخير – الجهاد فما دونه – فإنه من دأب المنافقين.

٦٦٢.إذا كره الله من العبد الطاعة، أبعد عنه سبل الوصول إليها.

٦٦٣.دلت الآية على أن من كان صادقا مع الله أعانه الله.

٦٦٤. فيها أن الله هو ميسر الأسباب، ومن كره الله أمره عسر عليه أسبابه، من أراد شيئا فليطلبه من الله؛ فإن أجاب الله يسر أسبابه.

٦٦٥.من تخلف عن نصرة دين الله فالله ثبطه وأقعده؛ فننظر له بنظرين: عين الشرع: فنكره تخلفه. عين القدر: فنحمد الله الذي كفانا شره.

ولله در ابن القيم حيث قال في الكافية الشافية:

فانظر بعين الحكم وارحمهم بها ... إذ لا ترد مشيئة الديان

وانظر بعين الأمر واحملهم على ... أحكامه فهما إذا نظران

شاء ربك كنت أيضا مثلهم ... فالقلب بين أصابع الرحمن

٦٦٦.فيها عدم تعارض الشرع مع القدر؛ فقد أمرهم بالخروج شرعا وكرهه منهم قدرا.

٦٦٧.فيها إثبات العلاقة بين عمل القلب ﴿أَرَادُواْ﴾ وعمل الجوارح ﴿لَأَعَدُّواْ﴾ فما وقر في القلب ظهر على الجوارح.

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٣٦٦/٢.

٦٦٨.فيها: أن الرغبة لم تكن لديهم أصلا في الجهاد.

٦٦٩.فيها: إثبات "الكراهية" لله – على ما يليق به.

٦٧٠.تفيد مع ما قبلها وما بعدها أن منافقي زمان النبي صلى الله عليه وسلم أعلم من الجبرية وأهل الأهواء، حيث لم يستدلوا بقدر الله الكوني المذكور في هذه الآية على ارتكابهم لمعصية التخلف عن الغزوة ونصرة الدين، ولم يقولوا للنبي صلى الله عليه وسلم: (كيف تأمرنا بالخروج معك وقد كتب الله علينا أن نكون مع القاعدين؟)..

٦٧١.تفيد: أن الله قد أحب خروج أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الذين خرجوا معه إلى تبوك، وأما ما فاتهم ذلك من باقي الصحابة – للعذر الشرعي، فهم محبوبون إلى الله أيضا؛ لقول النبي: شركوكم الأجر، حبسهم العذر. أو كما قال. وللنصوص الأخرى أيضا، الواردة في بيان حب الله للصحابة – رضي الله عنهم أجمعين.

٦٧٢.تفيد مع ما قبلها أن أعظم عدة يتجهز بها العبد لأموره كلها هو الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر وتزكية القلب وتنقيته من جميع الآفات والأمراض الفتاكة والمهلكة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾..

٦٧٣.فيها: تحقير وتهوين شديد لهؤلاء المنافقين؛ لقوله: ﴿وَقِيلَ﴾، ولم يقل: وقلنا. أو: وقلت؛ مع أن القائل هو الله.

٦٧٤.فيها علم الله سبحانه بما في الصدور.

٦٧٥.فيها بيان إن خروجهم تثبيط للمؤمنين.

٦٧٦. فيها أن العباد يجهلون نفعهم وضرهم فقد كان المسلمين يرغبون في زيادة المجاهدين وهم لا يعلمون أن قعود هؤلاء فيه خير.

٦٧٧.فيها خوف المؤمن إذا لم يوفق لعمل الصالحات أن يكون ممن كره الله انبعاثهم.

٦٧٨. تفيد أن الجزاء من جنس العمل؛ فكما كره هؤلاء المنافقون لقاء الله والخروج إلى الجهاد في سبيله، كره الله لقاءهم وانبعاثهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾، أي: ولكن كرهوا الخروج في سبيل الله فكره الله انبعاثهم.

٦٧٩. تفيد أن على العبد المؤمن أن يراجع نفسه ويبتهل إلى الله تعالى ويكثر من اللجوء إليه؛ إذا رأى من نفسه تثبطا وتكاسلا عن فعل الخير والعمل الصالح؛ فلا يدري لعل الله عز وجل كره انبعاثه فثبطه عن فعل الخير والصلاح.

٦٨٠. تفيد أن الأحداث الشديدة والمواقف الصعبة تكشف لك عن معادن البشر؛ وتسفر لك عن حقائق النفوس؛ فلا يغتر البعض بأعذار بعضهم؛ فهي أوهى من بيت العنكبوت.

٦٨١. تفيد أن نصرة الدين شرف يهبه الله للصادقين من عباده، تفيد أن الهمة والنشاط لنصرة الدين نعمة تستوجب الشكر.

قال تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة:٤٧].

٦٨٢. تفيد جواز استخدام (لو) التي تفيد الرضا التام بقضاء الله وقدره؛ وهي بخلاف (لو) التي تفيد الاعتراض والتحسر على قضاء الله وقدره؛ وهي التي تفتح عمل الشيطان.

٦٨٣. لم يقل (خرجوا معكم) وإنما قال: ﴿فِيكُم﴾ تنبيها على أثر زعزعتهم وتغلغلهم.

٦٨٤. تفيد عناية الله تعالى بعباده المؤمنين؛ حيث صرف ويصرف عنهم دوما وأبدا شرورا ومفاسد لا علم لهم بها؛ ويحفظهم من كل سوء ومكروه ظاهرا وباطنا.

٦٨٥. تفيد أن من أعظم المخاطر التي يجب على المجاهدين الاحتراز منها في حروبهم ومعاركهم الجهادية (الخبال) وهو الفساد الذي يوجب اختلاف الرأي، ويؤدي بهم إلى الانهزام والانكسار في المعارك والمواجهات العسكرية.

٦٨٦. فيها أن للفتنة دعاة يحرصون على بثها بين الناس، وينبغي الحذر منهم.

٦٨٧.فيها بيان مدى تأثير السمع على التصرفات والأفعال.

٦٨٨.فيها التحذير من الشخصيات التابعة الإمعة التي تلقي سمعها لكل ما يدور حولها.

٦٨٩.فيها مشابهة لما يحصل في الواقع من السماع لكل من هب ودب في وسائل التواصل الاجتماعي وغيرها ممن لا يزيدون المستمع إلا خبالا.

٦٩٠.فيها: ظلم المنافقين وبغيهم، وأن هذه الأعمال ظلم بيّن؛ لقوله:﴿عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾

٦٩١.فيها: تهديد للمنافقين؛ لأنه لم يرد مجرد علمه بهم فحسب، بل وينضم إليه ما يترتب من الجزاء والعقاب؛ وإلا فهو عليم بكل شيء.

قال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾[التوبة:٤٨].

٦٩٢.فيها: المناسبة: لما بين سبحانه لنبيه وصحبه أنه ثبط المنافقين، بين هنا مثالبهم وأن الشر فيهم متأصل قبل نزول القرآن، قوله﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ﴾

٦٩٣.تفيد: ما زاد المنافقون بقلب الحقائق وتكذيبها إلا عزاً للإسلام وأهله.

٦٩٤.على المرء حفظ بعض الإحداث والمواقف في سجلات ذاكرته ليس حقدا على الاشخاص ولكن للحذر والحيطة والاستفادة من السوابق والمواقف في مستقبل أيامه في المعاملات.

٦٩٥. فيها أن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.

٦٩٦.فيها: أن المنافقين، يكرهون ظهور الدين.

٦٩٧.فيها: من ديدن المنافقين الانشغال بالفتن والصد عن الدين.

٦٩٨.فيها: محاولات يائسة للصد والفتن وتقليب الأمور حتى جاء نصر الله.

٦٩٩.فيها: وصف أمر الله بالظهور، لأنه كان كالمستور، والظهور بالغلبة وعلو الدين.

٧٠٠.فيها أن غارسي ألغام الفتن ومفجريها هم المنافقون في كل زمان ومكان.

٧٠١.فيها أن تلبيس الحقائق هو ديدن أهل النفاق، لكن إحقاق الحق سيكون بأمر الحق لا محالة.

٧٠٢.فيها تطمين للنبي صلى الله عليه وسلم ولأصحابه أنه لا أثر لتخلفهم عنك على نصرة دين الله وإظهاره على الدين كله. بل إن تخلفهم وقعودهم أنقى للصف وأقوى لوحده وأدعى للنصر..

٧٠٣.تفيد: أن الحق، قد يتأخر لحكمة. وأن العاقبة للتقوى.

٧٠٤.تفيد خطورة المنافقين على القيادات والشخصيات المهمة في المجتمع والتي تسعى للإصلاح ونشر القيم النبيلة؛ ومحاربة الرذيلة؛ ومكافحة الفساد والمفسدين، وذلك من خلال فتحهم لعدد من الجبهات الجديدة والقضايا الساخنة التي تسبب لتلك القيادات تشويشا في التخطيط واضطرابا في الأداء؛ وضغطا في العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾.

٧٠٥.تفيد: أن تقليب الأمور وتزييف الحقائق فن يتقنه مثيروا الفتن ومروجوها من المنافقين وأذنابهم من السماعين لهم؛ وما الإعلام المضلل بأفرعه وقنواته وتشكلياته في زماننا هذا إلا نموذج واقعي لما كان عليه هؤلاء من الخطورة في زمان النبي صلى الله عليه وسلم.

٧٠٦.تشير إلى: عناية الله بالصحابة – رضي الله عنهم أجمعين؛ لأن المحذر ناصح محب، تسلية للصحابة – رضي الله عنهم. وعادة المحب أن يسلي حبيبه، ويهون عليه أنه لا يفوت عليه إلا لمحبته ومصلحته.

٧٠٧.فيها: أن أهل النفاق يسعون بكل جهدهم لتدبير الحيل والمكايد ضد المسلمين والصد عن سبيل الله.

٧٠٨.فيها: فضح المنافقين وكشف أستارهم وبيان معايبهم.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة:٤٩].

٧٠٩.فيها: الوعيد الشديد لهؤلاء القوم ومن كان على شاكلتهم بنار تلظى.

٧١٠.فيها: أن من عصى الله لغرض ما عوقب بخلاف مقصوده، ولذا فإن الله عاملهم بنقيض مقصودهم.

٧١١.تشير إلى: خطر الفتنة – المشار إليها –؛ لما عبر عنها بالسقوط، قال الألوسي– رحمه الله –: وفي التَّعْبِيرِ عَنِ الِافْتِتانِ بِالسُّقُوطِ في الفِتْنَةِ تَنْزِيلٌ لَها مَنزِلَةَ المَهْواةِ المُهْلِكَةِ المُفْصِحَةِ عَنْ تَرَدِّيهِمْ في دَرَكاتِ الرَّدى أسْفَلَ سافِلِينَ" [(١)].

٧١٢.ادعاؤهم تجنب الوقوع في الفتنة هي عين الفتنة، وفي هذا إعلان للكفر الذي يحيط بهم كاحاطة السوار بالمعصم، كما أن الفتنة أحاطت بهم وأحاطوا بها..

٧١٣.تفيد: أن من الفتنة وصف الحق بالفتنة.

٧١٤.تفيد أن الفتنة رداء يلبسه المنافق للتخلص من التكاليف الشرعية.

٧١٥.فيها: تبجح المنافقين وسوء أدبهم مع رسول الله؛ حيث قال قائلهم: ﴿وَلَا تَفۡتِنِّيٓۖ﴾؛ وحاشاه – صلى الله عليه وسلم. فقوله: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾، رد عليهم بنحو مقالتهم. وقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ زيادة – وأي زيادة؟.

٧١٦.تفيد مع ما قبلها أن المتفنن والمتمرس في إثارة الفتن وتقليب الأمور وتزييف الحقائق لا يعدم عذرا، ولا يحجزه حياء، (وعذره أقبح من ذنبه)..

٧١٧.تفيد أدب القرآن الكريم، وقمة حياءه، مع بلاغة وروعة وفصاحة وحسن بيان، وذلك من خلال حفظه الألسنة وإبعادها عن ذكر التفاصيل المثيرة للغرائز والمهيجة للمشاعر، والتي يستحى من ذكرها أو التلفظ بها، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَفۡتِنِّيٓۖ﴾؛ ومعلوم في كتب السيرة والتاريخ ماذا كان مقصد هؤلاء المنافقون من وراء هذه العبارة، ولعل القرآن الكريم استبدل عباراتهم القبيحة بهذه العبارة التي أدق وأجمل وأفصح وأبين، وفي حدود الأدب والحشمة، وذلك كعادة القرآن

---

(١) روح المعاني ٥/٣٠٤.

الكريم وأسلوبه في تكنية ما يستحى من ذكره، أو يثير الغرائز ويهيج المشاعر،أو يتنافى مع الحشمة والأدب..

٧١٨.تفيد علم المنافقين بأن رؤية النساء كاشفات متعرضات للرجال فتنة على قلوب الرجال؛ ولهذا فإنهم يستغلون فتنتهن لبلوغ مآربهم وتحقيق أهدافهم سلبا وإيجابا؛ وفي زماننا هذا يبتغي هؤلاء المنافقون الفتنة بتشجيع النساء على نزع الحجاب والتحرر والتفسخ، والعمل مع الرجال، وتعريض المجتمع لفتنتهن، لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾؛ أي: لا تجعلني أخرج معك فأفتتن برؤية نساء بني الأصفر فلا أصبر عنهن، ولا أقوم بفريضة الجهاد كما يجب علي..

٧١٩.فيها التحذير الشديد من التبرير بعد التقصير فإنما انجى كعب بن مالك الصدق.

٧٢٠.تفيد سوء أدب المنافقين وأذنابهم مع الشريعة الإسلامية وصاحبها عليه افضل الصلاة وأتم التسليم، وعدم الالتزام بتعاليمها وانعدام ثقتهم بها، حيث ينسبون كل مخازيهم ومآسيهم ونفسياتهم وإخفاقاتهم في هذه الحياة إلى هذه الشريعة المحمدية وصاحبها عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم؛ وذلك بغية الطعن فيهما والسعي إلى الانفكاك والبعد عنهما؛ لقول هذا المنافق: ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾؛ حيث نسب خزيه وعاره وغرائزه الشهوانية – غير المنضبطة بتعاليم الشريعة الإسلامية– إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يقل تأدبا واحتراما لمقام النبي صلى الله عليه وسلم مثلا: (ائذن لي حتى لا أفتتن) أو (لأتجنب الفتنة)؛ بل جعل النبي صلى الله عليه وسلم هو صاحب الفتنة وقائدها، وأن كل من اتبعه واقع في الفتنة، وهكذا هم المنافقون في كل عصر وزمان ينسبون كل رذيلة وكل مآسي تصيبهم في هذه الحياة إلى الشريعة الإسلامية وتعاليم صاحب الشريعة محمد صلى الله عليه وسلم..

٧٢١.تفيد أن الطعن والانتقاص ونسبة الشرور والمصائب والفتن إلى الشريعة المحمدية وصاحبها عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم كفر مخرج من الملة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

٧٢٢.فيها التعبير بصيغة المضارع في قوله: (ومنهم من يقول) ولم يقل: (ومنهم من قال). وفي ذلك دليل على استمرارية هذا الخبث وسوء الأدب في المنافقين في كل عصر وزمان..

٧٢٣.تفيد أن تجنب العبد الفتنة وعدم سقوطه فيها؛ مبني على اتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولزوم منهجه وهديه وطريقته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ﴾ أي: في التخلف وعدم اتباعك؛ ثم قال: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ أي: بتخلفهم عنك وعدم اتباعهم لك سقطوا في الفتنة...

قال تعالى: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾ [التوبة:٥٠].

٧٢٤.تفيد مع سابقتها ولاحقتها أن المنافقين الساقطين في أوحال الفتن ومستنقع الشهوات منشغلون بأحوال غيرهم، متناسين حال أنفسهم وما هم فيه من المصائب والسيئات، يهتمون بالقشور والمظاهر والأسباب، ويتجاهلون اللباب والمضامين، ومسبب الأسباب..

٧٢٥.فيها صفة وعلامة للمنافقين وهي كره الخير للمؤمنين وترقب وقوع الشر لهم حتى يشمتوا بهم.

٧٢٦.المساءة بالحسنة، والفرح بالمصيبة من أعظم ما يدل على أنهم قد بلغوا في العداوة إلى الغاية.

٧٢٧.قال محمد خان في فتح البيان: قابل الله هنا الحسنة بالمصيبة ولم يقابلها بالسيئة كما قال في سورة آل عمران (وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) لأن الخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم

وهي في حقه مصيبة يثاب عليها لا سيئة يعاتب عليها، والتي هناك خطاب للمؤمنين. قاله الشهاب" [1].

٧٢٨.تفيد، وبضميمة ما قبلها: أنه لا يفرح بما يصيب رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، إلا كافر.

٧٢٩.تفيد: أن السلامة الحقيقية، هي السلامة من الإثم والمخالفة؛ وليس سلامة البدن من العطب؛ لأنهم فرحوا بسلامتهم بعدم المشاركة وتناسوا ما ينتظرهم من عذاب جنهم.

٧٣٠.تفيد: أن المصائب، تصيب الأنبياء. وفيه فوائد:

ـ منها: الصبر على المصائب؛ لأننا نتأسى بالأنبياء.

ـ ومنها: ظهور بشريتهم وأنهم يتألمون ويفرحون ويحزنون.

ـ ومنها: لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا – إلا ما شاء الله.

ـ ومنها: عدم الغلو فيهم وسؤالهم من دون الله..

٧٣١.تفيد: الحذر من استمراء المعصية والفرح بها؛ ولأنه فعل المنافق؛ دل عليه المضارع في قوله: ﴿يَقُولُواْ﴾، للإشارة إلى حديثهم المستمر والمتكرر لبعضهم البعض وكأنهم أحسنوا وأجادوا في التخلف!؛ بقرينة: ﴿وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾.

٧٣٢.تفيد أن الحسنة والسيئة تأتي في القرآن بمعنى الطاعة والمعصية. وتأتي بمعنى النعمة والمصيبة. ويظهر المراد من خلال السياق، وهنا جاء التنصيص على ما يقابل، الحسنة وهي المصيبة فدل على أن الحسنة هنا بمعنى النعمة والخير والظفر على العدو..

٧٣٣.فيها أن المنافقين في كل زمان، يحزنهم نصر المؤمنين.

٧٣٤.فيها أن همة أهل النفاق مقصورة على الدنيا، وجمع الغنائم ولذلك يسؤهم انتصار المؤمنين، لأنهم يعرفون أنه لن يكون لهم نصيب في الغنائم بسبب عدم خروجهم مع المؤمنين.

---

(١) فتح البيان ٥/٣١٨.

٧٣٥.من أبرز علامات المنافق التي تُظهر نفاقه للعلن، الشماتة في المسلمين عند حلول المصيبة بهم..

٧٣٦.فيها أن من فوائد مصائب المؤمنين، إظهار نوايا المنافقين.

٧٣٧.تفيد أن المصيبة تشمل الحسنة والسيئة؛ بمعنى أن كل واحدة منهما ابتلاء من الله لعباده، فيثيب الشاكر على الحسنة ويثيب الصابر على السيئة، ومع ذلك شاع استعمال المصيبة في السيئة دون الحسنة.

٧٣٨.تفيد أن من علامات إيمان العبد المؤمن أن يفرح بفرح أخيه المؤمن، ويحزن لحزنه، إذا رأى أو سمع بمصيبة أخيه أن يقبل إليه ويواسيه ويعزيه في مصيبته مظهرا له مشاعر الحزن والأسى، وناسبا ما هو فيه من النعم التي سلب منها أخوه إلى خالقه جل وعلا؛ لا أن يفعل ما فعله ويفعله أصحاب القلوب المريضة: ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾..

٧٣٩.تفيد جهل المنافقون بأقدار الله تعالى وعدم إيمانهم بقضائه وقدره، فإن الأمر كله لله، وتدبير هذا الكون كله راجع إلى أمره ومشيئته، ولا يغني حذر من قدر، لقوله تعالى: ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾، ولو علموا ذلك واعتقدوه لما قالوا بمقالتهم هذه.

٧٤٠.تفيد أن حلول النعم على العبد تبكم وتخرس ألسنة الحاقدين والحاسدين؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾، يلاحظ أنهم في جانب الحسنة خرست ألسنتهم فلم ينبسوا ببنت شفة، وفي جانب المصيبة قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾، وعليه؛ فإن من أراد أن يعرف عدوه من صديقه فعليه أن يفرزهم في الشدائد والمصائب، وصدق الشاعر حين قال.

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوي من صديقي.

قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التوبة:٥١].

٧٤١.فيها الإيمان بالقضاء والقدر، فيها علاج للقلق والهم، وبعثٌ للراحة والطمأنينة في النفس، ولذا قال علقمه في قوله تعالى ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ قال هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم" (١).

٧٤٢.فيها حرص الاسلام على غرس الرضا في نفس الإنسان، بإن كل شيء مكتوب، هذا هو البلسم الشافي لتهوين مصائب الدنيا.

٧٤٣.فيها أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

٧٤٤.فيها التلازم بين التوكل والإيمان. فلا يحقق التوكل إلا من كان مؤمنا. ولا يحقق الإيمان إلا من حقق التوكل على الله، إيمان المؤمن بأن الله مولاه مقتض ألا يتوكل إلا عليه.

٧٤٥.تفيد: أن أمر المؤمن كله له خير؛ مهما أصابه؛ لقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾؛ ولم يقل: علينا؛ وتصديق ذلك ما رواه مسلم مرفوعا: «عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرا له" (٢)..

٧٤٦.فيها: إغاظة أعداء الله؛ لقوله: ﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ﴾؛ كأن المؤمنين يقولون: "هو مولانا"، فلا دخل لكم أنتم..

٧٤٧.فيها: حصر وقصر التوكل على الله.

٧٤٨.فيها استحضار لطف الله عز وجل في الملمات والمحن.

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير ٢٨ / ١٢٣.أخرجه سعيد بن منصور، انظر (١٨٤/٨).

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٩٥/٤.

٧٤٩.فيها تلقين العقيدة الصحيحة، والصدع بها ولو كره المنافقون والكافرون؛ لقوله: ﴿قُل﴾.قال الزمخشري: واللام في قوله إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا مفيدة معنى الاختصاص كأنه قيل: لن يصيبنا إلا ما اختصنا الله به بإثباته وإيجابه من النصرة عليكم أو الشهادة" [١].

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة:٥٢].

٧٥٠.فيها من المناسبة للآية السابقة أن الله عند حسن ظن عبده به؛ فإنهم لما توكلوا على الله وقالوا: ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾، صدقهم ووعدهم ﴿إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾، فتكون فيها تصديق ومناسبة لما قبلها.

٧٥١.فيها: أن المؤمنين في جهادهم لأعدائهم موعودون بأحد أمرين هما النصر أو الشهادة، فيكون المجاهد في سبيل الله فائز في حاليه، وبيان إن الطرف الآخر خاسر في كل الأحوال.

٧٥٢.فيها: أن العاقبة الحميدة والظفر والنصر المبين إنما هو لأولياء الله وجنده وأن العاقبة السيئة والهزيمة والغلبة لأعدائه وأعداء أوليائه..

٧٥٣.فيها أن بعض الأمور ليس لها حل دنيوي، ويرجأ أمرها إلى يوم القيامة.

٧٥٤.فيها أن بعض الحلول تأتي متأخرة، وعلى المرء التحلي بالصبر والدعاء بطلب الفرج، فالواجب الصبر وعدم استعجال الفرج.

٧٥٥.فيها أن التربص نوعان: حسن وسيء، ويؤخذ هذا من الاختلاف بين تربص المؤمن والكافر، والأول يدل على الفطنة والصبر، والثاني يدل على الغفلة والخبال فكلاهما صابر ومتربص ولكن شتان بين الحالين، يصور هذا المشهد العلامة ابن القيم رحمه الله في الكافية الشافية حيث يقول:

اصبر أُخيه إنما هي ساعة فإذا اصبت ففي رضا الرحمن

---

(١) الكشاف ٢/٢٦٥.

فـالقوم مثلـك يألمـون ويصـبرون وصـبرهم في طاعـة الشـيطان

٧٥٦.فيها أثر الحرب الكلامية على النفوس، واستخدام وسائل إعلامية ونفسية وكلامية لإضعاف العدو..

٧٥٧.فيها نوعين من العذاب: جسدي ونفسي.

٧٥٨.فيها اختلاف نظرة الأشخاص للأشياء، إذ كل طرف يرى الأمر من جهته حسب معتقداته وأفكاره، فالمؤمن يرى قتله شهادة والكافر يراه هزيمة وعذابا للمؤمن، والنظرة الحق هي ما وافقت الخبر في الكتاب والسنة.

٧٥٩.تفيد تربص الأعداء وهو الترقب وانتظار الفرصة للانقضاض على المسلمين مما يتوجب علينا اخذ الحيطة والحذر على الدوام.

٧٦٠.تفيد ﴿أَوۡ بِأَيۡدِينَآۖ﴾ أن الله قد يستعمل العبد في مرضاته ومحابه وهذا شرف عظيم المجاهد في سبيل الله.

٧٦١.تفيد الآية الكريمة في مجملها على الداعية أن يتعلم اسلوب محاورة الخصم ومناظرته ودحض حججه كأن يبن لهَ اوجه خسارته كلها وأنه الرابح على كل حال.

قال تعالى:﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡۖ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٥٣].

٧٦٢.فيها: المناسبة: لما بين سبحانه في الآية السابقة عقوبة وعذاب المنافقين ذكر هنا أنهم حتى ولو أتوا بأعمال البر فلن يتقبل منهم في الآخرة ما داموا على ما هم عليه.

٧٦٣.فيها التنبيه إلى أنه ليس كل عمل صالح يكون مقبولا. فليحذر المؤمن من التلبس بشيء من موانع القبول ومحبطات الأعمال وهو لا يدري.

٧٦٤.وفيها: قوله ﴿أَنفِقُواْ﴾ أمر بمعنى الخبر، وفيه تهديد وتوبيخ لهم.

٧٦٥.تفيد أن القيام بالأعمال الصالحة يجب أن تقترن برغبة صادقة، ونية صالحة من صاحبها؛ وإلا فإنها لن تحقق أهدافها، ولن تؤتي ثمارها.

٧٦٦.فيها: الفسق من موانع قبول العمل، لذلك قال ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليل لعدم القبول.

٧٦٧.فيها: بيان بطلان عمل المنافقين.

٧٦٨.فيها أن من الناس من ينفق طوعا رغبة فيما عند الله ومنهم من ينفق كرها وخوفا من السلطات، والقوانين.

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤].

٧٦٩.تفيد: أن المانع من قبول العمل هو الكفر.

٧٧٠.فيها أن الإيمان شرط في قبول الأعمال ولذلك لم تقبل منهم نفقاتهم، مع ملاحظة أنه أذا لم تقبل الأعمال التي نفعها متعد فما كان قاصرا على فاعله بطريق الأولى.

٧٧١.تفيد: أن من صفات المنافقين التثاقل في الاتيان إلى الصلاة لإنهم لا يرجون على أدائها ثوابا ولا يخافون على تركها عقابا..

٧٧٢.فيها: أن المنافقين يعدون الأنفاق مغرما ومنعها مغنما.

٧٧٣.فيها: أن على المسلم أن يأتي الأعمال الصالحة بانشراح صدر وطيب نفس لأنه يرجو ثوابها ومضاعفة أجرها.

٧٧٤.تفيد: أن الكافر، لا يثاب على العمل الصالح ولا ينفعه يوم القيامة؛ قال الله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، وفي الحديث عند مسلم: عن عائشة قلت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: " لا ينفعه، إنه لم يقل يوما: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين"(١):

(١) أخرجه مسلم ١/١٩٦.

٧٧٥.فيها: عظم شأن الصلاة، والانفاق في سبيل الله، تفيد عظم أمر الصلاة؛ وأنها العلامة الفارقة بعد الإيمان بالله بين المؤمن وبين المنافق.

٧٧٦.تفيد أن العبد قد يأتي ببعض الأعمال الصالحة؛ ولا يدري أنه قد خلع ربقة الإيمان من عنقه، قوله تعالى: ﴿كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾..

٧٧٧.تفيد مع ما قبلها أن من استمر على أعمال الفسق يخشى عليه أن يخرج من ربقة الدين، والعياذ بالله، لقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾ثم قال هنا: ﴿إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾..

٧٧٨.فيها تحذير شديد من الكسل عن أداء العبادات، لأنه صفة للمنافقين نفاقا أكبر.

٧٧٩.فيها: أن النفاق، يثقل العبد عن الخير والطاعات، ويثبطه عن أدائها؛ لذا أن النبي صلى الله عليه وسلم استعاذ من العجز والكسل، والفرق بينهما أن الأول هو ترك العمل مع عدم القدرة أما الكسل فهو مع القدرة مع عدم الباعث من النفس.

٧٨٠.تفيد أن الأعمال الصالحة ينبغي أن يؤديها العبد بفرح وسرور؛ وخصوصا تلك التي تتطلب بذلا وعطاء.

٧٨١.. يفيد التعبير بقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ دون قوله: (ولا يقيمون الصلاة) أو (ولا يؤدون الصلاة) دليلا لمن قال: بوجوب صلاة الجماعة في المساجد.

قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥].

٧٨٢.تفيد: أن أشد الفتنة على الإنسان هي فتنة المال والولد؛ لذا نص عليهما في الآية.

٧٨٣.تفيد: ألا يغتر المسلم بما أعطاه الله للكافر، فلربما كان هذا العطاء استدراجاً.

٧٨٤.فيها حقارة الدنيا وما تعلق بها ولو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما أعطى كافرا منها شربة ماء.

٧٨٥.تفيد أن النعم قد تحمل في ثناياها النغم عقوبة وبلاء.

٧٨٦.ينبغي عدم النظر لمن هم أعلى أو أكثر في شؤون الدنيا.. بخلاف أمر الآخرة.

٧٨٧.فيها ضعف النفس البشرية أمام الشهوات﴿تُعۡجِبۡكَ﴾ واغترارها بالعاجل دون الآجل.

٧٨٨.قد تنقلب النعمة الي نقمه ان لم تحسن توجيهها وتصير مصدرا للعذاب.

٧٨٩.تفيد أن الأموال والأولاد من أبرز ما يثير الإعجاب في نفوس البشر، وخصوصا إذا اقترنا بجمال وكثرة؛ ولهذا أمر يعقوب عليه السلام بنيه بالتفرق ونهاهم عن الدخول كلهم من باب واحد؛ فقال لهم: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾..

٧٩٠.تفيد بلاغة القرآن الكريم؛ حيث وجه النهي إلى الأموال والاولاد والمراد: نهي المخاطب من الإعجاب بهما؛ أي: لا تتعجب من أموالهم وأولادهم.

٧٩١.تفيد أن من أشد صور وأشكال العذاب والعقوبة في الدنيا أن يعذب الله عبده بالنعم؛ إذ يعتقد العبد أنه في نعمة وهو في عذاب وشقاء؛ ويعيش هكذا حياته مستمرا من دون أن يتراجع أو يتذكر أو يتنبه لما هو واقع فيه من معاصي الله تعالى؛ وصدق الله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾..

٧٩٢.تفيد: أنه لابد من النظر إلى حقائق الأمور لا إلى ظاهرها فقط.

٧٩٣.تفيد القناعة والرضا بما قسم الله للعبد.

٧٩٤.تفيد أن المال والولد قد يكون مصدر من مصادر العذاب في الدنيا لبذل الوقت والجهد في حفظهما ورعايتها في حال الانشغال بهما عن الطاعة..

قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة:٥٦].

٧٩٥.تفيد دقة التناسب وروعة التناسق مع ما قبلها فبعد أن نهت الآية السابقة عن الإعجاب بما أوتوا من الأموال والأولاد؛ أشارت هذه الآية إلى عدم الإعجاب بأشخاصهم وبما أوتوا من الفصاحة وقوة البيان وحلو المنطق.

٧٩٦.أن أهل النفاق دائما ما يحرصون على إخفاء نفاقهم بشتى الوسائل..

٧٩٧.أن النفاق يورث صاحبه الذل ويلبسه لباس الخوف.

٧٩٨.أن الحلف بالله كذبا من صفات المنافقين.

٧٩٩.فيها بيان لسبب النفاق، بإظهار الإيمان، وإبطان الكفر، وهو الخوف الشديد.

٨٠٠.فيها وفيما سبقها من الآيات دلالة على أن أكثر استعمال القرآن لكلمة الحلف إنما يكون في الأيمان الكاذبة.

٨٠١.في كثرة المؤكدات (القسم وإن واللام واسمية الجملة) التي في هذه الآية دليل على أن المتحدث يعلم أنه كذاب ويخشى ألا يصدقه السامعون؛ ولذلك فإنه حريص على أن يلبس باطله الكاذب ثوب الحق حتى يصدقوه.

٨٠٢.حرب الإسلام من الداخل انكى وأكثر تأثيرا، فمن جبنهم أنهم يتدثرون بدثار الإسلام للنخر من الداخل، وقديما قيل: فتح الباب من الداخل أيسر من فتحه من الخارج.

٨٠٣.في قوله سبحانه ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ إشارة إلى أن المنافقين هم أكثر الناس خوفا وفزعا..

٨٠٤.في التعبير بالفعل المضارع ﴿يَفْرَقُونَ﴾دلالة على أن الفرق (الخوف) لا يزال فيهم ولا يزول عنهم بحال فإن زال عنهم في وقت ما تجدد عندهم في أوقات كثيرة.

٨٠٥.تفيد أن كل أهل الباطل يخافون من العواقب؛ لأنهم على يقين من أنهم على الباطل فتكون كل عواقبهم غير محمودة.

٨٠٦.تفيد معية الله تعالى بالمؤمنين حيث كشف لهم خبثهم وسوء بواطنهم.

٨٠٧.تشير إلى: أن إرضاء الناس همة المنافق؛ قال الله: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾.

وقول الله: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾..

٨٠٨.فيها البراءة من النفاق وأهله؛ لقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾.

قال تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة:٥٧].

٨٠٩.لما كان موضوع الآيات الكريمة السابقة هي القتال وحرص المنافقين على إنفاق الأموال والايمان للانتساب إلى المسلمين ناسب أن يكون سوء ظنهم من خوفهم من غلبة المسلمين عليهم وليس من نزول القرآن لأن الملجأ والمغارات لا تمنع من نزوله ولكنها قد تمنع من المقاتلين.

٨١٠.تفيد شدة تباعد المنافقين عن المؤمنين، وهو بيان لما سبق في الآية السابقة في قوله ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾، ولو يجدون مخلصا لهم ما بقوا بينكم، ولكن خوفهم هو الذي أبقاهم.

٨١١.تفيد أن المنافق قليل الحيلة ضعيف التصرف، فقط هو يتحين الفرص للوصول لغرضه وتحقيق أهدافه.

٨١٢.تفيد مع السياق والسباق واللحاق أن فرق المنافقين إنما هو من نزول القرآن الكريم الذي يفضح نواياهم ويكشف خباياهم وأسرارهم التي ربما قد تصل إلى قتلهم والتخلص منهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾؛ فهم يفرقون من أجل هذا..

٨١٣.تفيد أن من علامات المنافقين الهرولة والمسارعة إلى تبني الأفكار المنحرفة والالتجاء إليها؛ وتولى المبادئ والقيم الدخيلة على ديننا الإسلامي الحنيف؛ التي يرونها ملجأ ومغارات ومدخلا لهم تحصنهم من المسائلات أمام المجتمع، وتعطيهم المزيد من الحرية في الاستمرار على ما هم عليه من الغي والضلال؛ وذلك بصورة تدعو المتأمل في حالهم للدهشة والاستغراب ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾، أي يسرعون في الذهاب إليها بحيث لا يردهم شيء كالفرس الجموح وهو النفور الذي لا يرده لجام..

٨١٤.تفيد ضعف التوكل على الله عند المنافقين؛ فهم يعتمدون على الأسباب الحسية (ملجأ، مغارات، مدخل)، ومسارعتهم في الكفار من ذلك؛ كما قال الله عز وجل: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾ [المائدة:٥٢-٥٣].

٨١٥.تفيد أن صحبة المنافقين للمؤمنين صحبة اضطرار وليس اختيار، فلَمّا ذَكَرَ فَرْقَ المنافِقِينَ مِنَ المؤْمِنِينَ أخْبَرَ بِما هم عَلَيْهِ مَعَهم مِمّا يُوجِبُهُ الفَرْقُ؛ وهو أنَّهم لَوْ أمْكَنَهُمُ الهُرُوبُ مِنهم لَهَرَبُوا، ولَكِنْ صُحْبَتُهم لَهم صُحْبَةُ اضْطِرارٍ لا اخْتِيارٍ " (١).

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة:٥٨].

٨١٦.فيها: بيان لفساد فهم المنافقين بحرصهم على حطام الدنيا حيث يرضوا إذا أعطوا ويسخطون إذا لم يعطوا وهذا دليل على خبث مقصدهم وسوء طويتهم.

٨١٧. تفيد أن المنافق ينظر إلى العاجلة. المال يخرج خبايا الإيمان والنفاق فتنة المال من معايير الإيمان، فالمنافقين يسقطون في هذا الامتحان الإلهي

٨١٨.فيها التعريض دون التصريح.. وهذا من رأفة الله بعباده.

٨١٩.تفيد أن اللمز من خصائص المنافقين، كما يفيد المضارع (يلمزك) التكرار.

٨٢٠.فيها بيان لفقر أنفسهم.. فبعض المال يكفيها.. لجشعهم الفعل المجهول ﴿أُعْطُوا۟﴾لبيان ضعف هممهم فأي عطاء يسد جوع نفوسهم. الجار ﴿مِنْهَا﴾للتبعيض.

٨٢١.فيها أن القائد ولو قام بالعدل فإنه لن يسلم من التهم والطعن في قيادته، فعليه أن يخلص عمله لله، ولكن لا سلامة من الناس.

---

(١) البحر المحيط ٥/٤٣٧.

وكما قيل:

إنَّ نِصْفَ النَّاسِ أَعْدَاء لِمَنْ وُلِّيَ الأَحْكَامَ هَذَا إِنْ عَدَلْ

٨٢٢.دلَّت ﴿إِذَا﴾ الفُجائيَّةُ على أنَّ سَخَطَهم أمرٌ يفاجِئُ العاقِلَ حين يَشهَدُه؛ لأنَّه يكونُ في غيرِ مَظِنَّةِ سَخَط" [١].

٨٢٣.في قوله ﴿ وَمِنْهُم﴾عدل القران مع الخصوم.

٨٢٤.فيها أن لمز المصلحين وعيبهم والطعن في نياتهم من سمات المنافقين في كل زمان ومكان.

٨٢٥.فأسلوب القرآن الكريم أنه لا يفجر في الخصومة، وإن كانت لا توجد حسنات عند هذه الفئة إلا أن ذلك لا يعني أن القرآن الكريم يساوي جميعهم فيما يصدر من بعضهم فإن هذا ليس من الانصاف والعدل..

٨٢٦.تفيد أن من مهام إمام المسلمين تولي شؤون الصدقات والزكوات من أخذ واستلام وتوزيع على أصحابها.

٨٢٧.تفيد أن رضا الناس غاية لا تدرك، وأنه ليس إلى السلامة من ألسنة الناس سبيل، ولو سلم أحد من الخلق من ألسنة الناس لسلم أعدل البشر وخير الخلق صلوات الله وسلامه عليه..

٨٢٨.تفيد جواز أن ينيب إمام المسلمين من يتولى توزيع الصدقات والزكوات على أصحابها؛ لقوله تعالى بصيغة البناء للمجهول: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ﴾، ولم يقل: (فإن أعطيتهم رضوا.. وإن لم تعطهم...)

٨٢٩.تفيد تحقير المنافقين وإهانتهم؛ حيث إنهم ليسوا مؤهلين لاستلام العطايا من اليد الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ﴾ولم يقل: (فإن أعطيتهم).

---

(١) التحبير والتنوير ٢٣٢/١٠ .

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ [التوبة:٥٩].

٨٣٠.تفيد بدلالة المناسبة شدة ارتباطها لما قبلها، فأنه سبحانه لما أخبر عن حال المنافقين السيء، نبههم هنا على سلوك الطريق الصحيح، وهكذا ينبغي للداعية إذا سد على الناس باب الشر أن يفتح بدله من أبواب الخير، حتى لا يقع الناس في حيرة" (١).

٨٣١.فيها أنه ينبغي الرضا بما قسمه ولاة الأمر، أو غيرهم ممن وكِّل إليه أمر أعطاء أو توزيع.

٨٣٢.فيها: القناعة كنز لا يفنى، قال لبيد بن ربيعة في معلقته:

فاقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بينها علامها.

٨٣٣.فيها أن الله وحده هو الكافي، حيث جعل الإيتاء له سبحانه ولرسوله، بينما الحسب له وحدة، وهو إخلاص التوحيد فجعل الحسب والرغبة إلى الله وحده لا إلى غيره مهما علت منزلته، كما في الإيتاء ولقد صور ابن القيم هذه الحقوق في الكافية الشافية حيث يقول:

لله حق لا يكون لغيره ولعبده حق هما حقان

لا تجعلوا الحقين حقا واحدا من غير تمييز ولا فرقان (٢)

٨٣٤.فيها: الرغبة بما عند الله مطمع ومطلب.

٨٣٥.فيها: الرضا والتوكل متلازمان، فالتوكل يكون قبل والرضا بعد.

٨٣٦.فيها: حسن الظن بالله؛ ولقوله: ﴿سَيُؤْتِينَا﴾، فهي منتهى الثقة بالله والتفاؤل والأمل فهي راسخة في قلب المؤمن غير قابلة للشك.

٨٣٧.جواز اللوِّ إذا لم يكن فيه اعتراض على القدر والتحسر على ما فات، وهي في كل موضع بحسبه"(٣).

---

(١) الشرح الممتع ١٥/٢٤٢.

(٢)الكافية الشافية (ص: ٢٤٩)

(٣)مجموع فتاوى ابن عثيمين ٣/١٢٩.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ٦٠].

٨٣٨. تفيد بدلالة المناسبة الرد على المنافقين، فهم لما اعترض على النبي في توزيعه الصدقات بين هنا أنه سبحانه هو الذي وزعها وقسمها وتولى أمرها، فالمؤمن بالله لا يسعه إلا الرضا والتسليم لأمر خالقه.

٨٣٩. فيها عناية الإسلام بالرد على الشبهات وتوضيح الحقائق ووضع الأمور في نصابها فجاءت هذه الآية المحكمة ردا على لمزهم بيانا دقيقا مفصلا.

٨٤٠. تفيد: إن من نعمة الإسلام تكاتف أهله، حتى في المال.

٨٤١. تفيد: إن المسكين أحسن حالاً من الفقير، ولذا قدم الفقير على المسكين، لأن الأولية لها مدخل في الأولوية.

٨٤٢. تفيد: إن الشعيرة لابد أن يشرف عليها السلطان بنفسه أو من ينوب عنه، حتى لا تصبح عرضة للاندثار، فالزكاة جعل لها الجباة، وهم العاملون عليها، حتى لا يضيع أمرها، وهكذا الحج، والصلاة، والصوم.

٨٤٣. فيها: تسمية الزكاة بالصدقة؛ لأن مفهوم الصدقة أوسع وأعم من مفهوم الزكاة، فالزكاة أضيق، فجوز الصدقة لأهل الزكاة، ولا يلزم العكس.

٨٤٤. فيها: حرص الإسلام على عتق الرقاب، وعدم رغبته في الرق، فالشرع له تشوف في العتق؛ ولذا جعل الأسباب التي يكون بها العتق كثيرة، كالكفارات ونحوها، وضيق أسباب الرق، وهو الكفر بالله.

٨٤٥. تفيد الزكاة بمفهومها الواسع أن الأمر لا يقتصر على الفقر بل يتعدى إلى الأمور التي تطرأ على أفراد المجتمع من إعطاء المسافر المجتاز في بلد وليس معه ما يستعين به على سفره؛ ولو

كان غنيا في بلده؛ لأنه غاير بين الفقراء والمساكين وابن السبيل؛ ولذا نسبه إلى الطريق "ابن"، فهو ملازم له.

٨٤٦.فيها: أن العاملين عليها –وهم الجباة للزكاة– يعطون منها ولو كانوا أغنياء، تدل على عناية الإسلام بأفراده فردا فردا.

٨٤٧.فيها: نصرة لدين الله يعطى المجاهد منها ما يعينهم على قتال العدو.

٨٤٨.تفيد حصر الزكاة في هذه الأصناف بدليل قوله: (إنما)، وهذا محل إجماع[١]؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وقد اتفق المسلمون على أنه لا يجوز أن يخرج بالصدقات عن الأصناف الثمانية المذكورين في هذه الآية [٢].

٨٤٩.فيها إعطاء الفقير الذي لم يحج من الزكاة ليحج؛ لقوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "الحج من سبيل الله" [٣]. ومن لم يحج حجة الإسلام وهو فقير أعطي ما يحج به و هو احدي الروايتين عن أحمد.

٨٥٠.إعطاء العاملين عليها ولو كانوا أغنياء تدل على أمور منها:

_ كرم وسماحة الشريعة الإسلامية.

_ علم الله بالنفوس ومحبتها للمال.

_ حرص الشارع على تطهيرها من أكل الحرام أو الغل والحسد.

٨٥١._ أن المال يحتاج إلى إنشاء جهات أو مهام خاصة به كالمحاسبة ونحوها.

٨٥٢.فيها إشارة إلى: أن المال يصون ويحمي من الوقوع في الحرام؛ وإن كثيرا من الموظفين يأخذون المال من غير حله – كالرشوة والسرقة من الدولة.

---

(١) تنبيه: المقصود بالإجماع هنا حصر أصناف الزكاة، لا أن (إنما) تفيد الحصر، لأن في المسألة أقولا طويلة الذيل كثيرة النيل فلينتبه لذلك.

(٢) مجموع الفتاوى ٥٦٧/٢٨.

(٣) الجامع الصغير وزيادته وضعفه الألباني.

٨٥٣. تفيد أهمية أن يعطى الأشخاص الذين يقومون بالأعمال والمهام والمناشط التي يحتاجها المجتمع في جميع المجالات مقابلا ماليا نظير تفرغهم لإنجاز تلك الأعمال والمهام، حتى وإن كانوا ليسوا بحاجة إلى هذا المال، لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾.

٨٥٤. يفهم منها: أن الناس، ليسوا سواء في التمسك بالإسلام؛ لقوله: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

٨٥٥. فيها بيان بدلالة المناسبة لمزيد من جهالات المنافقين وكشف لمثالبهم.

٨٥٦. تفيد أنه على من تولى إمامة المسلمين أن يكون أُذن خير وصلاح لا أذن شر وفساد، وأن يكون رحيما بهم مشفقا عليهم، غير محتجب عنهم، وعن قضاء حوائجهم، ويؤيده حديث النبي صلى الله عليه وسلم (اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فأشقق عليه ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق بهم) [(١)]، وقوله عليه الصلاة والسلام: (من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم، احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة) [(٢)]..

٨٥٧. هذه الآية الكريمة مدرسة في الرد الراقي الحكيم وقمة الحلم والصبر وتمالك الأعصاب.. فانظر ماذا قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم وكيف كان الرد من المولى عز وجل.

٨٥٨. حرمة أذية النبي صلى الله عليه وسلم حيا وميتا، قولا وفعلا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ﴾..

٨٥٩. تفيد أن أذية النبي صلى الله عليه وسلم من علامات وسمات المنافقين، لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾..

---

(١) أخرجه مسلم ٣/١٤٥٨.

(٢) السلسلة الصحيحة للألباني ٢/٣٠٥، وصححه.

٨٦٠.تفيد أن أذية النبي صلى الله عليه وسلم بالسب والشتم كفر مخرج من الملة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ وهل يستتاب فاعله أو لا يستتاب بل يقتل؟، خلاف بين أهل العلم.

٨٦١.فيها: تعدد وتنوع أساليب المنافقين، في أذية النبي – صلى الله عليه وسلم...

٨٦٢.تفيد أن بعثته رحمة للعالمين عامة وللمؤمنين خاصة.

٨٦٣.فيها: ما أتى من نبي إلا له اتباع ومخالفين.

٨٦٤.فيها: المحاسب هو الله وحده.

٨٦٥.فيها: سمو نفس النبي ﷺ فلم يؤاخذهم على ما قالوا وفعلوا.

٨٦٦.فيها: من شيم الكرام العفو والأمر بالمعروف والإعراض عن الجاهلين.

٨٦٧.فيها: بيان منزلة المؤمنين حيث خصهم سبحانه بالذكر بسبب إيمانهم.

٨٦٨.تفيد أن كمال الاخلاق وسمو الدعوة لا يستلزم من ذلك رضى الناس، فلابد أن تجد في الحياة من يؤذيك ويتكلم فيك بسوء.

٨٦٩.تفيد أن الكلام عنك بسوء لا ينبغي أن يصرفك عن هدفك وغايتك في تبليغ دعوة الله تعالى للناس.

٨٧٠.تفيد كفاية الله تعالى لنبيه وبيان مكانته وقدره عند ربه.

٨٧١.تفيد أنه لا يعرف قدر النبي عليه السلام إلا من آمن به وعرفه دعوته وسيرته وأثر ذلك في حياته.

٨٧٢.تشير إلى: حلم النبي صلى الله عليه وسلم وصبره وتحمل الناس.

٨٧٣.فيها: أن النبي – صلى الله عليه وسلم – حسن الإصغاء والاستماع شديد الصبر على ذلك، وعليه فتحويل الناقب إلى مثالب ومعايب من دأب المنافقين.

٨٧٤. فيها من يريد الطعن يحول الصفات الحميدة إلى رذائل، فقد فسروا بأفهامهم الفاسدة، أن الرحمة واللين من النبي صلى الله عليه وسلم أن أذن.

إذا كانت حسناتي اللاتي أتيت بها صارت ذنوبا قل لي كيف أعتذر؟

٨٧٥. تفيد: الحذر من أذية النبي – صلى الله عليه وسلم –، وأنه لا تحل أذيته بحال ولو بأدنى أذية؛ وتصديقه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٧-٥٨] فانظر كيف لعن من آذى الله ورسوله مطلقا، وعند أذية المؤمنين قال: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾، لأن من آذاهم بسبب ما اكتسبوا لم يقع تحت طائلة هذا اللعن.

٨٧٦. تفيد تعليما لطريقة من أفضل طرق الرد على الخصم، وذلك باستخدام ألفاظه ومفرداته وتحويرها بطريقة ذكية ومختلفة عن مقصوده؛ وذلك من أجل قطع الطريق عليه حتى لا تنتشر مفرداته أو مصطلحاته الخاصة بالطريقة التي يريدها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾..

٨٧٧. فيها: ثناء الله على النبي بصفة الإيمان بالله وهي التصديق الكامل، بما جاء عن الله ثم تصديق المؤمنين بما يخبروه ويكل سرائرهم الى الله؛ لأنه أرسل رحمة للعالمين.

٨٧٨. فيها الوعيد الشديد لمن تسبب في إيذاء النبي ولو بالكلام حياً وميتاً.

٨٧٩. تفيد أن قصد أذية النبي صلى الله عليه وسلم من علامات وسمات المنافقين، لقوله تعالى ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ لكان أحسن لأن من المؤمنين من أذي النبي صلى الله عليه واله وسلم بغير قصد ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ﴾ [الأحزاب:٥٣].

٨٨٠.تفيد أنه لا يجوز تصديق خبر المنافق الفاسق إلا بعد تبينه؛ لإخبار الله تعالى عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه يصدق المؤمنين دون غيرهم من المنافقين والكفار: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحُجرات:٦]

٨٨١.تفيد سماحة الشريعة المحمدية ويسر تعاليمها ورقي قيمها ومبادئها، فهي رحمة لكل آمن بها والتزمها وعمل بموجبها؛ فكما أن صاحبها رحمة للذين آمنوا؛ فكذلك شريعته رحمة لهم.

٨٨٢.تفيد قمة الإساءة؛ وذلك من أوجه كثيرة، أعظمها أذية نبيهم الذي جاء لهدايتهم، وإخراجهم من الشقاء والهلاك إلى الهدى والسعادة.

٨٨٣.فيها: قدحهم في عقل النبي صلى الله عليه وسلم ـــ وعدم إدراكه وتفريقه بين الصادق والكاذب، وهو أكمل الخلق عقلا، وأتمهم إدراكا، وأثقبهم رأيا وبصيرة، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي: يقبل من قال له خيرا وصدقا..

٨٨٤.تفيد: أن النبي – صلى الله عليه وسلم –، لا يركن إلى نفسه ويعتمد عليها في الرد على الإساءة؛ لقوله: ﴿قُلْ﴾.

٨٨٥.فيها: عناية الله بنبيه ودفاعه عنه، وتلقينه وتعليمه الحجة – صلوات الله وسلامه عليه، وعليه: فعلى المسلم أن يعتمد على ربه في رده ويسأله التوفيق، ولا يعتمد على نفسه؛ لأن من اعتمد على غيره – سبحانه – خذل. من حيث انهم وصفوه بالأذن ولم يأتي الرد تعنيفا مباشرا لأن المعاند لن يقبل التعنيف بل جاء بالنظر إلى الجانب المشرق وليس تحويرا للكلمة وإنما يعني أن النبي الكريم سهل رحيم بالمؤمنين فكله خير لكم.

٨٨٦.فيها تكرار هذا القول والإيذاء من المنافقين وإصرارهم عليه؛ دل على ذلك الفعل المضارع: ﴿يُؤْذُونَ﴾ و﴿وَيَقُولُونَ﴾..

٨٨٧.فيها أن من أهم صفات القائد الصبر على الأذى من المخالفين، اللين والرحمة وتصديق الأتباع المخلصين وحسن الاستماع إلى ما يوردونه من القضايا.

قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦٢].

٨٨٨.تفيد بدلالة المناسبة لما قبلها أن المنافقين يستخدمون شتى السبل والوسائل من إنفاق الأموال والايمان والحلف لإثبات أنهم من المؤمنين لكسب ودهم كل همهم الدنيا.

٨٨٩.فيها نوع الإقسام الصريح وهو بالباء كما ذكر ابن قاسم في حاشيته.

٨٩٠.تفيد أن من علامات المنافقين كثرة حلفهم.

٨٩١.فيه دليل على قوة شوكة المسلمين وإلا لما كان هنالك داعيا لكسب رضاهم.

٨٩٢.فيها: أن أقصى الأماني عند المنافقين هو مسايرة الرأي العام، ولو كان ذلك يخالف سرائرهم.

٨٩٣.فيها: أن طاعة النبي – صلى الله عليه وسلم – من طاعة الله؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾، ولم يقل: "أحق أن يرضوهما"..

٨٩٤.فيها دليل على أن السعي الدائم لإرضاء الآخرين له آثار سلبية على نفسية الإنسان وشخصيته، والدراسات الحديثة تثبت ذلك، وقد قيل: رضا الناس غاية لا تدرك، ورضا الله غاية لا تترك، فاترك ما لا يدرك، وأدرك ما لا يترك.

٨٩٥.فيها أن الشخصية السوية هي من تسعى لإرضاء ربها، رضي البشر أو سخطوا.

٨٩٦.تفيد: أن أعظم محادة لله هي إيذاء نبيه صلى الله عليه وسلم والتجرؤ على ذلك بالأيمان الباطلة الكاذبة" [١].

٨٩٧.تفيد: أن الأولى والاحق بالترضية هو الله ورسوله ففي كل الأمور يقدم حق الله ورسوله على جميع الحقوق والواجبات، ففي التشهد يبدأ بحق الله، ثم بحق النبي صلى الله عليه وسلم ثم بحق النفس، ثم بحق عباد الله الصالحين.

---

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:٦٣].

٨٩٨.تفيد: أن مخالفة الرسول مخالفة لله تعالى.

٨٩٩.تفيد: أن معصية أوامر الله تعالى ورسوله من كبائر الذنوب.

٩٠٠.تفيد: دقة استعمال اللفظة القرآنية حيث استعمال لفظ ﴿يُحَادِدِ﴾ في جانب المنافقين، واستعمال لفظ(يشاقق) في جانب الكفار؛ لأن المشاققة أن يكون كل من الفريقين في شق غير شق الآخر ففيه معنى البعد، أما المحادة فليس فيها هذا المعنى، إذ المتحادان يفصل أحدهما عن الآخر حد، وهكذا المنافقون، يدّعون الإسلام بألسنتهم فتجري عليهم أحكامه الظاهرة، وليس الكافرون كذلك..

٩٠١.فيها: التحذير من معادات الله ورسوله؛ ومن صور ذلك: الاستهزاء ومحاربة الدين وأذية النبي في حياته أو بعد مماته – صلى الله عليه وسلم..

٩٠٢.فيها أن محاداة الله ورسوله توجب الكفر والخلود في نار جهنم.

٩٠٣.فيها أن المنافق نفاقا أكبر مآله الخلود في النار.

قال تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:٦٤].

٩٠٤.تفيد كمال علمه تعالى بما يكنه المنافقون في قلوبهم ودورهم.

٩٠٥.تفيد أن كفر المنافقين كفر جحود.

٩٠٦.تفيد أن القرآن الكريم هتك كل ستر للمنافقين ببيان كامل صفاتهم.

٩٠٧.تفيد سوء ما في قلوب المنافقين من الحسد والبغضاء والعداء للمؤمنين.

٩٠٨.تفيد تهديدا للمنافقين ووعدا عظيما للمؤمنين من خلال قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ حيث بين لهم أنه مُظْهِرٌ ما تُسِرُّونَ. وأنه: ناصِرٌ مَن تَخْذُلُونَ..

٩٠٩. دلت الآية أن سلاح مواجهة المنافقين هو فضحهم وكشف دسائسهم وما يكيدونه للمؤمنين.

٩١٠. دلت الآية على أن حرب المنافقين على المؤمنين هي حرب تولاها الله فهي حرب مع الله، ولا يخفى أنه نتائجها.

٩١١. تفيد: أن استهزاء المنافقين بنزول ما يفضحهم كفر صريح كما قال تعالى ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة:٦٥].

٩١٢. تفيد إطلاع الله على خطرات القلوب فهو يعلم ما في الصدور.

٩١٣. تفيد من جهة الصناعة اللغوية أن عدم ذكر معمول ما في القلوب يدل على كثرة ما يحملونه في قلوبهم من الصفات الخبيثة من كفر وحقد ومكر ضد المؤمنين.

٩١٤. الحذر لدى المنافقين يدل على امتلاء قلوبهم رعبا من تنزل الآيات التي تفضحهم.

٩١٥. تدل: الآية على النزول المتدرج شيئا فشيئا، والمستمر في النزول فكلما اكنوا في قلوبهم شيئا نزل من القرآن ما يعريهم ويفضحهم.

٩١٦. تفيد من جهة المعنى اللغوي أن السورة في أصل اللغة الإحاطة بالشيء وكان الآيات التي تنزل تحيط بكل خباياهم ونياتهم اللآتي اضمروها لكيد المسلمين.

٩١٧. يدل إبراز لفظ الجلالة على القدرة العظيمة على الإخراج لما في القلوب لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله وحده.

٩١٨. يفيد: ختم الآية بالفعل المضارع ﴿تَحْذَرُونَ﴾ يوحي بأن المعركة مع المنافقين مفتوحة ومستمرة وأن الله لهم بالمرصاد.

٩١٩.تفيد الضمائر: في قوله: ﴿عليهم﴾ و﴿تنبئهم﴾ للمؤمنين، وفي قوله: ﴿في قلوبهم﴾ للمنافقين، ويجوز أيضا أن تكون الضمائر كلها للمنافقين[١]، وهذا يدل على سعة معاني القرآن الكريم بلاغته.

٩٢٠.تفيد أن من ابتلي بمرض النفاق فعليه أن يتغلب على خوفه وحذره من سماع القرآن الكريم وقراءته قراءة تدبريه مع الاستمرار عليها؛ فإن في ذلك شفاء لجميع أمراضه، بل وسيرى بأم عينيه كيف أن سور القرآن وآياته إذا نزلت على قلبه ونطق بها لسانه تنبئه وتشخص له حقيقة مرضه وتعطيه وتمنحه العلاج الناجع والدواء الناجح.

٩٢١.تفيد أن من طبيعة الإنسان غير السوي أنه يحذر ويخاف مما فيه علاجه ودواؤه؛ لقوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ ﴾ [التوبة:٦٤]

٩٢٢.فيها إثبات صفة العلو لله جل وعلا، وهي من الصفات التي تثبتت لله بالكتاب والسنة بأنواعها الثلاث، والإجماع والقياس والفطرة والنظر الصحيح.

٩٢٣.تفيد: أن من أمراض القلوب ما لا يمكن أن يكتشفه العبد إلا من خلال الرجوع إلى كتاب الله تعالى؛ لقوله: ﴿نُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾. وهل المنافقون لا يعلمون ما في قلوبهم؟ الجواب: نعم، فهناك جوانب خفية في النفس البشرية، وفي قلوب العباد لا يمكن أن تشخص حالتها وتعرف حقيقتها إلا من خلال الرجوع إلى وحي السماء؛ ﴿سُورَةٌ نُّنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾.

٩٢٤.تفيد: أن لب النفاق وخلاصته هو الاستهزاء بهذا الدين وما يتعلق به، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾ أي: استمروا في نفاقكم، وهذه الصيغة من الأمر لا يراد به الفعل بل التهديد، وهو أسلوب معروف في اللغة العربية.

٩٢٥.فيها: دليل على أن الاستهزاء بالمؤمنين من أجل إيمانهم هو استهزاء بالله وآياته ورسوله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) عُزي إلى الكشاف ولم أقف عليه.

٩٢٦. فيها: أن الكفر كما يكون بالاعتقاد فإنه يكون بالقول أيضا كما هنا.

٩٢٧. تفيد: أن من علامات المنافق، أنه يقابل الحجة بالاستهزاء واللعب.

٩٢٨. تفيد: ضرورة سؤال الأشخاص الواقعين في الجرائم وتبين حالهم قبل الحكم عليهم في جريمتهم؛ وخصوصا جريمة الاستهزاء بدين الله تعالى، والكفر به؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾؛ وفي هذا إشارة لطيفة إلى أن هذا الأمر راجع إلى إمام المسلمين أو من ينيبه ويقوم مقامه من أهل العلم والحل والعقد، وذلك بمعرفة: هل توفرت في هؤلاء جميع شروط الحكم عليهم بالكفر أو لا؟ وهل انتفت عنهم جميع موانع الحكم عليهم بالكفر أو لا؟؛ ولهذا قال تعالى في الآية التي بعدها: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾..

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة:٦٥].

٩٢٩. تفيد بدلالة المناسبة صورة عملية لاستهزاء المنافقين، فلما ذكر في الآية السابقة أن الاستهزاء من سمات المنافقين، ذكر في هذه الآية حادثة واقعية من صور استهزائهم.

٩٣٠. تفيد: أن الاستهزاء بالمؤمنين من أجل إيمانهم والمنهج الذي يحملونه، فهو استهزاء بالله وآياته ورسوله صلى الله عليه وسلم.

٩٣١. فيها تحريم الاستهزاء بالله وآياته ورسوله وأنه كفر ومن نواقض الإسلام.

٩٣٢. تفيد: أن أهل الفساد والضلال يتلاعبون في الألفاظ، ويوهمون المستمع لأقوالهم أن أمرهم لا يصل إلى مراحل الاستهزاء والسخرية من الدين، وإنما هي حديث لا يقصد معناه، بل يراد به قطع الطريق ونحو ذلك.

٩٣٣. تشير: إلى خطر اللسان، وأن به يكفر العبد ويخرج من الملة. وقد جاء في الحديث" وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالا، يهوي بها في جهنم" (١).

٩٣٤. فيها تحريم الاستهزاء بالله وآياته ورسوله وأنه كفر ومن نواقض الإسلام؛ لقوله في الآية بعدها: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾.

٩٣٥. تفيد: أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر مخرج عن الدين لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله، وتعظيم دينه ورسله، والاستهزاء بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل، ومناقض له أشد المناقضة" (٢).

قال تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾[التوبة:٦٦].

٩٣٦. تفيد غضب الله تعالى على المنافقين وعدم قبول اعتذارهم، فلما كشف الله أستارهم أردفه هنا بعدم جدوى اعتذارهم.

٩٣٧. فيها: أن الكفر الذي يضمرونه هو سبب الاستهزاء الذي يظهرونه.

٩٣٨. تفيد مع ما قبلها أن الاستهزاء بدين الله تعالى ولو بصورة المزح واللعب كفر مخرج من الملة؛ لقول المنافقين: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ فقال تعالى في هذه الآية: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾.

٩٣٩. تفيد أن العمدة في الإيمان هو تعظيم الله تعالى، وتعظيم شعائره، ومحال أن يجتمع في قلب العبد بين تعظيم الله تعالى والاستهزاء والاستخفاف به وبشعائره.

٩٤٠. يفيد إسناد الإيمان إلى ضمير المنافقين؛ دون قوله مثلا (قد كفرتم بعد الإيمان) المفيدة للحقيقة؛ تعريضا بأن إيمانهم ليس إيمانا صادقا ولا حقيقيا، بل هو إيمان صوري وظاهري كما

---

(١) أخرجه البخاري ١٠١/٨.

(٢) تفسير السعدي ٣٤٢/١.

قد عرف عنهم وكما هي عادتهم؛ ونظير هذه العبارة قوله تعالى فيما سيأتي: ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾

٩٤١.فيها تأكيد اجرامهم لقوله: ﴿كَانُوا۟﴾ولأنها جاءت جملة اسمية تفيد الثبوت..

قال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة:٦٧].

٩٤٢.. تفيد مع ما قبلها أنه ينبغي التعامل مع النفاق وأهله في المجتمع المؤمن لا على أساس أنها حالات فردية يتسم بها بعض الأشخاص؛ بل على أنها فكر وتوجه لجماعة وطائفة تجمعهم مصالح مشتركة، ولديهم أجندات معينة لخلخلة المجتمع حيث تتضافر جهودهم فيما بينهم ويتعاونون من أجل التخطيط والتنفيذ والإنتاج سواء من خارج البيوت ومن داخلها، وتكمن خطورتهم إذا علمنا أن من ضمن هذه الفئة والجماعة العنصر النسوي (المنافقات)؛ ولا جرم أن الله عز وجل ذكرهن في هذا السياق لكونهن العنصر الثاني والفاعل في هذه الفئة، وتشكل نسبة خطورة لا تقل عن العنصر الأول، فهي الموفرة للحاضنة والمأوى والمهيئة للأجواء المناسبة، كما أنها المنتجة والمخرجة للمزيد من النفوس القابلة للتشويه الفكري والاختلال العقلي.

٩٤٣.أهل النفاق تتوافق أفكارهم وتتحد طبائعهم وتتفق توجهاتهم ومقاصدهم أفاده ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ﴾.

٩٤٤.انتكاس الفطر وفساد الطباع من صفات أهل النفاق فصار المعروف منكرا ينهون عنه وصار المنكر معروفا يأمرون به.

٩٤٥.عدل الله تعالى مع المخالفين لأمره المتمردين على شرعه ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ﴾ ولو ذكروه وخافوه واقبلوا عليه لقبلهم وتقبل منهم.

٩٤٦.تفيد أن الجزاء من جنس العمل، فكما نسي المنافقين الله-وهذا ديدنهم في كل عصر- ونسيانه سبحانه للعبد إهماله ونتره وتخليه عنه وضاعته.

٩٤٧.فيها: أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومكانته العظمى في الإســـلام، لأنه نص عليه دون غيره من قبائح المنافقين وأعمالهم، لخطره وأهميته.

٩٤٨.تفيد: أن للعبد إرادة وكسبا واختيارا. وأن الكافر، كفر مختارا ورضي بالكفر وسعى إليه، وآثره على الإيمان.

٩٤٩.تفيد قلة ذكر المنافق لله تعالى.

٩٥٠.تفيد أن الجزاء من جنس العمل.

٩٥١.فيها: بخل المنافقين، وأن من صفاتهم، قبض أيديهم، وأنهم يأمرون بعدم الإنفاق في سبيل الله.

٩٥٢.فيها: حصر الفسق فيهم، لأن فسقهم أعظم من فسق غيرهم، بدليل أن عذابهم أشد من عذاب غيرهم، وأن المؤمنين قد ابتلوا بهم، إذ كانوا بين أظهرهم، والاحتراز منهم شديد..

٩٥٣.المنافقون محتسبون في طريق الخطأ.

٩٥٤.تفيد أن النفاق فسق وخروج عن الهدى المستقيم.

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة:٦٨].

٩٥٥.تفيد بدلالة المناسبة مصير المنافقين، لأنه لما بين سبحانه نسيه لهم بسبب تركهم لطاعته، بين هنا مصيرهم وأكد هنا أنهم والكفار سواء.

٩٥٦.فيها: أن أهل النفاق أشـــد خطرا من الكفار، فالكفار معروف منهجهم ولكن أهل النفاق لهم أســـاليب كثيرة خفية، والقرآن تحدث عن أهل النفاق أكثر من غيرهم توضـــيحا لمثالبهم.

٩٥٧.فيها: التهويل من شأن النار وعِظَمِ عَذابِها، وأنَّهُ بِحَيْثُ لا يُزادُ عَلَيْهِ.

٩٥٨.فيها: قوله ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ ذكر اسمه سبحانه فيه اظهار بشدة سخطه عليهم. والله أعلم.

٩٥٩.فيها: إطلاق لفظ الوعد على الوعيد.

٩٦٠.تفيد هول العذاب وعظيم العقاب في نار جهنم – أجارنا الله منها –، وأن عذابها قد بلغ الغاية في النكاية والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ﴾ اي: فيها ما يكفيهم من العقوبة والجزاء مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى..

٩٦١.فقد حملت هذه الآية أشد وعيد لأهل النفاق والكفر.

٩٦٢.فيها التحذير من النفاق وأنه من أسباب اللعنة والعذاب المقيم.

٩٦٣.فيها: التأكيد على بقائهم في النار وعدم خروجهم منها؛ لقوله – بعد ذكر الخلود واللعن –: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾.

٩٦٤.تفيد أن أهل النفاق مخلدون برفقة ومعية أهل الكفر في نار جهنم، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠].

٩٦٥.فيها دَلِيلٌ عَلى ﴿وَعَدَ﴾ تأتي في الشَّرِّ كما يُقالُ في الخَيْرِ.

قال تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [التوبة:٦٩].

٩٦٦.فيها بدلالة المناسبة مصيرهم؛ لأنه لما بين سبحانه إقبالهم على الفانية وترك الباقية، ختم هنا ببيان سوء حالهم ومآلهم.

٩٦٧.فيها: نعيم الدنيا وسعاداتها وقتية مهما كانت في الحلال أو الحرام، فالسعادة الباقية والنعيم الأبدي في الآخرة للمؤمنين، فلو كانت الآخرة من خزف باق، والدنيا من ذهب فانٍ،

لما اختار العاقل إلا الخزف الباقي على الذهب الفاني، كيف وأن الآخرة من ذهب باق، والدنيا من خزف فان!

٩٦٨. فيها: من تشبه بقوم فهو منهم، وهنا أتى الذم بالتشبه بأهل الشر.

٩٦٩. فيها: الدخول على القلب من طريقين: الشبهات والشهوات، فالأول يأتي من عدم وضوح الدليل والثاني يأتي من عدم الخوف من الله.

٩٧٠. يفيد توجيه الكلام والتفات الخطاب من ضمير الغائب إلى ضمير المخاطب إشارة إلى تحذير كل مكلف من هذه الأمة من مثل هذه الحال، لصحة أن يكون مرادا بهذا المقال؛ فإن من أسرار إعجاز القرآن الكريم في خطابه أن تكون عبارته متوجهة إلى شيء، وإشارته شاملة لغيره من حيث اتصافه بعلة ذلك الحال..

٩٧١. فيها: أن الكفار قديما وحديثا، تشابهت قلوبهم، كما نطقت بذلك الآيات في سورة البقرة وغيرها.

٩٧٢. فيها الاتعاظ والاعتبار بأخبار الغابرين، فالسعيد من وعظ بغيره والعاقل من استفاد من أخبار من مضى وأخذ العبرة.

٩٧٣. فيها أن المنزلة عند الله تعالى ليست بالقوة والأموال والأولاد وإنما بالأيمان ولتقوى والطاعات؛ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ [سبأ:٣٧].

٩٧٤. تفيد أن من طبيعة النفس البشرية أن تطلب المزيد من متع الحياة الدنيا، فتفارق هذه الحياة وهي يطلب المزيد والمزيد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ ﴾ [التوبة:٦٩]، فأتى بصيغة الاستفعال المفيدة للطلب والاستزادة؛ دون التفعل.

٩٧٥. تفيد ضرورة الاعتبار والنظر في أحوال الأمم السابقة، ومعرفة أن دورة التاريخ وأحوال أصحاب القرون الهالكة تتكرر بصورة أو بأخرى في هذه الأمة، حتى إنه ليرى المتأمل والقارئ للقرآن الكريم أن ما يذكره القرآن الكريم من قصص وأحوال أهل القرون الماضية ينطبق تمام الانطباق على أصناف هذه الأمة؛ من هداتها وضلالها، ومن منافقيها وكفارها، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: (لتركبن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع" [(١)].

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة:٧٠].

٩٧٦. تفيد بدلالة المناسبة سنة الله تعالى ماضية في القرون، فلما شبه سبحانه المنافقين بالكافرين في تكالبهم على الدنيا نص هنا على أن لهم سلف في ذلك في سالف القرون.

٩٧٧. فيها أهمية النظر في تاريخ من غبر في باب التعامل مع الرسل والرسالات لأن الحاضر امتداد للماضي ومتأثر به.

٩٧٨. فيها أهمية توظيف حوادث التاريخ في تجلية حقائق النبوات وأباطيل أعدائها.

٩٧٩. تفيد: أنه قد أتى المنافقين وبلغهم أنباء قوم نوح وعاد... إلخ؛ لأن الاستفهام، تقريري، والاستفهام التقريري كما يعرفه البلاغيون، أنك تريد من مخاطبك أن يقر به.

٩٨٠. يفيد قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ [التوبة:٧٠] تنزيه له سبحانه عن الظلم.

٩٨١. فيها: معصية الرسل وعدم سلوك طريقهم سبب الهلاك.

٩٨٢. تفيد: بيان منة الله تعالى على الأمم السابقة، حيث أرسل إليهم رسله مبشرين ومنذرين، بالدلائل البينات الواضحات، وأيدهم بالآيات البينات التي تدل على صحة رسالتهم لقوله تعالى: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ ﴾ [التوبة:٧٠].

---

(١) أخرجه البخاري ٤/١٦٩، ومسلم ٤/٢٠٥٤.

٩٨٣. تفيد: أن الله سبحانه وتعالى أقام الحجة على العباد من خلال إرسال الرسل بالبينات؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

٩٨٤. تفيد أن من لم تبلغه الرسالة السماوية فهو معذور، لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وذلك لإقامة الحجة عليهم، والنصوص في هذا السياق كثيرة جدا، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، وهذه الحجة بينها في سورة طه في قوله جل وعلا: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى﴾ [طه:١٣٤].

٩٨٥. تفيد بإشارة إلى محبة الله عز وجل للإعذار وإقامة الحجة، حيث جعل مع كل رسول آية بينة يؤمن على مثلها البشر، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (لا شخص أحبُّ إليه العذر من الله؛ من أجل ذلك بعث الله المرسلين مبشرين ومنذرين" [(١)]..

٩٨٦. تفيد أن كثيرا من الأمم والقرون الماضية لم يهتدوا بعد كل هذا البيان وهذه الآيات البينات من رسل الله الكرام، فهم كانوا بعد كل هذا ظالمين ومسرفين ومتجاوزين حدود الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

٩٨٧. تفيد الوعيد الشديد والتحذير الأكيد من تعريض الإنسان بظلمه لنفسه الى عذاب الله تعالى وعقوبته؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: بإهلاكهم وتعذيبهم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾..

٩٨٨. فيها: بيان عظم وكثرة ظلم هؤلاء لأنفسهم؛ لأمور:

منها: وصف ما جاءت به الرسل بالبينات.

ومنها: التعبير عن الظلم بصيغة المضارعة.

فالأول: للدلالة على وضوحها وأنها حق فلا عذر لهم قط في التكذيب بها.

---

(١) أخرجه البخاري ٩/١٢٣ومسلم ٢/١١٣٦.

والثاني: للدلالة على ملازمة التكرير وعدم الإقلاع والكف حتى في أشد وأصعب أحوالهم؛ ألا تراه يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون:٧٦]..

٩٨٩.تفيد أنه ينبغي مخاطبة الناس بما يعقلون؛ وضرب الأمثال لهم بما يفهمون؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١].

٩٩٠.تفيد، وبضميمة ما سبق: أن القرآن مثاني؛ يثنى فيه صفات المؤمنين والكفار والمنافقين ويثنى فيه ذكر الجنة والنار؛ فكما أخبر أن الجنة وما أعد فيها ورضوانه هو الفوز العظيم، أخبر هنا أن جهنم "وبئس المصير". ومن أفضل من تتناول هذه الآيات وبيَّن المقابلة بين هذه الطوائف الثلاث شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله في الإفضاء فأفادت الآيات أن القرآن مثاني من عدة محاور، بين المؤمنين من جهة والمنافقين والكافرين من الجهة الأخرى وإليك بيان ذلك:

٩٩١.وصف الله سبحانه المنافقين بأن ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ﴾، وقال في المؤمنين: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾.

٩٩٢.وقال سبحانه في صفة المنافقين: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وبإزائه في صفة المؤمنين: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

٩٩٣.وقال سبحان في المنافقين ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ﴾، وقال في وصف المؤمنين ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وقد يدخل فيها كل ذكر الله: إما لفظا وإما معنى.

٩٩٤.وقال سبحانه في شأن المنافقين ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ﴾ وقال في وصف المؤمنين ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٩٩٥.ثم ذكر ما وعد الله به المنافقين والكفار: من النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ومن اللعنة، ومن العذاب المقيم وبإزائه ما وعد المؤمنين: من الجنة والرضوان، ومن الرحمة قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ (١).

٩٩٦.فيها قاعدة عقدية كبرى هي عقيدة الولاء والبراء فالمؤمن يوالي أخيه المؤمن، وإن تناءت بهم الديار وتباعد الزمان، وهي من ركائز التوحيد وأسسه.

٩٩٧.اشتملت الآية الكريمة على مقدمة ونتيجة؛ واشتملت المقدمة على أربع جمل؛ كل جملة تصف حالا من أحوال المؤمنين والمؤمنات؛ فإذا تحقق المؤمنون، والمؤمنات بحقيقة تلكم الأحوال كانت النتيجة حصولهم على رحمة الله التامة؛ وقد ينقص حظ بعضهم من تلكم الرحمة بحسب نقصان إقباله على تلكم الحوال الشريفة، والكمالات المنيفة؛ كما خُتمت الآية الكريمة بالإعلام بعزة الله وحكمته؛ فمن أقبل على الله أقبل الله عليه بحسبه؛ ومن أعرض أعرض الله عنه لعزته.

٩٩٨.تفيد: من أخص صفات المؤمنين، أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. والاهتمام بذلك يكون على قدر الإيمان، فهي تبين عظم شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد قدمها في هذه الآية على الصلاة وقدمها في آية أخرى على الإيمان؛ كما في قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران: ١١٠]..

٩٩٩.تفيد: أن اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين، أي مناصرتهم ومظاهرتهم ومعاونتهم على أهل الإسلام كفر.

١٠٠٠. تفيد مع ما قبلها أن الروابط التي تربط بين المؤمنين والمؤمنات أقوى وأمتن وأشد مما بين المنافقين والمنافقات؛ لقوله تعالى: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾ ويشهد لهذا قول النبي صلى الله عليه وسلم: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو

(١) ينظر: اقتضاء الصراط المستقيم بصرف ١/١٢٠.

تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" [1] فإن المؤمن يحب المؤمن، وينصره بظهر الغيب، وإن تناءت بهم الديار وتباعد الزمان، أما المنافقين فقد قال الله فيهم: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾، فليست قلوبهم متوادة متوالية إلا ما دام الغرض الذي يؤمونه مشتركا بينهم، ثم يتخلى بعضهم عن بعض"[2].

١٠٠١. تفيد أن للمؤمنين والمؤمنات صفات ينبغي لهم العمل على تحققها في حياتهم من أعظمها الولاء والنصرة والمحبة لبعضهم.

١٠٠٢. تفيد أن قيام المؤمنين بهذه الصفات (الولاء لبعضهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله) من أعظم أسباب نيل رحمة الله تعالى.

١٠٠٣. إتيان الأفعال بصيغة المضارع تدل على الاستمرار والدوام على هذه الخصال الحميدة، فهي منهج حياة لهم حتى يلقوا ربهم.

١٠٠٤. الإشارة إليهم بإشارة البعيد "أولئك" تدل على علو مكانتهم وسمو منزلتهم عند ربهم جل وعلا.

١٠٠٥. فيها إثبات صفة الرحمة والرد على المعطلة؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:٧٢].

١٠٠٦. في الآية تشويق وتحفيز للمؤمن على عمل الخير والاجتهاد للوصول والحصول على الجنات التي يعجز عن وصفها الواصفون وأكبر من ذلك رضوان ألله تعالى، فإن رضا الله أعظم وأفضل من نعيم الجنة.

---

(١) أخرجه البخاري٨/١٠، ومسلم ١٩٩٩/٤.

(٢) ينظر اقتضاء الصراط المستقيم ١/١٠٥.

١٠٠٧. فيها: مساواة الرجال والنساء في ولاية الإيمان، وما يترتب عليه من النعيم الأبدي في الآخرة.

١٠٠٨. يفهم منها: أن المسكن الطيب، نعمة من الله يجب شكرها.

١٠٠٩. فيها: عظيم رضا الله عز وجل وأنه أفضل وأجل من كل نعيم في الجنة.

١٠١٠. تفيد إتمام نعمة الله على المؤمنين فلما كانَ النَّعِيمُ لا يَكْمُلُ إلّا بِالدَّوامِ، قالَ: ﴿خالِدِينَ فِيها﴾[١].

١٠١١. تفيد: أن الفوز العظيم، الفوز بالجنة وبهذا الوعد الذي لا يخلف. وفيه هذا: تسلية للفقير ومن فاتته الدنيا.

١٠١٢. فيها إثبات صفة الرضوان لربنا الرحمن، وهي من الصفات الفعلية المتعلقة بالمشيئة التي متى ما شاء اتصف بها جل وعلا.

١٠١٣. فيها عظم هذا الجزاء والنعيم ورفعة قدره للإشارة إليه بإشارة البعيد، وحصر الفوز فيه بضمير الفصل فلا فوز أعظم منه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣].

١٠١٤. وجوب جهاد المنافقين، ولا يقل ابدا عن جهاد الكافرين بل مساو له تماما، وذلك لخطورة النفاق على الإسلام وأهله.

١٠١٥. جهاد المنافقين إنما يكون بالحجة والبيان وهذا جهاد الخاصة جهاد العلماء ورثة الأنبياء. أما جهاد الكفار فهو بالحجة والبيان كالمنافقين وبالسيف والسنان؛ ولذلك لم يجاهد النبي صلى الله عليه وسلم المنافقين بالسيف لأنهم يظهرون الإسلام.

---

(١) نظم الدرر ٣/٣٥٩.

١٠١٦. تفيد: أهمية تنويع أساليب الدعوة مع المدعوين، وخصوصا المنافقين والكفار، واستخدام الوسائل الدعوية المناسبة لهم من أجل الوصول إلى الهدف والغاية المقصودة من جهادهم.

١٠١٧. تفيد أن أسلوب الشدة والغلظة يتناسب مع بعض فئات المدعوين ممن لا يكفي معهم أسلوب النصح والموعظة والتوجيه والجدال بالتي هي أحسن، ولقد جاء تنويع الأساليب في السنة في مواضع، وهي موافقة تماما للحكم وبحسب حال المدعويين.

١٠١٨. تفيد أن الأصل في النبي صلى الله عليه وسلم الرحمة ولَمّا كانَ ﷺ مَطْبُوعًا عَلى الرِّفْقِ مُوصًى بِهِ، قالَ تَعالى: ﴿واغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (١).

١٠١٩. فيها: وجوب الغلظة على الكافرين والمنافقين عند جهادهم؛ لأن الأمر للوجوب. ولأنه الأليق بحال الجهاد.

١٠٢٠. فيها: تخويف للكافرين والمنافقين بما ينتظرهم في الآخرة، وإعلامهم أن الأمر لم ينته بمقتلهم؛ لقوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

١٠٢١. فيها التحذير والتخويف من النار وأن الكفر والنفاق هو أعظم أسباب دخولها.

١٠٢٢. تفيد أن مجاهدة الكفار والمنافقين من خصائص اتباع الأنبياء.

قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة:٧٤].

١٠٢٣. من سمات المنافقين كثرة الحلف؛ لأن الكذب ديدنهم ويعرفون أن الناس يعلمون أنهم يكذبون، فيحاولون تغطية هذا الكذب بكثرة الحلف، ولذا قال تعالى عنهم ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المجادلة:١٦].

---

(١) ينظر نظم الدرر للبقاعي ٣/٣٦٠.

١٠٢٤. فيها: فضل الله عز وجل، وواسع رحمته، وكريم عفوه، بأن فتح لأولئك القوم باب التوبة مما هم فيه من الكفر والنفاق، فيها عظيم حلم الله تعالى وجميل عفوه فمع هذا الإجرام يفتح لهم تعالى باب الأوبة: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ﴾ فعلى الدعاة فتح باب الأوبة للمخالفين لهم وتسهيل سبل العودة والإنابة.

١٠٢٥. بيان ما كان عليه أهل النفاق من سوء الأخلاق وخبث الأقوال وذميم الصفات.

١٠٢٦. فيها فضح الله عز وجل للمنافقين بما تآمروا به من عمل خبيث وهو قتل النبي صلى الله عليه وسلم فخيب الله سعيهم وأبطل كيدهم.

١٠٢٧. فيها أنه كما يكون الكفر بالاعتقاد، فإنه يكون بالعمل ويكون باللسان ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾.

١٠٢٨. فيها استهانة المنافقين باسم الله العظيم؛ لذا يحلفون به وهم كاذبون.

١٠٢٩. فيها أن النفاق يضعف ثقة الإنسان بنفسه.

١٠٣٠. فيها لؤم المنافقين وخبث طويتهم فبدلا من شكرهم لله ولرسوله وطاعة الله ورسوله على ما أولاهم من النعم إلا أنهم كفروا ذلك، وقابلوه بالجحود والنكران ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾.

١٠٣١. فيها أن عذاب الله تعالى قد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة وقد يكون في الدارين كما توعد الله به المنافقين هنا.

١٠٣٢. فيها أن الكلمة تطلق ويراد بها الكلام كما قال ابن مالك: وكلمة بها كلام قد يؤم.

١٠٣٣. فيها مراقبة الله تعالى لخلقه ورصد ما يقولونه ويفعلونه.

١٠٣٤. فيها أن القول القبيح لا يصرح به وإن اقتضى الأمر ذلك عبر عنه بلفظ عام ﴿كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾، مع أن الله قد صرح به في بعض المواضع ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ [المنافقون:٨].

١٠٣٥. فيها أن الإنسان يعاقب على العزم الجازم.

١٠٣٦. تفيد قمة البلاغة القرآنية وروعة الفصاحة البيانية؛ حيث أُكِّد الكلام بما يشبه خلافه؛ أو بعبارة البلاغيين: تأكيد المدح بما يشبه الذم؛ ونكتته أن المتكلم يظهر كأنه يبحث عن شيء ينقض حكمه الخبري ونحوه، فيذكر شيئا هو من مؤكدات الحكم؛ للإشارة إلى أنه استقصى فلم يجد ما ينقضه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾، قال ابن عاشور: (وإنما أغناهم الله ورسوله بما جلبه حلول النبي - عليه الصلاة والسلام - بينهم من أسباب الرزق، بكثرة عمل المهاجرين، وبوفرة الغنائم في الغزوات، وبالأمن الذي أدخله الإسلام فيهم؛ إذ جعل المؤمنين إخوة فانتفت الضغائن بينهم والثارات) [1]..

١٠٣٧. فيها حماية الله تعالى لأوليائه وحفظه لهم ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ﴾.

١٠٣٨. قوله تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ فيها أن البشر عند الله زمرتان لا ثالث لهما.

١٠٣٩. تفيد أهمية معرفة أسباب النزول وضرورة الاطلاع على السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم؛ وذلك لتفسير وفهم سياق القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ أي: ما قالوا ذلك القول أو تلك الأقوال الشنيعة التي نسبت إليهم؛ أو التي اتهموا بها. وقد ذكرت كتب السير والآثار عددا من الأقوال الشنيعة المنسوبة إليهم، ولهذا جمعت العبارة القرآنية الحالفين والقائلين؛ لتعدد المواقف والأشخاص والأقوال..

١٠٤٠. تفيد أنه لا يجوز أن يكفّر المسلم بمجرد القول والنطق بكلمة الكفر؛ إلا إذا اكتملت الشروط وانتفت الموانع؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾، ووجه ذلك أنه لم يأت بفاء التعقيب ولم يقل: (فكفروا بعد إسلامهم)، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿مَن

(١) التحرير والتنوير ١٠/٢٧٠.

﴿كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل:١٠٦]. وقوله عليه الصلاة والسلام في حكاية الرجل الذي قال: "اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح"(١).

١٠٤١. تفيد أن الفضل كله من عند الله، وراجع إليه سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾، ولم يقل: (من فضلهما) بالرغم من مكانة النبي صلى الله عليه وسلم وعظيم قدره عند ربه. وعليه؛ فإنه ينبغي للعبد أن يطلب الفضل من الله تعالى، فهو سبحانه وتعالى ذو الفضل العظيم.

١٠٤٢. فيها أن الحلف لا يكون إلا بالله عز وجل؛ وجه ذلك أن المنافقين يريدون خداع المسلمين فيحلفون لهم بالله لأنهم يعلمون أن المسلم لا يحلف إلا بالله عز وجل.

١٠٤٣. فيها أن المنافق إذا أظهر الكفر عوقب، وأقيم عليه الحد؛ لأن الله عز وجل توعدهم بالعذاب الأليم في الدنيا ومنه القتل.

١٠٤٤. فيها فضل التوبة وأنها خير عظيم لتنكيره ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ﴾.

١٠٤٥. تفيد أن على الداعية أن يحسن الظن بالمدعوين مهما عظم جرمهم واشتد ظلمهم، وألا ييأس من رجوعهم إلى الحق والفضيلة، لقوله تعالى – مقدما خيار التوبة والأوبة لهؤلاء المنافقين– ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ﴾، ما أعظم حلم الله ورحمته وعفوه.

١٠٤٦. تفيد أنه ينبغي للناصح والمربي والداعية أن يقدم دائما الصورة الأجمل في العيون، والعبارة الألطف في الآذان؛ فإن لذلك أسرا في القلوب، وأثرا في النفوس؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾، ولا شك أنه كان لهذا

(١) أخرجه مسلم ٤/٢١٠٤.

الأســـلوب أثره العميق فيمن قيل: إنها نزلت فيه؛ وهو الجلاس بن ســـويد، حيث تاب إلى الله تعالى وحسن إسلامه، وتعمق الإيمان في قلبه.

١٠٤٧. تفيد أن من أعظم أنواع العذاب أن يجمع الله لمن عصاه بين عذاب الدنيا والآخرة..

١٠٤٨. فيها أن الولاية والنصرة من الله عز وجل وحده.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[التوبة:٧٥-٧٦].

١٠٤٩. فيها: لما ذكر ســـبحانه أنه أغناهم من فضـــله اتبعها هنا بإقامة الدليل عليهم أنهم يقبضون أيديهم ويجترئون على الكذب.

١٠٥٠. فيها: أن من صـــفات المنافقين أن البخل وعدم الوفاء بالعهد متأصـــل في طباعهم، ملازم لهم.

١٠٥١. فيها: أن إخلاف الوعد والكذب من صفات المنافقين.

١٠٥٢. تشـــير إلى: خطر النذر والبعد عنه؛ لكن إن وقع يجب الوفاء به، وهذا في النذر المشروط، أي يجعل النذر بمقابل كما فعل هؤلاء فيقول مثلا: لله علي نذر إن شفى الله مريضي صليت كذا أو تصدقت بكذا، فهذا هو النذر المكروه، أما النذر المطلق فهو من أفضل الأعمال وأثنى الله تعالى على الموفين به، وهذا هو قول المحققين وبه تجتمع الأدلة والله أعلم.

١٠٥٣. وفيه سوء ظن منهم بالله فلو سألوه سبحانه الرزق دون شرط كان الله واسعا رحيما فضيقوا واسعا وتحملوا تبعة الشرط.

١٠٥٤. تشير إلى أهمية الصدقة، وأنها من أفضل أعمال الصالحين وهي من الشكر على نعم الله عز وجل.

١٠٥٥. فيها بيان أن المنافقين في وقت فقرهم وعســـرهم وفي حال الرجاء والطمع يكونوا على حال يختلف عنه إذا تبدلت أحوالهم وتحسنت أمورهم فينسون العهد ويتنكرون للوعد.

١٠٥٦. فيها أن الأنفاق في وجوه الخير وبذل المال لأصحاب الحاجات إنما يكون ممن قوي إيمانه، وتيقن بخلف الله له وهذا مما يفتقده أولئك القوم فلهذا كان منهم البخل والشح.

١٠٥٧. تفيد أن المعطي والمانع حقيقة هو الله تعالى.

١٠٥٨. أعظم عهد ينبغي رعايته العهد مع الله تعالى.

١٠٥٩. تفيد أن العطاء من الله تعالى لعبده نوع ابتلاء فلينتبه صاحب النعمة.

١٠٦٠. تفيد أن النعمة التي لا تقربك من المنعم لا خير فيها.

قال تعالى: ﴿ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴾ [التوبة:٧٧].

١٠٦١. تدل الآية: أن نقض العهد، وخلف الوعد، يورثان النفاق.

١٠٦٢. تفيد أن الله عز وجل يعطي فضله من الدنيا من يحب ومن لم يحب، ولا يعطي فضله من الآخرة إلا من يحب.

١٠٦٣. تفيد: قلة أدب المنافقين وجهلهم بالله تعالى وبأسمائه وصفاته، حيث عاهدوا الله تعالى بضمير الغائب، وهو معهم، يعلم سرهم ونجواهم، وهو علام الغيوب سبحانه وتعالى؛ مما يدل على سوء أدبهم مع الله تعالى وأنهم لا يتلذذون بمناجاته، ولا يعيشون جو الأنس وحلاوة الحديث معه سبحانه وتعالى؛ حيث قالوا سفاهة وحمقا: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ﴾، ولم يقولوا مثلا: (ربنا لئن آتيتنا من فضلك العظيم...). ولهذا قال تعالى ذما لهم عقب هذه الآيات: ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾.

١٠٦٤. تفيد بيان لؤم المنافقين وأن من عادتهم نكران الجميل؛ وعدم نسبة الفضل إلى صاحبه الحقيقي وهو الله تعالى؛ والمتسبب له فيه وهو المخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ

بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [التوبة:٧٦] أي: تولوا عن الخالق والمخلوق دون شكرهم، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (من لا يشكر الناس لا يشكر الله"[١]. وصدق الشاعر حين قال:

١٠٦٥. إذا أنت أكرمت الكريم ملكته.... وإن انت أكرمت اللئيم تمردا

١٠٦٦. تفيد تعليما لقيمة الصبر وأهمية التعامل مع الآخر بمبدأ حسن النوايا حتى يظهر العكس حقيقة على الواقع؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾، ووجه ذلك: أنه سبحانه وتعالى مع علمه بكذبهم في العهد؛ آتاهم من فضله، وذلك لتظهر حقيقتهم على الواقع، وليقيم عليهم الحجة بعد ذلك، ولهذا عبر سبحانه وتعالى بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾.

١٠٦٧. تفيد أن السيئة والمعصية إذا لم يقلع منها العبد سريعا، ولم يتب منها فورا، جلبت ما هو أشد منها، وأورثت ما هو أعظم منها؛ لقوله تعالى: ﴿ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ ﴾.

١٠٦٨. تفيد أن للمعصية شؤما على صاحبها، وظلمة في قلبه، وضيقا في صدره.

١٠٦٩. فيها دلالة على وجوب الحذر من إحداث الأفعال الذميمة فإنها تفسد الأخلاق الصالحة ويزداد الفساد تمكنا من النفس بطبيعة التولد الذي هو ناموس الوجود.)[٢].

١٠٧٠. تفيد أن اعتياد المعاصي واستمراءها والاستمرار عليها دون التوبة منها تقود صاحبها إلى سوء الخاتمة، –والعياذ بالله– لقوله تعالى: ﴿ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ ﴾.

قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ [التوبة:٧٨].

١٠٧١. فيها تعظيم الرب جل وعلا بوصفه بأنه علام الغيوب، وهي من أعظم صفات الله عز وجل وقد ذكر الله تعالى انفراده بها في آيات كثيرة.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٩٩/١، وصححه الألباني.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٢٧٣/١٠.

١٠٧٢. تفيد أنهم في قرارة أنفسهم يعلمون أن الله مطلع على سرائرهم فهم مضطربون وجلون خائفون.

١٠٧٣. تفيد: أن فائِدَةُ الإعْطاءِ مَعَ عِلْمِهِ بِالخِيانَةِ إقامَةُ الحُجَّةِ" (١).

١٠٧٤. تفيد أن النكتة من عطف النَّجْوى عَلى السِّرِّ مَعَ أنَّهُ أعَمُّ مِنها، لِيُنْبِئَهم بِاطِّلاعِهِ عَلى ما يَتَناجَوْنَ بِهِ مِنَ الكَيْدِ والطَّعْنِ" (٢).

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:٧٩].

١٠٧٥. تفيد مع ما قبلها أن من لم يسلم منه رموز الإسلام وقادته فلن يسلم منه أفراد المسلمين؛ لقوله تعالى فيما سبق: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾وقال ههنا: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾

١٠٧٦. تفيد أن (رضا الناس غاية لا تدرك)، وأن بعض الفئات من البشر يتذمرون من كل شيء، ولا يعجبهم شيء، ولا يرضيهم شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾.

١٠٧٧. تفيد أن من أصول العمل أن يكون المرء مستعدا للانتقاد من بعض الفئات التي حوله، وأن يتعلم كيف يتعامل مع انتقاداتهم التي قد تصل أحيانا إلى الدخول في النوايا والتشكيك فيها والحكم عليه من خلالها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾.

---

(١) نظم الدرر ٣/٣٦٤.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير:: ١٠/٢٧٤.

١٠٧٨. تفيد عظمة الدين الإسلامي وسماحته ورقي مبادئه وحسن مراعاته لأحوال جميع طبقات المجتمع، واهتمامه بالطبقة الأضعف من العمالة الكادحة والمهمشة في المجتمع؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾..

١٠٧٩. تفيد حرمة لمز المؤمنين؛ وأن ذلك من كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾.

١٠٨٠. تفيد ضرورة تشجيع وحث جميع طبقات المجتمع على التطوع والمشاركة في فعل الخير كل بقدر جهده وطاقته ودون تمييز بينهم، لأن المكافئ والمثيب هو الله تعالى؛ وقد قال عليه الصلاة والسلام: "سبق درهم بمائة ألف درهم" [(١)]..

١٠٨١. تفيد جواز ومشروعية إبداء الصدقات وإظهارها، وأن ذلك ليس رياء وسمعة ما دام المتصدق لم يقصد ذلك؛ ويقاس على هذا جميع أعمال الخير؛ قال تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٧١].

١٠٨٢. تفيد ضرورة حمل أقوال العباد وأعمالهم الظاهرة على أفضل المحامل، وأكمل الأحوال، وأحسن الوجوه، – ما أمكن ذلك–، وهو من خلق المؤمن ومن أنبل وأعظم مكارم الأخلاق.

١٠٨٣. تفيد أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ﴾

١٠٨٤. تفيد عناية الله تعالى بعباده المؤمنين، حيث تولى دفاعهم والرد على سخرية هؤلاء المنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ﴾.

١٠٨٥. تشير إلى: عدم كف المنافقين عن الخوض في المؤمنين؛ لقوله: ﴿يَلۡمِزُونَ﴾، فهو فعل يدل على الاستمرار.

---

(١) أخرجه ابن حبان، وحسنه الألباني، ٥/٢٤٢.

١٠٨٦. تفيد أن أفضل طريقة للمؤمن في التعامل مع سخرية بعض الفئات من البشر؛ أن يكتفي بدفاع الله تعالى عنه، وأن يدع سخريتهم لله تعالى، فإن سخرية الله تعالى من هؤلاء أعظم من رده عليهم، وعذاب الله تعالى لهم أفظع وأشد من مواجهته لهم، لقوله تعالى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وعلى المؤمن أن يمتثل ويطبق ما جاء في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩]، وقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩٦].

ولله در الشافعي حيث يقول:

يخاطبني السفيه بكل قبح ... فأكره أن أكون له مجيبا

يزيد سفاهة فأزيد حلما ... كعود زاده الإحراق طيبا

قال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:٨٠].

١٠٨٧. الاستغفار أمان من العذاب ولكنه لا ينفع الكافر.

١٠٨٨. فيها فضل الاستغفار وأنه سبب لمغفرة الذنوب، لكن وجد المانع هنا وهو النفاق والكفر.

١٠٨٩. فيها أن الفسق من موانع الهداية.

١٠٩٠. ترشد إلى: التحذير من الإصرار والموت على الكفر؛ لأنهم لو أقلعوا، لنفعهم دعاء النبي ولغفر لهم الله.

١٠٩١. تفيد: أن الشفاعة، لا تقبل في كافر؛ مهما عظم قدر الشافع.

١٠٩٢. فيها: دليل على خطر الكفر، وشدة الحسرة. وقول الله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدَّثر:٤٨]، وقول النبي: "ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال أناديهم ألا هلم فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك فأقول سحقا سحقا" (١).

١٠٩٣. تفيد مع ما ورد من الأحاديث في هذه الآية؛ وقوع اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم؛ وأنه عليه الصلاة والسلام كان يجتهد في تأويل النص، ويخالفه أصحابه رضوان الله عليهم في تأويله، ولا ينكره عليهم.

١٠٩٤. تفيد: أن حاصل اجتهاده عليه الصلاة والسلام أنه فهم من الآية إباحة الاستغفار لهم؛ وخالفه عمر رضي الله عنه وفهم من الآية النهي عن الاستغفار، ومنع النبي صلى الله عليه وسلم من الصلاة على عبد الله بن أبي؛ ولم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك من عمر، ولكن لم يرجع من اجتهاده، وأقرهما الله تعالى على اجتهادهما.

١٠٩٥. فيها وجوب فهم القرآن الكريم وفق أساليب العرب واستعمالاتها فالعرب تستعمل العدد سبعة ومضاعفاته ولا تقصد حقيقة العدد بل تقصد بذلك المبالغة في كل شيء وقد فهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استعمال العرب هذا وفهمهم له فقال: لو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر لهم لزدت.

قال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

١٠٩٦. فيها: لما ذكر سبحانه ما ظهر من المنافقين وسخريتهم من الذين خرجوا مع رسوله في تبوك ذكر هنا أن من ديدنهم الاعتذار بأعذار واهية عن تخلفهم وهذا دليل على سوء طويتهم.

١٠٩٧. فيها: معالي الأمور لا تنال بسهولة فالجنة سلعة غالية لا تأت بالتمني.

١٠٩٨. فيها: ذكر فرحهم دلالة على نفاقهم. وإلا كيف يفرح من ابتعد عن رضا الله.

---

(١) أخرجه البخاري ٨/١٢٠، ومسلم ١/٢١٨.

١٠٩٩. فيها: الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة.

١١٠٠. فيها: من ديدنهم التثبيط عن كل عمل يوصل إلى رضا الله والجنة.

١١٠١. فيها: يعلمون فضل الجهاد ويصدون عنه وهذا دليل جهلهم المركب.

١١٠٢. فيها: أنه لا حر قط يعدل نار جهنم. وقول النبي: "ناركم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم. قيل: يا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إن كانت لكافية!. قال: فضلت عليهن بتسعة وستين جزءا، كلهن مثل حرها" [(١)]..

١١٠٣. فيها الإشارة إلى اختلاف المعايير بين المؤمن والمنافق، فالمنافق يفرح بالقعود وبالتخلف عن رسول الله. ويكره الجهاد، بينما المؤمنون ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة:٩٢]، المنافق يستصعب ما يلاقيه في سبيل الله بينما المؤمن يستعذب ذلك ويتلذذ بما يلاقيه محتسباً الأجر عند الله.

١١٠٤. المنافق يتحاشى حر الدنيا ويتغافل عن حر جهنم بينما المؤمن يخشى نار جهنم ويتحمل حر الدنيا في سبيل النجاة من حر جهنم.

١١٠٥. تفي: أن النفاق، يعمي البصيرة؛ لقوله: ﴿لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾

١١٠٦. فيها: أن المنافقين، قد جمعوا بين عدة محاذير: الأول: فرحهم بمقعدهم خلاف رسول الله. الثاني: كراهية الجهاد بالمال والنفس. الثالث: صد الناس عن الجهاد والخير – بطريقة خبيثة ظاهرة النصيحة (تهييج المشاعر). قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة:١١-١٢].

١١٠٧. تفيد: أنهم قد جمعوا بين الشر القاصر والمتعدي وهذا أخبثه، وعليه أيضا: فإن الكفر والشر يتفاوت.

---

(١) أخرجه البخاري ٤/١٢١، ومسلم ٤/٢١٨٤.

١١٠٨. فيها أن الفرح بفوات الطاعات والقربات من صفات المنافقين والمنافقات.

١١٠٩. فيها أن الفقه في أسباب النجاة من النار وايثار الطاعات مع المشقة من أعظم الفقه.

قال تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة:٨٢].

١١١٠. فيها: بيان عدل الله سبحانه وتعالى؛ حيث إن الباء للسببية في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

١١١١. فيها، وبضميمة ما قبلها: إثبات البكاء لأهل النار.

١١١٢. تفيد، وبضميمة ما قبلها: أن إيثار الباقي الكثير على الفاني القليل، فقه وعقل؛ لأنه قال قبلها: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾

١١١٣. فيها: تأكيد على فجور المنافقين؛ حيث أتبعوا فرحهم بالتخلف ضحكا وسخرية.

١١١٤. فيها أن تذكر الآخرة وما فيها يقلل الضحك ويحمل على البكاء والخوف؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا وبكيتم كثيرا" [(١)].

١١١٥. فيها الرد على الجبرية وإثبات الكسب للإنسان.

قال تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ﴾ [التوبة:٨٣].

١١١٦. فيها بدلالة المناسبة التنفير من مصاحبة المنافقين؛ فلما تخلف المتخلفون وفرحوا بمقعدهم مخالفين لأمر الله ورسوله، وكرهوا الجهاد، بل وثبطوا عنه وخذلوا غيرهم بقولهم: ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ فرُتب على هذا كله ما ذكر هنا من المعاملة القاسية الشديدة وهي عدم أصحابهم لما يترتب عليه من الفساد.

١١١٧. فيها أن الرجوع من الأسفار سالما وخاصة أسفار الجهاد منَّة من الله وفضل عظيم.

---

(١) أخرجه البخاري ٢/٣٤، ومسلم ١/٣٢٠.

١١١٨. تفيد: أخذ الحيطة والحذر من التهاون بالأمر إذا حضر وقته، فإن إن تهاونت به ثبطك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامره عقوبة لك.

١١١٩. تفيد أن شؤم المعصية والمخالفة تمنع العبد وتفوت عليه خيرا كثيرا؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ﴾..

١١٢٠. تفيد: إضافة النعمة إلى مسديها، وهو الله، فما حصل رجوعكم سالمين إلا بعون الله وتوفيقه، بدلالة إضافة الإرجاع إلى الله وإظهار اسم الجلالة بخلاف لو قال (فإن رجعت).

١١٢١. تفيد بيان أسلوب من أساليب التربية بالعقوبة؛ وهو منع المتربي من بعض المرغوبات والمحبوبات، وهي ما يسمى بالعقوبة النفسية، مع الحرص على إعلامه بأسباب العقوبة.

١١٢٢. تفيد: أن هذا ليس من باب العُذر بدليل قوله تعالى بعد ذلك مباشرة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾، فهذه عقوبات، ما أقعدهم عن الجهاد سوى الحرمان وليس لتأخرهم سبب إلا النفس والشيطان.

١١٢٣. تفيد معجزة من معجزات القرآن الكريم (الإعجاز الغيبي للقرآن الكريم) وبرهانا من براهين النبوة وصدق الرسالة؛ حيث جاء التعبير بقوله: ﴿مَعِيَ﴾مكررا في السياق مرتين؛ ولم يقل مثلا: ﴿لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ﴾؛ وقد حصل ذلك؛ حيث لم تخرج هذه الطائفة مع النبي صلى الله عليه وسلم بعدها ولم يقاتلوا معه عدوا إلى أن مات فداه أبي وأمي عليه الصلاة والسلام؛ وإنما خرجوا وقاتلوا مع صحابة النبي صلى الله عليه وسلم؛ وقد أخبر سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله: ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾ [الفتح:١٦]..

١١٢٤. فيها: جزاء السيئة مثلها والحسنة كذلك، لذا علل﴿لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾.

١١٢٥. تفيد: أنه ينبغي أن يكون المؤمن فطنا حذرا حازما؛ يتوقى الشر ممن خدعه وأضره أولا، ولا يؤتى من ناحية الغفلة، فيخدع مرة بعد أخرى بمعسول الكلام ولين الخطاب، لقوله

تعالى: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾، ويشهد لهذا قوله صلى الله عليه وسلم:"لا يلدغ المؤمن في جحر مرتين" (١).

١١٢٦. تفيد بيان استمرارية جهاد النبي صلى الله عليه وسلم على من أمره الله تعالى بجهادهم؛ إذ كانت حياته عليه الصلاة والسلام كلها لله تعالى؛ وفي جهاد دائم في سبيله؛ سواء كان في السفر أو في الإقامة، مع فئتين هما: الكفار والمنافقون، وهذا ما تشير إليه العبارة القرآنية؛ حيث قال تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾؛ ولم يقل مثلا: (فإن رجعك الله إلى المدينة أو بيتك)؛ وفي إظهار عنوان ألوهيته سبحانه وتعالى ههنا وهو – إرجاعه عليه الصلاة والسلام– ﴿رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى إرجاعه إلى باب من أبواب الجهاد في سبيل الله تعالى؛ وهو جهاد فئة من المنافقين، وفي هذا الاستنباط والفائدة جمع بين ما ذهب إليه جمهور المفسرين، وبين ما تفرد به العلامة ابن عاشور في المراد بالرجوع ههنا.

١١٢٧. تفيد أن تصرفات المرء وأعماله الشنيعة التي يقوم بها من دون وجود مبررات وجيهة وأعذار مقبولة، يعتبر رضا منه بما صنع؛ ولهذا عبر سبحانه وتعالى بقوله:﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

١١٢٨. تفيد أن رضا العبد بالذنب والمعصية والفرح بها أشدَ وأعظم عند الله تعالى من فعله المعصية نفسها، لقوله تعالى:﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ولم يقل: (إنكم قعدتم أول مرة)..

١١٢٩. تفيد – في علم النفس والتربية– أن إصلاح المرء وتوجيه أفعاله غير المبنية على المحبة والرضا؛ أسهل وأيسر من تغيير قناعاته المبنية على المحبة والرضا بتلك الأفعال؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري ٨/٣١، ومسلم ٤/٢٢٩٥.

١١٣٠. يفيد سياق الآية أن الشارع الحكيم لا يأمر بالفحشاء ولا بالمنكر؛ وإنما خرج هذا الأمر مخرج التعيير والذم والعقوبة والتنكيل لهم، حيث إنهم هم الذين اختاروا بأن يكونوا مع الخوالف ورضوا بالقعود أول مرة، فأمروا بالاستمرار على هذا الفعل ما دام هو خيارهم الأجمل والأفضل عقوبة لهم؛ وتعييرا وذما واستهجانا.

١١٣١. تفيد دقة التعبير القرآني حيث قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ﴾؛ ولم يقل: (إنكم قعدتم)؛ وذلك لإخراج من لم يكن راضيا بالقعود؛ وإنما كان مجبرا ومكرها عليه؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: (إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم العذر" [(١)].

وعلى حد قول الشاعر:

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد ... سرتم جسوما وسرنا نحن أرواحا

إنا أقمنا على عذر وعن قدر ... ومن اقام على عذر فقد راحا

١١٣٢. فيها أن للإمام تعزير المتخلف عن الجهاد الواجب بغير عذر، لأن التعزير عقوبة غير مقدرة شرعا، ترجع إلى اجتهاد الإمام.

١١٣٣. فيها أن الخروج والقتال مع النبي صلى الله عليه وسلم شرف لا يستحقه المنافقون.

١١٣٤. فيها أن التخلف عن الجهاد الواجب عار؛ ولذلك ذمهم بقوله: ﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾

١١٣٥. تفيد: أن الإنسان يعرف من خلال مواقفه في أوقات الشدة والابتلاء..

١١٣٦. تفيد أن المؤمن وإن تخلف عن الجهاد لكنه لا يرضى بالتخلف، فالقعود شيء والرضى به شيء آخر.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة:٨٤].

(١) أخرجه البخاري ٦/٨، ومسلم ٣/١٥١٨.

١١٣٧. تفيد مشروعية الصلاة على أموات المؤمنين، والدعاء لهم أثناء الصلاة وعند دفنهم، والوقوف على قبورهم للدعاء لهم.

١١٣٨. تفيد: أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإن الآية وإن نزلت في شأن رأس المنافقين، إلا أنها تعم كل من اتصف بذلك.

١١٣٩. يتفرع عليها أيضا، أنه لا يجوز الصلاة على من عُرف عنه تلك الصفات، لأن كلمة ﴿أَحَدٍ﴾ نكرة أفادت العموم لوقوعها في سياق النهي، فقد نهى عن الصلاة على أي وأحد من المنافقين فلذلك فهي تشمل عموم المنافقين.

١١٤٠. فيها: أهمية الصلاة على الميت، وأنها من أنفع ما يقدم له، وأنها شفاعة.

١١٤١. فيها: أن النبي صلى الله عليه وسلم عبد مأمور مذعن لربه وأوامره.

١١٤٢. فيها أيضا: تلميح بفتح باب الأمل والتوبة للكافر؛ فمهما عاش على النفاق والكفر، فباب التوبة والقبول مفتوح له؛ لقوله: ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، فلم يكتف بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾..

١١٤٣. فيها نموذج لعدم الاذن للشافع.

١١٤٤. فيها: دقة التعبير؛ لقوله: ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾؛ ليشمل الدعاء للمقبور، وما يتعلق بإصلاح وتهيئة القبر وما يلزم مما يتعلق بالدفن والتورية على جهة الإكرام؛ لأن الكافر ليس أهلا لهذا.

١١٤٥. تفيد مكانة فضل دعاء النبي عليه السلام.

١١٤٦. تفيد أن المشرع هو الله تعالى وحده ومهمة النبي عليه السلام البلاغ.

١١٤٧. تفيد أن الفسق يطلق على الكافر أيضا.

١١٤٨. فيها التشديد في النهي عن الصلاة على المنافقين لوصفة بالأبدية في قوله: ﴿أَبَدًا﴾.

١١٤٩. بعد النهي عن الصلاة علل عدم الصلاة عليهم بقوله ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾وفي هذا ملمح تربوي هام إذ لا يكفي أن تأمر وتنهى دون تعليل، وهذا أدعى واكد في الاقتناع والالتزام عند المتربي.

١١٥٠. تفيد: أن الأحكام الشرعية معللة، ولكن قد تكون العلة منصوصة وقد تكون مستنبطة، وقد تكون تعبدية.

قال صاحب المراقي:

لن تلف في المعللات علة خالية من حكمة في الجملة

وربما يعوزنا اطلاعُ لكنه ليس به امتناعُ

قال تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:٨٥].

١١٥١. تفيد بدلالة المناسبة سوء حال المنافقين في الدارين، فإنه لما ذكر سبحانه ما يدل على شقاوة المنافقين في الآخرة ورفاهيتهم الزائفة في الدنيا، بين هنا أن أموالهم وأولادهم ستكون عليهم نقمة وعذابا.

١١٥٢. ففيها أيضا من المناسَبَةُ أنَّهُ لَمّا ذُكِرَ ما يَدُلُّ عَلى شَقاوَتِهِمْ في الحَياةِ الآخِرَةِ كانَ ذَلِكَ قَدْ يُثِيرُ في نُفُوسِ النّاسِ أنَّ المنافِقِينَ حَصَّلُوا سَعادَةَ الحَياةِ الدُّنْيا بِكَثْرَةِ الأمْوالِ والأوْلادِ وخَسِرُوا الآخِرَةَ" [(١)].

١١٥٣. تفيد دقة التناسب وروعة التناسق مع ما قبلها فبعد أن ذكر النهي عن الصلاة على المنافقين في الآية السابقة ذكر في هذه الآية الكريمة النهي عن الإعجاب بأموالهم وأولادهم، وذلك في إشارة واضحة إلى أن ما يبقى بعد موت هذا المنافق فهو ماله وولده؛ لهذا لا ينبغي للعبد أن يغتر بهما، فإنه سيتركهما خلفه كما تركهما هذا المنافق الميت؛ كما جاء في الحديث

(١) التحرير والتنوير ١٠/٢٨٦.

الصـــحيح: "يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان، ويبقى معه واحد: يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله" (١).

١١٥٤. يفيد: التعقيب بِالنَّهْيِ عَنِ الإعْجابِ بِأمْوالِهِمْ وأوْلادِهِمْ ثُمَّ مَرَّ في ذِكْرِ أقْســامِهِمْ وما لَزِمَهم مِن فَضــائِحِهِمْ وآثامِهِمْ، إلى أنْ خَتَمَ القِصَّــةَ بِأنَّ أمْوالَهم إنَّما هي لِفِتْنَتِهِمْ لا لِرَحْمَتِهِمْ، ولِمِحْنَتِهِمْ لا لِمِنحَتِهِمْ، أتْبَعَ ذَلِكَ بِدَلِيلِهِ مِن أنَّهم لا يَتَوَصَّلُونَ بِها إلى جِهادٍ، ولا يَتَوَسَّلُونَ إلى دارِ المِعادِ، فَقالَ عاطِفًا عَلى ما أفْهَمَهُ السِّــياقُ مِن نَحْوِ أنْ يُقالَ لِأنَّهم لا يَفْعَلُونَ بِها خَيْرًا ولا يَكْسِبُونَ أجْرًا،..."(٢).

١١٥٥. تفيد: أن ذكر الأموال، والأولاد هنا لا مفهوم له لأنه تعالى ذكر أخص أوجه الانتفاع فإنه إنما يكون بهما، فيدخل فيه كل الممتلكات المادية ســواء عينية أو نقدية، لأن الغاية في أن ما يختصون به مما سخره الله لهم.

١١٥٦. تؤكد الآية برهان على صـدق مقولة بعض العلماء: "النعمة التي لا تُشكر؛ يُحارب اللهُ بها العبدَ"؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾.

١١٥٧. فيها: عدم الالتفات إلى أحوال الكافرين المادية والاغترار والأعجاب بها.

١١٥٨. تفيد: أن في الدنيا عذاب قبل الآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:٣١]

١١٥٩. فيها: كثرة المال وقلته لا تدل على محبة الله للعبد أو بعده.

١١٦٠. فيها: المال نعمة إذا صرف في المصارف الشرعية ونقمة إذا كان في غير ذلك.

١١٦١. فيها: كثرة المال قد تكون استدراجا والعياذ بالله.

١١٦٢. فيها: أنه قد يجلب المال لصاحبه الويلات والآفات والعذاب.

---

(١) أخرجه البخاري ١٠٧/٨، ومسلم ٢٢٧٣/٤.

(٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي٣٧٢/٣.

١١٦٣. تشـــير إلى: رغد وســـعة عيش المنافقين في الدنيا قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون:٤] ولِما يعلوها من حســـن الملبس وأثر النعيم، وهذه حكمة من ربك فلا تغتر بهم. وقول الله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦] أننا نفعله لتعذيبهم، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝٣٣ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝٣٤ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزُّخرُف:٣٣-٣٥]

١١٦٤. تفيد التحذير الشـديد من المنافقين لأنّ لهم أسـاليب في التغرير والتمويه والتزيين؛ فالله تعالى نهى رسوله صلى الله عليه وسلم عن الإعجاب بهم وغيره من باب أولى.

١١٦٥. فيها: إثبات صـــفة "الإرادة" لله، وهذه الإرادة الواردة في الآية هي الإرادة الكونية، وإرادة الله نوعان: كونية، وشـرعية، وبمعرفة ذلك تزول كثير من الشـبه والإشـكالات التي تنطلي على قليل العلم والفقه.

١١٦٦. تفيد: أن الله يعطي ويمنع على ما تقتضيه حكمته جل وعلا.

١١٦٧. فيها: حســـرة المنافقين والكفار على ما يفوتهم من الدنيا عند الموت؛ لقوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾. وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [فُصِّلَت:٣٠] لا تخافوا لما أنتم مقبلون عليه، ولا تحزنوا على ما فاتكم؛ فنحن نخلفكم فيهم. وقول النبي صلى الله عليه وسلم "واخلفه في عقبه الغابرين". ونعوضكم ونجمعكم بهم ما آمنوا واستقاموا. وقول الله: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور:٢١]

١١٦٨. يستفاد منها أن ينتبه المرء من أن يكون سطحياً ينظر إلى الأشياء ظاهريا أوَ من زاوية معينة.

قال ابن القيم رحمه الله في حال من هذا شأنه:

والنـاس أكثـرهم فأهـل ظـواهر تبـدو لهـم ليسـوا بأهـل معـان

فهم القشور وبالقشور قوامهم واللب حظ خلاصة الإنسان

١١٦٩. فيها ترك النظر إلى ما في أيدي الناس من مختلف النعم، فلكما اتسعت العين، ضاق الصدر.

١١٧٠. فيها أن لله حكمة في توزيع الأرزاق ويجب الرضا بما قسمه الله لك، قد ولى الله تعالى ذلك بنفسه جل وعلا: حيث قال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزُّخرُف:٣٢].

قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة:٨٦].

١١٧١. تفيد جواز حذف ما هو معلوم، ففي الآية حذف الفاعل للعلم به فإن الآيات الشرعيات لا ينزلها إلا رب البريات جل وعلا.

١١٧٢. فيها: الأمر بالإيمان بالله، والجهاد، فالأول من أعمال القلوب، والثاني: من أعمال الجوارح، فالجمع بينهما حجة دامغة على المرجئة؛ لأنه جمع بين الاعتقاد والعمل.

١١٧٣. تشير إلى: كثرة الآيات الواردة في ذكر الإيمان والجهاد.

١١٧٤. تفيد مع ما بعدها تنوع ابتلاءات الله تعالى على عباده؛ فمنهم من يبتليه الله بالطَول والغنى، ومنهم من يبتليه الله بالفقر والعوز؛ ولكل من الابتلاءين حكم إلهية؛ وسنن كونية؛ ولينظر الله ماذا يصنع المبتلون؛ وكيف يعمل الممتحنون؛ قال تعالى في هذه الآية: ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾؛ وقال فيما بعد هذه من الآيات؛ ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾.

١١٧٥. فيها أن قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ﴾ من باب عطف الخاص على العام تنويها بذكره، وهو في نفس الوقت من التلازم بمكان، إذ لا ينفك الإيمان عن جهاد في سبيل نصرته،

وإعلاء كلمته، ولا يكون ذلك إلا مع الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم حال حياته، وعلى سنته بعد وفاته.

١١٧٦. فيها مع ما قبلها وما بعدها أن ترك الجهاد والاعتذار عنه من أظهر خصال المنافقين؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق"[(١)].

١١٧٧. تفيد أن سور القرآن الكريم كلها متضمنة لقضية الإيمان بالله تعالى وتوحيده، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم في جهاده لربه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ﴾.

١١٧٨. تفيد أن الجهاد في سبيل الله تعالى من أعلى مراتب الدين بعد الإيمان بالله تعالى؛ والسورة في كلام العرب: ما ارتفع من الأرض؛ كسور البناء، ويشهد لهذا قوله عليه الصلاة والسلام: "وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله"[(٢)].

١١٧٩. تفيد مع ما قبلها وما بعدها أن الله عز وجل يعطي عباده على حسب همتهم واستعدادهم وطموحهم؛ بعد أن أقام عليهم الحجة فيما أنزله في كتابه السماوي من بيان مراقي الصعود ومعالي الأمور؛ لهذا فمن كانت همته سافلة لا عالية؛ واستعداده وطموحه أرضيا لا سماويا؛ أعطاه الله تعالى ما يستحقه من العطايا السفلية، ووجّهه إلى المنزلة الدنية التي يستحقها؛ قال تعالى كما تقدم في الآيات السابقة ﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ ﴿فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾، وكما قال تعالى في الآية التي بعد هذه الآية: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾..

وصدق الشاعر حين قال:

إذا غامَرْتَ في شَرَفٍ مَرُومِ ... فَلا تَقنَعْ بما دونَ النّجومِ

(١) أخرجه مسلم ١٥١٧/٣.

(٢) أخرجه الترمذي ١٢/٥، وابن ماجة ١٣١٤/٢، صححه الألباني في الإرواء ١٣٨/٢.

فطَعْـمُ المـوْتِ في أمْـرٍ حَقِـيرٍ كطَعْـمِ المـوْتِ في أمْـرٍ عَظـيمِ

١١٨٠. تفيد سياقات هذه السورة أن المستأذنين من المنافقين على أربعة أقسام، قسم لم يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم وتخلف، قسم استأذن في الخروج والجهاد في غزوة تبوك، قسم استأذن في التخلف والقعود، وهذا القسمان يشملهما قوله تعالى: (عفا الله عنك لم أذنت لهم..)؛ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قسم تخلف عن غزوة تبوك، واستأذن في الخروج مع النبي صلى الله عليه وسلم ما بعدها من غزوات؛ قال تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾.

١١٨١. تفيد مع ما بعدها أن البلاء موكّل بالمنطق؛ فبعد أن قال هؤلاء المنافقون: (ذرنا نكن مع القاعدين)؛ نزل عليهم البلاء من الله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾..

ولله در الشاعر حين قال:

احفظ لسانك لا تقول فتُبتلى إنَّ البلاء موكَّل بالمنطق

الواجب على العاقل أن يلزم الصمت، إلى أن يلزمه التكلم، فما أر من ندم إذا نطق، وأقل من ندم إذا سكت"[1].

١١٨٢. تفيد سوء أدب المنافقين مع النبي صلى الله عليه وسلم، حيث لم يكتفوا بالتخلف؛ بل طلبوا منه عليه الصلاة والسلام أن يدعهم وما يريدونه وما ارتضوه لأنفسهم من القعود والتخلف؛ فقالوا: ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾.

١١٨٣. تفيد: أن هؤلاء المنافقين يستخدمون الأقيسة فاسدة الاعتبار، حيث طلبوا من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يعذرهم كما عذر من رفع الله عنه الحرج من الضعفاء والمرضى.

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص ٤٣.

١١٨٤. تفيد مع ما بعدها أن المنافقين – المطبوع على قلوبهم-؛ لا تؤثر فيهم نصوص الكتاب والسنة، ولا يمتثلون لأمرها ونهيها، ولا ينقادون لوعدها ووعيدها، وهم مستمرون دائما وأبدا على غيهم وضلالهم، وعلى تثاقلهم عن الطاعة وبذل العطاء في سبيل الله.

١١٨٥. تفيد أن الاستماع إلى القرآن الكريم وتدبر آياته وسوره، ومعرفة ما فيه من الأوامر والنواهي؛ ومن الوعد والوعيد؛ من أعظم الأبواب والطرق التي تجدد إيمان العبد المؤمن بربه، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ﴾، أي أنزلت وخوطب بها جميع المؤمنين.

١١٨٦. تشير إلى: أن أولي الطول، يتوجب عليهم ما لا يتوجب على غيرهم. وأن التبعة عليهم أكثر.

١١٨٧. تفيد: أن سراء الدنيا ليست بأهون من الابتلاء بضرائها، ولربما كان نعيم الدينا، جسرا يقود إلى جهنم.

١١٨٨. تشير إلى: صفة خبيثة من صفات المنافقين، وهي: الانسحاب والتنصل والفرار عند الأمور العظام التي تقبل عليها الدولة المسلمة؛ لا سيما فيما يتعلق بالجهاد.

قال تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [التوبة:٨٧].

١١٨٩. في الآية الكريمة أن الطبع على القلب من أعظم العقوبات الإلهية.

١١٩٠. لا يفقهون ماذا؟ حذف المتعلق المعمول فيه يفيد العموم، فهم بعد الطبع لا يفقهون شيئا مما أرشدهم الله إليه ليكون خيرا لهم في الدنيا والآخرة.

١١٩١. فيه خطورة عمل القلب (الرضا) لأنه يقود الجوارح.

١١٩٢. المرء حيث يضع نفسه.

١١٩٣. تفيد (خوالف) مفردها (خالف) اسم فاعل ليبين أن ذلك لازم لهم، فهم (النساء والصبيان) معذورون لتخلفهم، فلم يقل (المتخلفين).

١١٩٤. صيغة (رضوا) تدل على دناءة همم المنافقين.

وكما قال الشاعر:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميّت إيلام

١١٩٥. تفيد: أن أعمال الجوارح، تؤثر في القلب؛ فلما قعدوا ورضوا طبع على قلوبهم، " فإن الأمور الباطنة والظاهرة بينهما ارتباط ومناسبة، فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أمورا ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال، يوجب للقلب شعورا وأحوالا"(١).

١١٩٦. تفيد: أن القعود عن الجهاد والتخلف عنه بلا عذر، مذلة وهوان.

١١٩٧. تفيد أهمية الاعتناء بسلامة القلوب؛ فلو طبع الله على قلب العبد بسبب جرمه وكفره ونفاقه فقد خسر، وقد ثبت في الحديث "ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت، صلح الجسد كله، وإذا فسدت، فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"(٢).

١١٩٨. تفيد: أن دين الله تعالى دين التقدم لا دين التخلف، وأنه يكره - بل ويحرم - على أفراده، - ممن لديهم الإمكانيات والقدرات التخلف عن معالي الأمور، وعن مراقي الصعود؛ لقوله تعالى: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾.

١١٩٩. تفيد مع ما قبلها ضرورة إظهار الحقائق التي يخفيها أهل الباطل من وراء أقوالهم وعباراتهم المحسنة والمزخرفة؛ لقول هؤلاء المتخلفين بصيغة التذكير والجمع السالم: ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾، فأظهر الله حقيقتهم بصيغة التأنيث والجمع المكسر؛ فقال تعالى: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾.

ولله در الشاعر حين قال:

فِي زُخْرُفِ الْقَوْلِ تَزْيِينٌ لِبَاطِلِهِ وَالْحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيرِ

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٩٢/١.

(٢) أخرجه البخاري ٢٠/١ومسلم ١٢١٩/٣.

تَقُـولُ: هَـذَا مُجَـاجُ النَّحْـلِ تَمْدَحُـهُ وَإِنْ ذَمَمْـتَ تَقُـلْ: قَـيْءُ الـزَّنَابِيرِ
مَـدْحًا وَذَمًّـا وَمَـا جَـاوَزْتَ وَصْـفَهُمَا حُسْـنُ الْبَيَـانِ يُـرِي الظَّلْمَـاءَ كَـالنُّورِ

١٢٠٠. تفيد دناءة المنافقين وسعيهم الحثيث في إشباع شهواتهم ونزواتهم في كل وقت وحين؛ لقوله تعالى: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾. والخوالف جمع خالفة.

١٢٠١. تفيد خطورة المنافقين على النساء المؤمنات؛ وخصوصا اللاتي ليس لهن عائل من نساء المجاهدين والمرابطين؛ وذلك لدناءة نفوسهم وخساسة طبعهم ورغبتهم في مصاحبتهن؛ لقوله تعالى: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾..

١٢٠٢. تفيد انعدام رجولة هؤلاء المتخلفين وانتكاس فطرتهم وطبعهم؛ حيث آثروا الجلوس والقعود مع النساء ورضوا بأن يكونوا مصاحبين لهم، في حين أن الرجل صاحب الفطرة المستقيمة والطبع السليم لا يرضى بهذا الأمر؛ ولهذا قيل في المثل: أخبرني من تصاحب أخبرك من أنت؟.

١٢٠٣. تفيد مع ما قبلها أن بعض قلوب البشر مطبوع عليها؛ فلا تجدي معها النصائح والمواعظ والذكرى؛ ولو استعرضت معه نصوص الكتاب والسنة؛ لقال لك: دعني وشأني، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ ثم قال في هذه الآية: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾

وخلاصة ما عندهم هو ما صورة الشاعر، استنادا على الآيات التي وردت فيهم:

فنشاطهم أن يُنشروا شبهاتهم ضد الجهاد وينشروا ما ينطلي
من قائل لو أن ذاك أطاعنا وأجابنا بقعوده لم يُقتلِ
أو قائلٍ قد غرَّ قومًا دينُهم وحماسهم للحرب دون تعقلِ
أو قائل لا تنفروا في الحر بل لوذوا ملاذَ القاعد المتمهلِ
فأتى الخوالف في ثياب مسالم يبدي النصيحة وهو غيظًا يصطلي

قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة:٨٨].

١٢٠٤. فيها بدلالة المناسبة بيان الأمور بالضد، فبضدها تتبين الأشياء، على طريقة القرآن من الجمع بين المتقابلات إمعانا في بيان المتضادات، فمقابل تخاذلهم الصادر عن نفاقهم: ف﴿ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ﴾، ومعيتهم له: معية نصرة وتأييد، وإن استغنى بنصر الله، عز وجل، وتأييده، عن نصرة وتأييد فالصحابة الأبرار مع الانقياد الباطني، وهو الإيمان حملهم على الانقياد الظاهري جهادا بالنفس والمال، فدعواهم الإيمان مشفوعة بجهاد المال والأبدان، فهو ذروة سنام الملة، وبه يصان الدين وترتفع ألوية السنة، وفي تكرير اسم الإشارة إشادة بفضلهم؛ فكل من الميزتين جديرة بالإشارة في جملة مستقلة.

١٢٠٥. فيها: فضل الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

١٢٠٦. . تفيد: أن الجهاد، من أعظم الأعمال بعد الإيمان.

١٢٠٧. فيها:قوله﴿ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ﴾ استغراق لجميع المنافع في الدارين.

١٢٠٨. تفيد، وبضميمة ما قبلها: أن القرآن مثاني؛ لأنه يثنى فيه صفات وأعمال المؤمنين والكفار والمنافقين.

١٢٠٩. فيها أن الجهاد في سبيل الله عز وجل سبب للخيرات والفلاح.

قال تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:٨٩].

١٢١٠. فيها: بيان أن الفوز الحقيقي هو دخول الجنة والنجاة من النار.

١٢١١. تفيد مع ما قبلها الحث على الجهاد في سبيل الله، والتنويه بعظيم منزلة المجاهدين، ورفيع درجاتهم عند ربهم.

١٢١٢. تفيد مع ما قبلها كرم الله تعالى وجوده حيث وفق نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضي الله عنهم للإيمان به والجهاد في سبيله، ثم جازاهم على ذلك أحسن

الجزاء وأتمه من خيري الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾..

١٢١٣. فيها دليل على: خلق الجنات، إذ أعدت لساكنيها، وتزينت لمستحقيها، فأنهارها جارية ونعيمها خالد لا ينقطع، وداخلها خالد لا يفنى ولا يبيد، فلا يلحقه هرم ولا مرض.

١٢١٤. تفيد تمام نعيم الجنات لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ﴾، لأن كمال السعادة، وتمام الأنس، بخلود النعيم، وخلود المنعم، ولا يكتمل النعيم إلا بخلودهما معا.

١٢١٥. تفيد أن في الجنة أنهارا، وقد بين سبحانه وتعالى هذه الأنهار في قوله: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾ [محمد:١٥]..

١٢١٦. تفيد أن أهل الجنة خالدين فيها أبد الآبدين، وقد أجمع على ذلك أهل السنة والجماعة.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:٩٠].

١٢١٧. فيها بدلالة المناسبة بيان لحال المنافقين من خارج المدينة، فلما بين سبحانه أحوال المنافقين في المدينة بين هنا أحوال المنافقين من الأعراب.

١٢١٨. فيها: ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ حسب القراءات تأت بمعنى: الذين لديهم أعذار حقيقية، وتأت بمعنى: المقصرون أصحاب الأعذار الوهمية، وهذا من بلاغة القرآن ليشمل الذين صدقوا في العذر والذين كذبوا..

١٢١٩. فيها بيان شدة عذاب المنافقين، بدلالة تنكير﴿عَذَابٌ﴾ للهويل.

١٢٢٠. على اختلاف القراءات الواردة في الآية – أن الأعراب ليسوا سواء، فمنهم من يتحاملون على مرضهم وعذرهم ويجيئون إلى النبي صلى الله عليه وسلم قاطعين مسافات طويلة

ليؤذن لهم إما في الخروج أو في التخلف وإعطاء نفقتهم لغيرهم من المجاهدين؛ حرصا على الجهاد في سبيل الله ولو بأموالهم، وذلك حبا وإيمانا بهذا الدين ونصرة له واتخاذ ذلك قربات عند الله وصلوات الرسول، ومنهم من يتخلف عن الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تكذيبا لله ورسوله، وكفرا ونفاقا؛ فقعدوا عن نصرة هذا الدين وأهله؛ متربصين بهم الدوائر..

١٢٢١. السين في قوله: ﴿سَيُصِيبُ﴾ تفيد سرعة وتحقق هذا العذاب الأليم. وصلة الموصول تفيد أن سببه الكفر.

١٢٢٢. تفيد تهديدا ووعيدا شديدا للأعراب المنافقين ولكل من تسول له نفسه خذلان هذا الدين.

١٢٢٣. تفيد أن أعظم ما يحمس العبد ويشجعه على القيام بفعل الطاعات هو تصديقه بموعود الله تعالى ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١]

١٢٢٤. تفيد بدلالة المناسبة من لهم عذرهم في الجهاد، فلما ذكر سبحانه حال من تخلف عن الجهاد مع القدرة عليه، بين هنا حال من له عذر في تركه..

١٢٢٥. الإعذار تفضلٌ من الله تعالى على عباده، لذا كان التذييل ب ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فهم بحاجة إلى المغفرة وإن كان التخلف بعذر..

١٢٢٦. مصاحبة التكريم ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ للمعذورين، ليصاحب مراعاة ظروفهم مراعاة نفسياتهم، فلا يرافق الإعذار منّ أو أذى، وإنما إتمام الترفق والمعروف بمعروف أجل وأرقى..

١٢٢٧. الاهتمام ودعم الجانب النفسي لكل أطياف الأمة خاصة وقت الأزمات وعدم السماح للأطراف الفاعلين بتعيير غيرهم للأثر الكبير السلبي الذي يتركه هذا الفعل في مثل هذه

الأوقات من الفت في عضد الأمة وتشتيتها؛ ف﴿مِن﴾ مؤكّدة لشمول النفي لكلّ سبيل، وهي أيضا زائدة لفظا زائدة معنى، والزيادة في المبنى تقتضي الزيادة في المعنى.

١٢٢٨. تفيد التخلف لا يعني إهمال هذه الفئة فأبواب المساهمة كثيرة ليست محصورة بساحة القتال، لذا توجب إعذارهم مع إكرام للحفاظ على روحهم المعنوية التي ستفيد وتسهم في النصر بطرق أخرى ولو كان بالدعاء ورفع المعنويات..

١٢٢٩. تفيد: أن فاقد الشيء لا يعطيه، لذا أُكرموا كي ينصحوا، ولما نصحوا باتوا من المحسنين.

١٢٣٠. فيها: سماحة الشريعة ومراعاتها لأحوال الناس وهذا من المقاصد العظيمة.

١٢٣١. فيها: يشترط للجهاد القوة الجسمية والمالية.

١٢٣٢. فيها: أن من لم يخرج للجهاد مع القدرة عليه، فهو آثم في تركه.

١٢٣٣. فيها: أن هذه الآية أصل في سقوط التكليف عن العاجز، والقاعدة الأصولية:" واجب مع العجز".

١٢٣٤. وفيها: الجهاد أنواع، فإخلاص الإيمان من الجهاد وحسن النية والقصد من الجهاد والحب لله ولرسوله من الجهاد ونفع المسلمين وبذل المعروف من الجهاد..

١٢٣٥. تفيد: أن المحسن لا يلام في عطائه؛ بل يقبل منه ويشكر ما قدمه، ولو كان في نظر البعض قليلا فالمنع أقل منه..

١٢٣٦. فيها رحمة الله تعالى بعبادة وتيسير الشريعة في التخفيف عن المذكورين في الآية.

١٢٣٧. فيها فضل النفقة في الجهاد؛ وفي الحديث:"من جهز غازيا فقد غزا" [١].

١٢٣٨. فيها دليل على القاعدة الفقهية الكبرى: المشقة تجلب التيسير.

---

(١) أخرجه البخاري ٤/٢٧، ومسلم ٣/١٥٠٦.

١٢٣٩. يفيد: إعادة حرف النفي في عطف الضعفاء والمرضى لتوكيد نفي المؤاخذة عن كلّ فريق بخصوصه" (١).

١٢٤٠. تفيد: الدقة في اخراج المحترزات والقيود في القرآن الكريم، أنه لما كان يمكن لأحد من المنافقين أن يكون متصفا بالصفات التي ذكرها الله في قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ احترز عنه بقوله: ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي في تخلفهم وجميع أحوالهم" (٢).

١٢٤١. يفيد قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ أنها واقعة موقع التعليل لنفي الحرج عنهم وهذه الجملة نُظِمت نَظْم الأمثال.

١٢٤٢. دلت هذه الآية الكريمة على أن هناك طائفة من المسلمين الصادقين قد عذرهم الله، ورفع عنهم الحرج إذا تخلفوا عن الجهاد في سبيله؛ لأنهم أهل أعذار، ولكنه شرط رفع الحرج عنهم بشرط مهم وهو قوله: ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾. وكانوا من المحسنين.

١٢٤٣. فيها استغلال جميع الطاقات كل بحسب استطاعته ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، تجلى فيها تنوع المسؤولية بتنوع القدرات، فكلٌّ بحسبه.

قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة:٩٢].

١٢٤٤. تفيد بدلالة المناسبة الإعذار لفئة ثانية، فلما ذكر سبحانه أصنافا من المعذورين شريطة النصح لله ولرسوله، ذكر هنا صنفا آخر من المعذورين، فالآية السابقة في العاجز ببدنه، وهنا في ذكر العاجز بماله.

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/٢٩٤.

(٢) نظم الدرر للبقاعي٣٣/٣٧٤.

١٢٤٥. وفيها أيضا من المناسبة، لما ذكر سبحانه حال المنافقين وفرحهم في تخلفهم عن الجهاد، وهم آثمون، خاطئون بتخلفهم عن رسول الله راغبون بأنفسهم عن نفسه، ثنى الله بحال ندم المؤمنين على فوات الطاعة في حال أنهم معذورون، مشاركون في الأجر، ولله در ابن القيم حيث قال فيما يشبه الفريقين:

شتان بين الحالين فإن ترد جمعا فما الضدان يجتمعان

ما أنتم منهم ولا هم منكمُ شتان بين السعد والدبران

١٢٤٦. تفيد أنّ الله تعالى يأجر المؤمن على نيته في فعل الخير وإن لم يفعله بسبب عدم تمكنه منه؛ ويؤيد هذا الحديث الصحيح: "إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالاً مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلاَّ كانُوا مَعكُم حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ" (١).

١٢٤٧. تفيد: كرم الله وعظيم فضله، حيث رتب الأجور على نية العمل، ولم يرتبها على نتائج الأعمال.

١٢٤٨. تفيد: أن المسلم قد يبلغ بنيته ما لا يبلغه بعمله، حيث إن النية المجردة عن العمل يثاب عليها العبد، أما العمل المجرد عن النية فلا ثواب عليه.

١٢٤٩. فيها: بيان ما كان عليه أولئك الخيرة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوة الإيمان وصدق اليقين وصفاء النفس وخشوع القلب.

١٢٥٠. فيها: جواز البكاء وإظهار الحزن على فوات الطاعة وإن كان معذورا" (٢).

١٢٥١. فيها: بيان ما كان عليه أولئك القوم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرغبة الصادقة في الجهاد.

---

(١) أخرجه البخاري ٨/٦ ومسلم ١٥١٨/٣.

(٢) تفسير القاسمي ٢٧٨/٥.

١٢٥٢. فيها: أن من نوى الخير واقترن بنيته الجازمة سعي فيما يقدر عليه ثم لم يقدر فإنه ينزل منزلة الفاعل التام"[١].

١٢٥٣. فيها: اتيانهم بأنفسهم دليل على صدقهم.

١٢٥٤. فيها: بكاؤهم بكاء الرجال، يبكون على عدم وجود الراحلة التي تحملهم للموت على غرار من يبكي للدنيا وشهواتها العاجلة.

١٢٥٥. تفيد الآية الكريمة في قوله ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ قوة رغبة الصحابة في الأعمال الصالحة الموجبة للدرجات العلى.

١٢٥٦. فيها: أنه سبحانه لم يمدحهم على الحزن وإنما مدحهم على ما دل عليه من قوة إيمانهم.

١٢٥٧. تفيد: أن على إمام المسلمين تجهيز الجيوش وإعداد العدة للجهاد في سبيل الله، والتكفل بالآلات لمن ليست لديه الإمكانات المادية، وذلك بحسب القدرة والاستطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾.

١٢٥٨. تفيد أنه لا ينبغي الإلحاح والتشديد في الطلب على من أبدى لك العذر، وامتنع عن مساعدتك، وعدم الاستقصاء في سبب رفض الآخر للوقوف معك وتنفيذ طلبك خصوصا إذا كان معروفا بالكرم والجود؛ لقوله تعالى:﴿قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾..

١٢٥٩. فيها بيان حرص الصحابة وتدافعهم نحو طاعة القائد وحضورهم أمامه ليعرف اعذارهم الحقيقة في أرض الواقع وفي ذلك تأكيد على حسن التربية والالتفاف حول القيادة في أحلك المواقف دليل صدق وولاء. ودفع له نحو التقدم ورفع روحه المعنوية ومن معه.

١٢٦٠. تفيد محبة الله تعالى لتلك العيون التي إذا خلت عن مراقبة الناس وتولت عن أنظارهم تفيض من الدمع محبة وخشية لله؛ وحزنا على ما فاتهم من طاعة الله؛ لقوله تعالى: ﴿تَوَلَّواْ

(١) تفسير السعدي ١/٣٤٧.

﴿وَأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾، ويشهد لهذا قوله عليه الصلاة والسلام في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: "ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه"(١).

١٢٦١. تفيد قمة أدب هؤلاء الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، وحسن تعاملهم مع أكرم الخلق صلى الله عليه وسلم، حيث لم يرتضوا أن يبكوا أمام ناظري أكرم وأجود الخلق، وذلك مراعاة لقلب الرؤوف الرحيم صلى الله عليه وسلم من أن ينكسر أو يتأثر ببكائهم وفيض دموعهم؛ لقوله تعالى: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾.

١٢٦٢. تفيد أن من أسرَّ سريرة حسنة، وعملا صالحا مخلصا لله تعالى فيه؛ أظهره الله تعالى للعامة والخاصة؛ بل وجعل له لسان صدق في الآخرين.

قال الشاعر الحكيم يصف تلك الحالة:

يُخْفِي صنائِعَهُ وَاللَّهُ يُظْهِرُهَا إنَّ الْجَمِيلَ إذَا أَخْفَيْتَهُ ظَهَرَا

١٢٦٣. تفيد: أن يتعلم المرء الشجاعة في قول لا أملك وان كان كبير المقام.

١٢٦٤. تفيد: أنه ليس عيبا ولا ذما أن يقول الكريم والجواد لمن طلب منه شيئا ليس في وسعه ولا يجده: (لا أجد)؛ ومن عبارة النبي صلى الله عليه وسلم التي حكاها القرآن الكريم يظهر للمتأمل والمتدبر كرم وجود النبي صلى الله عليه وسلم حيث لم يقل لهؤلاء الصحابة: (لا أحملكم)، بل قال: ﴿قُلۡتَ لَآ أَجِدُ﴾.

١٢٦٥. تفيد: أن الدنيا ناقصة ولو كملت لكملت لنبينا الكريم صلى الله عليه وسلم.

١٢٦٦. فيها ما كان عليه الصحابة من رقة القلوب وقرب الدموع.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة:٩٣].

١٢٦٧. في قوله ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ جواز لوم القادر على الخروج ومن لا عذر له.

---

(١) أخرجه البخاري ١/١٣٣، ومسلم ٢/٧١٥.

١٢٦٨. يفيد قوله تعالى: ﴿يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ بأن التولي عن الزحف ليس بالضـــرورة أن يكون فراراً، بل قد يكون مع الاستئذان بأعذار واهية.

١٢٦٩. قوله تعالى: ﴿وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ يفيد أنَّ على القاضـي أو الحاكم أن يبين حيثيات الحكم وأسبابه التي دفعت إلى إصدار هذا الحكم على المحكوم.

١٢٧٠. قوله تعالى: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ يفهم منه أن العدل لا يعني المســـاواة؛ لذا أنكر عليهم رضاهم بذلك.

١٢٧١. وفي الســـكوت عن الخوالف إشـــارة مراعاة حال المأمور حيث رضـــى بتخلفهم لعدم قدرتهم أو للعذر الشرعي..﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾

١٢٧٢. في قوله ســـبحانه: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ تعزيز تربوي ســـلبي يحفز على إزالة السلوك الخطأ..

١٢٧٣. تفيـد الآيـة الكريمـة: أن أهـل الأموال والثراء عليهم تبعـة أكثر من غيرهم لـدينهم ولمجتمعاتهم ولأوطانهم تتأكد حال الشدة والضرورة.

١٢٧٤. منها أنه يقبح بالغني بماله، وعلمه، وصـــحته، وجاهه أن يتخلف عن داعي البذل في سبيل الله.

١٢٧٥. تفيد: مبالغة في ذم واستهجان من يتخلفون عن الجهاد في سبيل الله وهم أغنياء.

١٢٧٦. تفيد الآية هنا أن كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ لا تفيد الحصر في هذا الموضع وإنما المبالغة في التوكيد والذم، لأن الســـبيل والمؤاخذة تشـــمل المســـتأذنين، وغير المســـتأذنين من الأغنياء ممن رضـــوا بالتخلف.

١٢٧٧. تفيد: أن الغني إذا تخلف عن الجهاد في سـبيل الله لظرف من الظروف ولم يكن راضـيا عن تخلفـه؛ لم يعـاقـب بعقوبـة الطبع على القلـب، لقولـه تعـالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾، ويشهد لهذا قصة الثلاثة الذين خلفوا..

١٢٧٨. فيها أن الأعذار الواهية والتحايل على الشرع والتخلف عن الجهاد الواجب من أسباب المقت من الله عز وجل والطبع على القلوب.

١٢٧٩. فيها أن المؤمن لا يترك الجهاد إلا لعذر شديد وحرج أكيد.

١٢٨٠. فيها أن الجهاد لا يكون إلا بإذن ولي الأمر وعلمه لقوله: ﴿يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾؛ وفي الحديث: "وإنما جعل الإمام جنة يقاتل من ورائه"(١).

١٢٨١. تفيد: تتشابه بعض أجزاء هذه الآية الكريمة مع الآية الكريمة السابقة رقم (٨٧)، ويلاحظ وجود اختلاف وفرق بسيط في خاتمهما، حيث جاء هناك ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وجاء ههنا ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، وجاء هناك ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ وجاء ههنا ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩٤].

١٢٨٢. فيها جواز الإغلاظ على المنافقين تأديبا لهم وزجرا.

١٢٨٣. فيها فضح المنافقين وكشف أستارهم ليرتدعوا وينزجر بهم غيرهم.

١٢٨٤. فيها دلالة على كثرة اعتذاراتهم؛ دل عليه الفعل المضارع ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾.

١٢٨٥. فيها رحمة الله بالإمهال والإنظار وفتح باب التوبة ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾.

١٢٨٦. تفيد: ما هو مقرر في أبواب الدعاوى والبينات أن بعض القضايا لا تسمع فيها الدعوى، فعدم قبول حتى الاستماع للعذر، من باب زيادة الإغلاظ عليهم، " فالاستماع للعذر فيه شبهة الإعذار ".

١٢٨٧. فيها مشروعية الاعتذار على شرط أن يكون المرء صادقاً في اعتذاره.

---

(١) أخرجه البخاري٤/٥٠ ومسلم ٣/١٤٧١.

١٢٨٨. تفيد: توخي الحذر –في تربية صـــغارنا– من تشـــجيعهم على تقديم الاعذار الواهية والكاذبة بالضحك والاعجاب بها وبهم عندما يفعلونها، ظنا منا أنها من الذكاء والدهاء المحبب.

١٢٨٩. اشـــتملت الآية الكريمة على جوانب من الإعجاز البلاغي فاشـــتملت على خبر ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾، ونهي ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا﴾، وإعلان ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾وتعليل ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾، وتهديد، وتخويف ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ وهذا التنوع في الأســـاليب يأخذ النفس بعيداً كل مأخذ في ميادين فسيحة من جمال البيان، وروعته..

١٢٩٠. لا ينبغي لأحد أن يجتهد في وصـــف أهل الكفر والنفاق، أو أن يتألى على الله بما سيكون مصيرهم؛ وقد جاء الخبر منه سبحانه في وصف حالهم وبيان مآلهم.

١٢٩١. تفيد بيان علامة من علامات الشـــخص الكاذب والمنافق؛ وذلك من خلال حركاته وتصرفاته، وعلى قول المثل العربي: كاد المريب أن يقول: خذوني، وبيان ذلك: أن هؤلاء المنافقين المعتذرين وقبل أن يســـتقر النبي صـــلى الله عليه وســـلم ويرجع إلى المدينة بدأوا يســـتقبلونه بالاعتذارات، وذلك لشـدة خوفهم من أن يفتضـح أمرهم ويكتشـف كذبهم، ولإبعاد الشـكوك عن أنفســـهم، ولهذا قال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾دون قوله: (إذا رجعتم إلى المدينة)، وهنا يظهر للمتأمل والمتدبر دقة العبارة القرآنية، ولطافة الهدايات الربانية..

١٢٩٢. تفيد أهمية توحيد المرجعية في إصدار التصريحات المتعلقة بشؤون الدولة وسيادتها، لقوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا﴾، وبيانه: أن هؤلاء المنافقين كانوا يأتون إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإلى الصحابة رضوان الله عليهم يعتذرون إليهم، فأمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صـلى الله عليه وسـلم أن يتصـدى للرد عليهم لكونه المرجعية الأولى: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا﴾ ولم يقل: (قولوا لا تعتذروا)..

١٢٩٣. تفيد حرمة تصديق ما كان بخلاف ما أخبر الله سبحانه تعالى به، مهما كان قائله، ومهما كانت منزلته، ومهما كانت أدلته وبراهينه؛ لقوله تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾.

١٢٩٤. تفيد أنه لا ينبغي للعبد الاشتغال بما لا طائل تحته، ولا فائدة ترتجى منه؛ ولا منفعة تبتغى منه؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾، أي: لم يبق لاعتذاركم فائدة، لأنكم تعتذرون بما يخالف ما أخبر الله تعالى به؛ لذا فإنه لا حاجة لنا إلى الاشتغال بسماع اعتذراتكم.

١٢٩٥. فيها مراعاة المنافقين للخلق دون الخالق سبحانه وتعالى فهم يعتذرون إليهم ولا يتوبون إلى الله جل وعلا؛ وكما قال الله تعالى عنهم: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:١٣]

١٢٩٦. تفيد بيان شمول وإحاطة علم الله سبحانه وتعالى بما كان، وما سيكون، وما هو كائن، وما لم يكن؛ لقوله تعالى مخبرا النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته قبل رجوعهم إلى المدينة.

١٢٩٧. فيها إثبات البعث والرجوع إلى الله جل وعلا؛ لقوله: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

١٢٩٨. فيها تعليم العباد الأدب في الإخبار عن الله ﴿نَبَّأَنَا﴾ دون (أخبرنا)؛ لأن (الخبر) ما احتمل الصدق والكذب بخلاف (النبأ) فلا يُطلق إلا على ما عُلم صدقه من الأخبار، ولما كان الله أصدق القائلين ناسب أن يقال: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ﴾، فلما أتى على ما كان صادراً عن المنافقين سماه: أخباراً! فقال: ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ لأنها تحتمل الصدق والكذب، بل هي إلى الكذب أقرب! فتأمل دقة القرآن في اختيار الألفاظ.

١٢٩٩. تفيد تهديدا أكيدا ووعيدا شديدا للذين يعتذرون بأقوالهم دون أن تقترن بالعمل؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا﴾ أي: بأقوالكم فقط؛ ثم قال: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي توبتكم وأعمالكم الصالحة إن كنتم صادقين في اعتذاركم..

١٣٠٠. تفيد أنه ينبغي للعبد أن يحرص بقدر ما يستطيع أن يتجنب ما يدعوا بعده للاعتذار، قولا كان أو فعلا؛ وأن يحاسب نفسه قبل الفعل أو القول، سواء كان سبب الاعتذار: مخالفة شرعية أو عرفية؛ ويؤيده حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (وإياك وما يعتذر منه" [١].

قال تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة:٩٥].

١٣٠١. تفيد بدلالة المناسبة بعض سلوكيات النافقين المريبة، فلما ذكر سبحانه اعتذار المنافقين ذكر هنا أنهم أكدوا هذا الاعتذار بالأيمان الكاذبة.

١٣٠٢. فيها الهجر والإعراض عن المنافقين وأمثالهم زجرا وتأديبا.

١٣٠٣. تفيد: وصفهم بالرجس لإثبات أن لا أمل من طهارتهم وإصلاحهم، إذ أنهم غير متنجسين؛ بل هم النجاسة بحد ذاتها.

١٣٠٤. النفاق والحلف بالباطل متلازمان مما يدل على عدم تعظيمهم لله، وعدم التفاتهم إلا لمصالحهم الذاتية..

١٣٠٥. ليست العبرة في النهايات بالدنيا، ولكنها بالآخرة.

١٣٠٦. فيها: كثرة الحلف دليل على قلة وقار الله في قلوبهم، وعلى ضعفهم في أنفسهم.

١٣٠٧. فيها: الاعراض عنهم إهانة لهم وتحقير وليس عفو أو مسامحة.

١٣٠٨. فيها: بيان مصير المنافقين في الآخرة.

١٣٠٩. فيها: أحكام الاسلام على الظاهر مالم يرد قرينة ثابتة.

١٣١٠. تفيد: عدل الله سبحانه؛ ووجه الدلالة في قوله: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، والباء للسببية..

---

(١) الجامع الصغير وزيادته ١/٤٤٤، وحسنه الألباني.

١٣١١. تفيد مع ما بعدها أن الحلف بالله تعالى يقطع الخصومة حالا ويؤدي إلى إغلاق القضية والاعراض عنها، ولكن لا تبرأ ذمة الحالف إن كان كاذبا في حلفه؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا﴾.

١٣١٢. تفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضوان الله عليهم كانوا في جهاد دائم في داخل الديار وخارجها، وفي حال السفر والمنقلب؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾. أي: رجعتم من جهاد الكفار وانقلبتم إلى جهادهم مرة أخرى..

١٣١٣. تفيد أن أعظم الأسلحة الدفاعية التي يستخدمها المنافقون ويتحصنون بها ضد جهاد المؤمنين لهم هو الحلف بالله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾.

١٣١٤. تفيد أن غير المتأهلين لقبول الإرشاد إلى الخير والتحذير من الشر ليس لهم إلا الترك والاعراض، لقوله تعالى: ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ قال أهل المعاني: إن هؤلاء طلبوا إعراض الصفح فأعطوا إعراض المقت.

١٣١٥. تفيد مع ما قبلها أن من علامات الاعتذار الكاذب أن يكثر المعتذر من الحلف بالله تعالى في حال اعتذاره.

١٣١٦. تفيد ضرورة عدم الركون إلى الظلمة وتجنبهم والاعراض عمن حقت عليه كلمة العذاب، وكانت جهنم مأواه ومستقره، لقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

١٣١٧. تفيد بيان أسلوب من الأساليب الراقية في تعامل أهل الحق مع طلبات ورغبات أهل الباطل، وذلك بتلبيتها لهم بصورة لا تتعارض مع قيمهم ومبادئهم وتعاليم دينهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾

١٣١٨. تشير الآية إلى عظمة الله تعالى؛ فهو الذي يُحلف به، وقد حلف به المنافقون لعلمهم أنّ المؤمنين يعظمون هذا الاسم العظيم..

١٣١٩. منها عدم تعظيم الله تعالى بكثرة الحلف به كذبا ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾..

١٣٢٠. تفيد مع ما جاء من بداية هذه السورة من قوله تعالى: (إنما المشركون نجس) وقوله تعالى ههنا: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾؛ أن المنافقين أعظم خطرا من الكفار والمشركين؛ وذلك لما تحتمله لفظة (الرجس) من دلالات ومعاني عديدة تفوق معنى النجاسة إذ تشملها وتشمل غيرها من المعاني والدلالات.

قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:٩٦].

١٣٢١. تفيد أن رضا الله تعالى هو الغاية العظمى، ومن أرضى الناس بسخط الله فقد خاب وخسر.

١٣٢٢. فيها إثبات لصفة الرضا لله تعالى.

١٣٢٣. عدل عن والله لا يرضى عنهم إلى﴿عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ إشارة إلى تعليق الحكم بالوصف وتعميمًا لكل من اتصف بذلك، وللقاعدة المشهورة في التفسير: " أنه إذا عُلق الحكم بوصف كان ذلك الوصف علة للتأثر به فيزيد بزيادة ذلك الوصف وينقص بنقصانه.

١٣٢٤. تفيد: أن غاية أماني المنافقين الاشتغال برأي الناس عنهم، وعكس ذلك المؤمنين الذين ارتقوا إلى منزلة التجريد.

١٣٢٥. تفيد: الرد على من يتوهم أن رضى المؤمنين لو رضوا عنهم يقتضي رضى الله، فإن ذلك رد نزعة مما يفعل الأخبار والرهبان في رضاهم وغضبهم وتحليلهم وتحريمهم الذي يعتقد أتباعهم أنه عن الله تعالى"[١].

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ٣/٣٧٧.

١٣٢٦. فيها: أن المؤمن لا يرضى عن الفاسقين ويبغضهم؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فرضانا عن القوم الفاسقين ليس مما يحبه الله، ويرضاه، وهو لا يرضى عنهم" (١).

١٣٢٧. تفيد أن على المؤمن أن يحكم بالظاهر، وأن يرضى ويقنع بالحلف بالله تعالى، والله يتولى السرائر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ أي: ترضوا عن حلفهم؛ وذلك لما وقر في قلوبكم من تعظيم الله تعالى وإجلاله، وأنه لا يجوز لأحد أن يحلف بالله كاذبا.

١٣٢٨. تفيد أن الله عز وجل لا يرضى لعباده الفسق والكفر والفجور والعصيان؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزُّمَر:٧]وقوله تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحُجُرات:٧]

١٣٢٩. تفيد: أن المنافقين جعلوا سلعتهم ترويج أباطيلهم بالأيمان الكاذبة فمما ورد في هذه السورة﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا﴾ ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا﴾ ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾. ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾. وغيرها كثير في سورة القرآن الكريم، يجده من طلبه في حديث القرآن عن المنافقين.

قال تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٩٧].

١٣٣٠. تفيد بدلالة المناسبة التشابه بين صفات المنافقين وأهل الكتاب، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فلما ذكر المنافقين الذين استأذنوه في التخلف عن الجهاد، في غزوة تبوك وذمهم، وهؤلاء كانوا من أهل المدينة...فقال سبحانه عن الأعراب: أنهم أشد كفراً ونفاقاً من أهل المدينة وأحرى منهم أن لا يعلموا حدود الكتاب والسنة، والحدود...الخ" (٢).

---

(١) الاستقامة ١٢٢/٢.

(٢) ينظر: اقتضاء الصراط المستقيم ٤١٧/١.

١٣٣١. تفيد أن على الداعي مراعاة خصائص المدعوين فمن يسكن البادية يختلف عن من يسكن الحاضرة.

١٣٣٢. تفيد أهمية العلم بخصائص المجتمعات والشعوب وما لها من صفات بما يؤكد أهمية علم الاجتماع.

١٣٣٣. تفيد: أهمية العلم والتفقه في الدين في تربية النفوس، فما استحق الاعراب وصمهم بالكفر والنفاق الا لبعدهم عن العلم والعلماء..

١٣٣٤. تفيد: مراعاة أثر البيئة على النفس البشرية وطباعها.

١٣٣٥. تفيد تقسيمات المجتمع وطبقاته سنة كونية لا يمكن إلغاؤها، واعتنت سورة التوبة بإظهار هذه التقسيمات وصفات كلٍ، وهذا يتناسب مع كونها من أواخر السور نزولا، وإعدادا لرسالة الإسلام لتخرج للعالم.

١٣٣٦. تفيد أن الأعراب أجْدَرُ أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله؛ وذلك لقلة سماعهم للقرآن ومجالستهم للنبي صلى الله عليه وسلم، فهم أجهل من المنافقين الذين كانوا بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم لأنهم قد كانوا يسمعون القرآن والأحكام، فكان الأعراب أجْهَلَ بحدود الشرائع من أولئك، وكذلك هم الآن في الجهل بالأحكم والسنن وفي سائر الأعصار وإن كانوا مسلمين؛ لأن من بَعُدَ من الأمصار ونَاءَ عن حضرة العلماء كان أجهل بالأحكام والسنن ممن جالسهم وسمع منهم؛ ولذلك كره أصحابنا إمامة الأعرابيّ في الصلاة"[1].

١٣٣٧. فيها أنَّ الكُفرَ والنِّفاقَ يَزيدُ وينقص، ويَغلُظُ ويخِفُّ بحسَبِ الأحوالِ والأماكن.

١٣٣٨. فيها أن أفعل التفضيل﴿أَشَدُّ﴾ و﴿وَأَجْدَرُ﴾ يحتاجان إلى معرفة أسباب تفضيلهم على غيرهم في الكفر، والنفاق ممن لم يأت النص عليهم: أهم أهل الحاضرة، أم أهل المدينة، فذكر الرازي رحمه الله في مفاتيح الغيب خمسة وجوه فليرجع إليها.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص /٣٥٣.

١٣٣٩. فيها إشارة إلى أن الأفضل ترك السكن في البادية لأنه السبب في ما ذكر؛ وفي الحديث: "من بدا جفا" [(١)].

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [التوبة:٩٨].

١٣٤٠. تفيد: تعليل لجدارة الأعراب بعدم علم حدود ما أنزل الله، بمعنى أن ذلك الحكم عليهم ليس لأنهم أعراب بل للصفات التي اتصفوا بها من شدة الكفر والنفاق واتخاذ ما انفقوا مغرما، والتربص بالمؤمنين الدوائر.

١٣٤١. تفيد: أن المال الذي لا يخرج عن طيب نفس، وانشراح صدر، وحسن قصد، وصلاح نية، يكون مغرماً على صاحبه، والعكس بالعكس في قسم ثان من الأعراب، لما انفقوا من أموالهم عن طيب النفس وانشراح الصدر كان مغنماً وقربة.

١٣٤٢. يفيد قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾ أنه دعاء عليهم وتحقير، ولذلك فُصلت. والدعاء من الله على خلقه: تكوين وتقدير مشوبٌ بإهانة لأنه لا يعجزه شيء فلا يحتاج إلى تمني ما يريده"[(٢)].

١٣٤٣. فيها أن المال من كواشف ما في النفوس من إيمان، وكفر، ونفاق من خلال الإقدام، أو الإحجام في بذله في سبيل الله.

١٣٤٤. تفيد سوء العاقبة التي تلحق الكافرين والمنافقين..

١٣٤٥. تفيد ثقل الأعمال الصالحة على المنافقين لأنهم نظروا إليها بغير منظور المؤمن، وفعلوها كرها.

١٣٤٦. تفيد: أن من فوائد تقلب الأحوال على المؤمنين كشف المندسين من المنافقين.

---

(١) الجامع الصغير وزيادته ١/١١٠٧، وصححه الألباني.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ١١/١٤.

١٣٤٧. تفيد الآية ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أحد أنواع معنى السمع الثلاث، فهو يأتي بمعنى الاستجابة، وبمعنى أدراك المسموعات، وبمعنى التهديد وهذا الأخير هو المراد بالآية الكريمة، فهو يسمع أقوالهم ويعلم ما يُضْمِرُونَهُ مِنَ الأُمُورِ الفاسِدَةِ الَّتِي مِنها تَرَبُّصُهُمُ الدَّوائِرَ.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩].

١٣٤٨. تفيد أن الذم ليس لمطلق الأعراب؛ بل هو لمن اتصفوا بتلك الصفات المذمومة، فالناس فيهم وفيهم، فالأعراب ليسوا سواء بل منهم كما في هذه الآية من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتقرب إلى الله عز وجل بمراضيه.

١٣٤٩. تفيد: أن الصدقة من أعظم القربات عند الله، وأنها من أسباب دخول الجنة، وبيان أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم.

١٣٥٠. فيها أن العيش في البادية لا يعني بالضرورة الجهل، وضعف التدين، وقلة الورع، بل هو من أسباب قوة الشكيمة في الحق والصفاء في الفكر غالباً.

١٣٥١. تفيد: بشارة لهؤلاء القوم برحمة الله لهم ودخولهم الجنة.

١٣٥٢. أن على المسلم أن يحرص على اخلاص العمل لله عز وجل.

١٣٥٣. فيها: بيان قدر العمل الذي يصل نفعه للآخرين.

١٣٥٤. تفيد: أن العيش في البادية تنعقد به أسباب الجفاء.

١٣٥٥. تفيد أن: البداوة بعد الهجرة معدودة في الكبائر، لحديث سهل بن أبي حثمة عن أبيه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول: اجتنبوا الكبائر السبع...وذكر منها، والتعرب بعد الهجرة" [١].

---

(١)الجامع الصغير وزيادته وحسّنه الألباني ١/ ١٥.

١٣٥٦. تفيد: الأهمية البالغة لاستيفاء التقسيمات وذكر الاستثناءات وعدم الاكتفاء بالتعميم. لما له من مضار واثار سلبية على رأسها الشعور بالظلم..

١٣٥٧. تفيد: جملة ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾مستأنفة مسوقة مساق البشارة لهم بقبول ما رجوه"[١]ويقابلها في الآية التي قبلها ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۚ﴾لإظهار فضل هؤلاء وزيادة بيان خيبة أولئك.

١٣٥٨. وتفيد: جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تذييل مناسب لما رجوه وما استجيب لهم. وأثبت بحرف التأكيد للاهتمام بهذا الخبر، أي غفور لما مضى من كفرهم، رحيم بهم يفيض النعم عليهم" [٢].

١٣٥٩. يفيد: اقتران الإيمان بالله واليوم الآخر أنهما من أعظم أركان الإيمان المحفزة للإخلاص لله تعالى في الأعمال والأقوال.

١٣٦٠. فيها: أن أفعال الله تعالى تدور بين فضله، وعدله لا ظلم فيها بوجه من الوجوه؛ فمن عدله بيان طائفة من أهل الإيمان والقربات الصالحة من الأعراب؛ وهؤلاء سيدخلهم في رحمته؛ وهذا من تمام فضله، كما أن فيهم طائفة من أهل الكفر، والنفاق، فإن عاقبهم فبعدله، ومن تاب إليه وغفر له ورحمه بفضله.

قال العلامة ابن القيم في كافيته

ما للعباد عليه حق واجب ... هو أوجب الأجر العظيم الشأن

كلا ولا عمل لديه ضائع ... إن كان بالإخلاص والإحسان

إن عذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله والحمد للمنان

(١) التحرير والتنوير ١١/١٦.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

١٣٦١. يفيد: تقديم اسمه الغفور على اسمه الرحيم؛ أن رحمة الله تُحجب بالذنوب فالمسارعة إلى طلب المغفرة من أعظم مفاتيح خزائن رحمة الله تعالى؛ يدل عليه قوله تعالى ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران:١٣٣] ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الحديد:٢١] فالذنوب تحول بين العبد ونيل رحمة الله ودخول جنته.

١٣٦٢. تفيد: الآية تتضافر أمة الجسد الواحد ففي مجتمع الفضيلة: فقر الفقير، ويتم اليتيم، وحاجة المسكين، برهان على إيمان الغني، فقد شهد الشارع لمن بذل لهم وأنفق عليهم بالإيمان، ووعده بالأجور العظيمة.

١٣٦٣. تفيد: أن الإيمان قول وعمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾.، وفي هذا رد على المرجئة.

١٣٦٤. تفيد أن نفقة العبد إذا لم يقصد بها وجه الله فإنها لا تنفعه في الآخرة.

١٣٦٥. تفيد وجوب إخلاص العمل لله تعالى؛ لقوله عز وجل: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾..

١٣٦٦. تفيد أنه لا حرج أن يقترن مع العمل الخالص لله تعالى من قبل العبد بغرض آخر (ديني أو دنيوي)؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾؛ وقوله تعالى في آية الحج: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ [البقرة:١٩٨].

١٣٦٧. تفيد أن دعوات الرسول صلى الله عليه وسلم، -ومن ورائه دعوات أهل الخير والصلاح- نافعة للعبد، ووسيلة لقربه من الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾، والضمير في الغالب يرجع إلى أقرب مذكور؛ وقد قال تعالى في الآيات التي بعدها: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ﴾ [التوبة:١٠٣].

١٣٦٨. تفيد مع ما قبلها أن المؤمن يؤدي حقوق الله تعالى بانشراح صدر، وطمأنينة نفس، ويسعى جاهدا أن تكون مغنما له لا مغرما..

١٣٦٩. تفيد فضل الله تعالى وكرمه على عبده حيث وفقه للإنفاق في سبيله وابتغاء مرضاته، ثم يدخله بعد ذلك في رحمته ومغفرته؛ فأي فضل وكرم بعد هذا الفضل والكرم الإلهي؟!.

١٣٧٠. تفيد أنه ينبغي للعبد المؤمن عدم السخرية أو الاستهانة أو الازدراء بأحد من المؤمنين بسبب شكله ولهجته أو خلفيته البيئية والوطنية؛ فقد يكون مقربا عند الله تعالى وأنت لا تدري؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾.

١٣٧١. فيها تربية على الإنصاف وعدم التعميم في الحكم؛ لقوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

١٣٧٢. فيها مع ما تقدمها بيان منهج القرآن الكريم في الترهيب، والترغيب بعطف أحوال السابقين الأولين ترغيباً على أحوال أهل الكفر والنفاق من الأعراب ترهيباً؛ لتحصل العبرة، والقدوة؛ والسير إلى الله تعالى بجناحي الخوف، والرجاء.

١٣٧٣. فيها بيان فضل السلف على الخلف.

١٣٧٤. تفيد أن الصحابة جمعوا بين المسارعة في الطاعات والأولية في الإسلام وبهذا فضلوا على من بعدهم فيها وأن السبق إلى الطاعة طاعة يستحق صاحبها الثناء فيها أن الصحابة سبقوا غيرهم في جميع أنواع الخيرات ويدل لذلك حذف معمول اسم الفاعل فيها فإن سبق الصحابة إلى الخيرات كان صفة راسخة وثابتة ويدل لذلك الجملة الاسمية.

١٣٧٥. فيها: أن رضا الله تعالى من أعظم الغايات وأجل المطلوبات وأرفع الرغبات.

١٣٧٦. فيها أن رضا الله تعالى لا ينال بالأماني بل بالعمل ومن أجل الأعمال الموجبة له نصرة هذا الدين وبذل المستطاع في تبليغه والذود عنه.

١٣٧٧. فيها بيان ضلال الشيعة ومحادتهم لله تعالى في اتهامهم للصحابة وبغضهم.

١٣٧٨. فيها: أن الجزاء من جنس العمل، فكان جزاء من تقدم بالهجرة التي هي مفارقة الأهل والعشيرة وهي من الأمور الشاقة على النفس وتقدم بالنصرة والتي فيها اعلاء كلمة الله والذين اتبعوهم بالإيمان والطاعة هو رضا الله عز وجل وهو من أجل وأعظم الغايات وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا.

١٣٧٩. تفيد أفضلية السابق على المسبوق، ولو كان العمل واحداً وهذا مثل: الجمعة لمن سبق، ومثل: الصبر عند الصدمة الأولى.

١٣٨٠. تفيد أن الاتباع لا يكون محمودًا إلا إذا صاحبه الإخلاص والصدق؛ فالمنافقون كانوا يتبعون أوامر الشريعة ويؤمنون ظاهرًا، ومع ذلك هم في الدرك الأسفل من النار.

١٣٨١. يفيد وصفه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ بـ ﴿ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ أن المقصود بالسبق هو السبق الزماني (الأولوية) وليس السبق بالكم أو الكيف، يؤكده قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [الحديد:١٠] وقوله صلى الله عليه وسلم: "فإنه لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه" (١).

١٣٨٢. يفيد: التفصيل بعد الإجمال يفيد رفعة مكانة السابقين لذلك عددهم من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم.

١٣٨٣. التفصيل بعد الإجمال يفيد تربوياً ضرورة ذكر أسماء المتفوقين لحثهم على المثابرة من جهة، ولجعلهم قدوة للآخرين من جهة أخرى..

١٣٨٤. فيها أن الأصل رضى الله سبحانه وما سواه من الجزاء تبع له.

١٣٨٥. فيها أن المهاجرين أفضل من الأنصار لتقديمهم في الآية.

---

(١) أخرجه البخاري٥/٨ ومسلم ٤/١٩٦٧.

١٣٨٦. فيها عموم فضل الصحابة الكرام لأن الله عز وجل أطلق فيهم بينما قيّد فيمن بعدهم أن يتبعوهم بإحسان فمن لم يتبعهم بإحسان لم يدخل في الفضل ويشمل ذلك الاتباع في الاعتقاد والأقوال والأفعال وغيرها..

١٣٨٧. فيها تحقق رضاهم عن ربهم سبحانه وتعالى ولذلك جاء بصيغة الماضي؛ (ورضوا عنه) والله أعلم..

١٣٨٨. الخيرون لا ينظرون للمدح بل للعمل فلم نعلم أن أولئك الصحابة وضعوا هذه الآية شهادة معلقة في منازلهم. ولم يتوقفوا عن العمل الصالح بعد نزولها..

١٣٨٩. فيها أن الحياة الدنيا مضمار سباق حقيقي، يشتمل على مكونات السباق وهي متسابقون، وهم المكلفون في كل زمان ومكان. فائزون بالسباق على اختلاف نتائج سبقهم، وفوزهم اتباع يسابقون غيرهم على خطى السابقين الأولين متخلفون عن السباق بسبب الكفر، والنفاق، والشرك وسائر المعاصي جوائز وحوافز السباق ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾الآية.

١٣٩٠. فيها أن الخلود الأبدي نعيم فوق نعيم؛ لأن الموت ينغص كل نعيم..

١٣٩١. تفيد أهمية دراسة سير المهاجرين والانصار والاقتداء بهم واتباعهم فيما كانوا عليه.

١٣٩٢. تفيد فضل الهجرة في سبيل الله.

١٣٩٣. تفيد فضل النصرة لدين الله وأوليائه في كل زمان ومكان..

١٣٩٤. تفيد أهمية اتباع منهج السلف وعدم الانحراف عنه عقيدة وعبادة.

١٣٩٥. تفيد أهمية إحسان الاتباع لمنهج السلف وعدم مخالفتهم في شيء مما كانوا عليه﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾.

١٣٩٦. تفيد خلود الجنة الذي وهو من لوازم خلود أهلها فيها.

١٣٩٧. تفيد أن نعيم الجنة لا يشبهه نعيم لا في قدره ولا في أمده فهو نعيم مقيم لا يحده الوصف.

١٣٩٨. تفيد أن الفوز العظيم والمبين يكون بنيل رضـــوان الله تكون والفوز بجنته، وهذا الذي شمر له المشمرون.

١٣٩٩. في الآية حجة ظاهرة في وجوب اتباع الصحابة الكرام في فهم القرآن والسنة..

١٤٠٠. تفيد فضـيلة الصـحابة رضـوان الله عليهم لأن جميع ما نحن فيه من التوحيد والهدى والاتباع والخير والصـلاح إنما هو بسـبب الصـحابة الكرام؛ لأنهم هم من حملوا الدين وبلغوه للعالمين.

قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة:١٠١].

١٤٠١. فيها من المناسـبة: أنه سـبحانه لما ذكر أهلَ السـبقِ في الإيمان ومدحهم وهم من أهل المدينة؛ عطف عليهم من يسـاكنهم المدينة، ومن حولها؛ فيشـبهونهم في الظاهر ويخالفونهم في الباطن؛ حتى يحذرهم المؤمنون.

١٤٠٢. تفيد: الآية الكريمة إنصـاف القرآن الكريم؛ وذلك حتى لا يفهم مما تقدم في الآيات السـابقة من ذم الأعراب؛ أن القرآن الكريم قد تحامل على الأعراب وأنه إنما يذمهم لسـكناهم البادية؛ فوضـحت هذه الآية الكريمة خطأ هذا المفهوم؛ وأن الأرض والبيئة لا تقدس أحدا؛ وأن الإنسـان إنما هو بعمله لا ببيئته وأرضـه، وأقرب إلى التمثيل من هذه الطائفة فقد كانوا بقرب الوحي وفي مدينة النبي صلى الله عليه وسلم فبدلا من أن يكون أعلام خير وسبق إلى الفضائل والمكرمات كما ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ مردوا على النفاق؛ فأصـبحوا في هذا المجال أعلاما وأهل خبرة وممارسة طويلة؛ فأصبحوا لا يقارنون بشدة نفاق من هم حول المدينة من الأعراب.

١٤٠٣. تفيد: لفت انتباه المؤمنين إلى بيان دقيق حالهم أي صـاروا مردة عاتين في النفاق أي خبراء فيجب أخذ أقصـى درجات الحذر والتيقظ، والتفطن لهم؛ حتى لا يؤخذ المؤمنون على حين غرة.

١٤٠٤. لفت الانتباه إلى وجوب الحذر من أعداء الإسلام.

١٤٠٥. عدم تعميم الأحكام ﴿وَمِمَّنْ﴾.

١٤٠٦. نقض دعوى علم الغيب.

١٤٠٧. فيها أن الأرض لا تقدس أحداً، فهؤلاء نسبهم الله تعالى إلى المدينة – طيبة الطيبة ومع ذلك وصفهم بأنهم: ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾.

١٤٠٨. تفيد: أن الشر والخير موجود في كل مجتمع إذ ليس النفاق مختص بالأعراب وحدهم.

١٤٠٩. تفيد: أنه لما كان هؤلاء مردة في النفاق خبراء دهاة فيه فقد يخفى عليكم حالهم أو بعض حالهم فلا تعلمهم ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ﴾ لما لهم من شدة العتو، والعداوة والدهاء، والخفاء؛ فهؤلاء أمرهم إلى الله أما أن يعلمك بهم، أو يكفيك شأنهم.

١٤١٠. تفيد: أن النفاق خفي جدا، ولخفائه خاف الصالحون على أنفسهم منه فكان عمر يقول لحذيفة ولذا قرر السلف قاعدة (لا يخافه إلا مؤمن ولا يأمنه إلا منافق).

١٤١١. تفيد: أن من قدر على خداع الناس، فلا قدرة له أن يخدع رب العالمين الذي لا تخفى عليه خافية..

١٤١٢. فيها إثبات عذاب القبر لأن قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ قيل: أي في الدنيا بالقتل والأسر وفي الآخرة في القبر (ثم يردون إلى عذاب عظيم) وهو عذاب جهنم.

قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٢].

١٤١٣. فيها من المناسبة لما قبلها، دقة التناسب فبعد أن ذكر الله عز وجل السابقين الأولين ذكر هنا من حصل منهم تقصير ومهد لذكر التوبة عليهم.

١٤١٤. الاعتراف بالاقتراف أول خطوات المغفرة فالآية ترشد المذنبين ووضح لهم طريقة خطوات تصحيح الخطأ فأولا بالاعتراف، وهو من شروط التوبة النصوح.

١٤١٥. فيها أن التوبة لابد أن تكون برغبة أكيدة من العبد بالاعتراف و الرجوع إلى الحق، كما جاء في سيد الاستغفار (وأبوء بذنبي فاغفرلي" [١].

١٤١٦. تفيد: أن الأمر يخلو من حاليين، إما الاعتراف والتوبة أو الاصرار والتبرير، والتأويل، فالأول معترف بتقصيره حيث جعله الله قريباً من العفو ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، ولفظة: ﴿عَسَى﴾ وهي من الله واجبة، والثاني عذر نفسه وبرر لها، وتأول وتحايل، وهذا جعله الله سببا للمسخ ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة:٦٥] ومجرد المعصية بالصيد في اليوم المحرم لا تستحق المسخ فقد جرى من بني اسرائيل ما هو أكثر من ذلك ولم يمسخهم الله، ولكن الاحتيال على النص بالتأويل ضاعف شناعتها عند الله جل وعلا.

١٤١٧. تفيد: أن توبة الله على المعترف بالذنب مستمرة؛ ووجه الدلالة من التعبير بالفعل المضارع الدال على الاستمرار، وذلك من فعل: ﴿يَتُوبَ﴾.

١٤١٨. فيها: بيان مرتبة الصدق العالية وأن الصدق هو الذي ينجي صاحبه وأن الكذب والاحتيال تؤدي بصاحبها الى الهلكة.

١٤١٩. فيها عدم القنوط من روح الله.

١٤٢٠. تفيد أن من رحمة الله أنه لم يأخذ العصاة مع تعمدهم لعصيانه واعترافهم بذلك.

١٤٢١. تفيد أن الهداية التامة إلى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب، ولا مع الإصرار عليها، فإن الأول جهل ينافي معرفة الهدى، والثاني: غي ينافي قصده وإرادته، فلذلك لا تصح التوبة إلا من بعد معرفة الذنب والاعتراف به وطلب التخلص من سوء عاقبته أولًا وآخرًا" [٢].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٧/٨،ومسلم ٥٣٤/١.

(٢) مدارج السالكين ١٩٧/١.

١٤٢٢. فيها رد على الجبرية لأنه نسب الذنوب إليهم فهي من كسبهم ولذا يحاسبون عليها..

١٤٢٣. تفيد: حلم الله عز وجل وأنه لا يعجل العقوبة للعباد مع استحقاقهم لها كونهم خلطوا الحسنات والسيئات ولذلك ختم الآية بقوله ان الله غفور رحيم.

١٤٢٤. وفيها: المسلم بين مخافتين رجاء وخوف، فلا بد من الخوف من الله، ورجاء ما عنده.

١٤٢٥. فيها: عظيم رحمة الله بخلقه؛ ووجه الدلالة من تذييل الآية الكريمة بذكر اسمين عظيمين من أسماء الله الحسنى: (الغفور)، و(الرحيم)..

١٤٢٦. تفيد: إثبات صفتي (المغفرة)، و(الرحمة) لله سبحانه على ما هو مقرر عند أهل السنة والجماعة، فإن أسماء الله يشتق منها صفاته جل وعلا، فباب الأسماء اضيق من باب الصفات، كما أن باب الصفات أضيق من باب الإخبار عنه جل وعلا.

١٤٢٧. تفيد الآية أن فيها من المحسنات البديعية ما يسمى بالاحتباك [١]، لأن المعنى خلطوا عملاً صالحا بسيئ وآخر سيئا بصالح، وهو كثير في آيات الذكر الحكيم الذي هو قمة البلاغة والفصاحة.

قال تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٣].

١٤٢٨. فيها: من تفضّل الله على الأغنياء بأن أعطاهم هذه الأموال، ابتلاء واختبارا، ومقدارها قليل لمجموع المال، فلم يطلب منك ربك أن تشرك الفقير في مالك، أو تناصفه، إنما هي مواساة لا مساواة فلا تمنعها، فتتعرض للعقوبة ويتعرض المال للنقص ونزع البركة.

فأشكر فضائل حسن الله إذ جعلت إليك لا لك عند الناس حاجات

١٤٢٩. فيها أن الصدقات تطهر وتزكي النفوس كما تطهر وتزكي الأموال، فجمع بين الأمرين: الطهارة والزكاة لتلازمهما.

---

(١) مأخوذ من الحبك الذي معناه الشد والإحكام وتحسين آثار الصنعة، وهو من المحسنات في علم البديع.

١٤٣٠. تفيد أنه لا فرق في المعنى بين كلمة صدقة، وكلمة زكاة، فالزكاة كمصطلح شرعي تسمى لسان الشرع صدقة، والصدقة زكاة، فهما مما يفترق فيه الاسم ويتفق فيه المعنى".

١٤٣١. فيها: أن دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم فيه تسكين للنفس وتطمين للقلب.

١٤٣٢. استخدام الصلاة بمعناها اللغوي. فيها دليل على أن الصلاة في اللغة هي الدعاء لأن المراد بالصلاة هنا الدعاء"(١).

١٤٣٣. تفيد الآية الكريمة، بأنها تصح شاهدا لما يطلق على المعنيين المعنى الشرعي، والمعنى اللغوي، وقدم فيه اللغوي، وقد يتفق المعنيان، وقد يقدم الشرعي. لا يعني، اختلاف المعنى الشرعي واللغوي، أنهما بمنأى فلا يبعد كثيراً المعنى اللغوي عن الاستعمال الشرعيّ بل هو عادة يكون جزء منه، إذ الدعاء قطعة من الصلاة. فأن يأتي القرآن بكلمة في وضعها اللغوي أو في وضعها الشرعيّ فلا غرابة، وقد يزيد عليها قيود، كما في معنى الصوم.

١٤٣٤. تفيد: عظم الصدقات عند الله عز وجل وعظم قدرها ومكانتها، وهي من أعظم الأعمال الصالحة وأجلها.

١٤٣٥. تفيد: أن الصدقة لها فائدتان، الأولى: أنها وسيلة لتزكية النفوس من الشغف بحطام الدنيا الذي هو من صفات المنافقين؛ فالصدقة تزكي قلب المتصدق لكي يقوى فيه مقام الإخلاص. والثانية: أنها وسيلة لتزكية المال من الزوال والقلة؛ فالصدقة ظاهرها تقليل للمال ولكن حقيقتها تكثير له".

١٤٣٦. فيها مع ما قبلها دليل على أن عمل الحسنات يطهر النفس ويزكيها من الذنوب السالفة، فإنه قاله بعد قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ [التوبة:١٠٢] (٢).

١٤٣٧. تفيد: عظم خطر المال فإن جل المعاصي سببها سوء استخدام المال الذي بين ايدينا؛ إما وضعاً في الحرام، أو إسرافاً وتبذيراً، أو انشغالاً عن الطاعات، لذا كان التطهير منه به، وجماع السلامة منه، أن تأخذه من حله، وضعه في محله.

---

(١) ينظر مجموع الفتاوى ٣٤٩/١.

(٢)أفاده شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٦٣٥/١٠.

١٤٣٨. فيها توجيه إلى الحرص على تزكية النفوس بالأعمال الصالحة ومن أعظمها الزكاة فإن تزكية النفس من مقاصد الشريعة العظيمة..

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١٠٤].

١٤٣٩. ما أعظمها من آية في الحث على الصدقة ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ فلا تنظر لمن أعطيته ولكن تذكر من أخذها وقبلها منك.

١٤٤٠. فيها: تشويق وترغيب من الرب الرحيم إلى التوبة والصدقة.

١٤٤١. فيها: بيان فضل الله عز وجل وكريم إحسانه في رحمته بخلقه بقبول توبتهم وغفران ذنوبهم.

١٤٤٢. فيها: بيان أن كلا من التوبة والصدقة تحط الذنوب وتمحوا الخطايا فالتوبة تجب ما قبلها، والصدقة تطهر النفس وتزكيها، وهو معنى التخلية قبل التحلية.

١٤٤٣. فيها: بيان أن من يتولى قبول التوبة وأخذ الصدقات هو الله جل شأنه.

١٤٤٤. فيها: أن التوبة عبادة بدنية، والصدقة عبادة مالية، ويستجمع التائب المتصدق عبادة البدن والمال وهو أحرى بالإجابة وقبول التوبة..

١٤٤٥. تفيد: الارتباط بين التوبة والصدقة، ففي كل منهما معنى التحويل فالتوبة تحويل للقلب إلى الله، والصدقة تحويل للمال إلى رصيد الآخرة، عبر يد المستحق، ومما يدل على عظم مكانة التوبة والصدقة ذكر الضمير "هو" مع ان اسم الجلالة سبق.

١٤٤٦. تفيد: تغليف التوبة والصدقة بالفضل الإلهي والمحبة الربانية وهذا أعلى أنواع الحث والتحفيز..

١٤٤٧. يفيد لفظ ﴿عِبَادِهِۦ﴾ فضيلة أن يكون الإنسان عبداً خاضعاً لله. أشرف ما يمكن أن يتصف به الإنسان هو العبودية لله تعالى، ويؤيده ويأكده أن الله وصف به نبيه صلى الله عليه وسلم في أشرف المقامات، كالعبودية، والدفاع عنه، وإنزال الكتاب عليه، والدعوة.

ولله در القائل:

ومما زادني شرفاً وتيهاً ... وكدتُ بأخمصي أطأ الثريا

دخـولي تحـت قولـك يا عبـادي وأن صَـيَّرْتَ أحمـد لي نبيـا

١٤٤٨. تفيد: أن منزلة العبودية، هو الرفعة الحقيقية والسعادة الأبدية، فمتى ما تمرد عنها العبد، وقد في رق الشيطان قال ابن القيم:

هربوا من الرق الذي خلقوا له فبلو برق النفس والشيطان

١٤٤٩. يفيد: سعة رحمة الله بعباده حيث نسبهم إليه سبحانه مع تقصيرهم ووجوب التوبة عليهم وهذا غاية في الكرم والرحمة..

١٤٥٠. يفيد: الفعل المضارع الحدوث والتكرار، وأن العبد إذا تكرر منه الذنب والتوبة؛ فإن التوبة من الله تتكرر أيضاً.

١٤٥١. تفيد فضيلة العلم، وشرف التعلم، ومكانة العلماء؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]

١٤٥٢. تفيد: وجوب تعلم العبد لأحكام العقيدة والشريعة؛ لتصح عقيدته وعبادته لربه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾.

١٤٥٣. تفيد مع ما قبلها ضرورة أن يقوم ولي الأمر وإمام المسلمين بتوعية العباد وتعليمهم مسائل الزكاة والصدقة ومقاصد الشريعة، وأهدافها في ذلك، وتبيين الآثار المترتبة من دفعها على المتصدق وعلى المجتمع؛ قبل أخذها منهم؛ لقوله تعالى في الآية التي قبلها: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ ثم قال ههنا: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، وهذا ما يسمى بالدليل المركب.

١٤٥٤. تفيد أن من عادة المرء أن يعرض عن الإتيان والإقدام بما لم يحط علما بقيمته وفوائده وآثاره؛ وعلى ما قيل: المرء عدو ما جهل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾.

١٤٥٥. يفيد تصدر الآية الكريمة بالاستفهام التقريري أن قبول التوبة وأخذ الصدقات من المسلمات.

١٤٥٦. فيها توجيه لطيف للتخطيط للتعليم والتعلم أن يكون التعريف بالله سبحانه على قمة أهداف التعليم كما تدل على ذلك الطريقة الاستفهامية في عبارة ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾.

١٤٥٧. يفيد تقدم قبول التوبة على أخذ الصدقة ضرورة أن يقدم العبد بين يدي صدقته توبة صادقة لله؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، الأمر لا يقتصر على أمر الصدقة، بل كل عمل، تريد له التوفيق فتقدمه بتوبة.

١٤٥٨. : في ﴿عَنْ﴾ دليل لمن يقولون بنيابة الحروف بعضها عن بعض، وهذا كثير في النصوص.

١٤٥٩. تفيد مع ما قبلها أن نسبة الأخذ إلى الله تعالى ههنا ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ ونسبتها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ فيها إشارة إلى أن أخذ الرسول عليه الصلاة والسلام قائم مقام أخذ الله تعالى؛ تعظيما لشأن النبي صلى الله عليه وسلم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:١٠].

١٤٦٠. تفيد أن الصدقة برهان للتوبة الصادقة.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:١٠٥].

١٤٦١. مناسبة الآية لما قبلها فإنه سبحانه لما ذكر الله تعالى قبوله للتوبة واخذه للصدقات أرشد هنا إلى أنه يعلم إخلاص العبد في كلا الحالتين من عدمه.

١٤٦٢. تفيد الآية من حيث السياق أنها في شأن المنافقين ولذلك يمنع من الاستشهاد بها فيما اعتاد عليه الناس من تعميمها.

١٤٦٣. تفيد أنّه مهما حاول المرء إخفاء سريرته السيئة فإنّ الله تعالى سيطلع عباده المؤمنين ويفضحه.

وقد قال زهير:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلمِ

١٤٦٤. إظهار العمل الصالح ليس كله رياء بل هو الرياء منه ما التفت فيه العبد لغير الله، ليكون لك شهداء، بل قد يكون اظهاره أفضل إذا كان في مقام الاقتداء والتأسي به وقد قال ربنا جل وعلا ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ [البقرة:٢٧١].

١٤٦٥. فيها منقبة لأهل الإيمان حيث جعلهم الله شهداء على عباده، من بين شهود الله في الأرض، ولو لم يقبل شهادتهم لما أشهدهم.

١٤٦٦. فيها أن الحكم على الآخرين يكون بما نراه من ظاهرهم ونكل بواطنهم إلى عالم الغيب والشهادة.

١٤٦٧. وفِيهِ تَحْذِيرٌ مِنَ التَّقْصِيرِ أَوْ مِنَ ارْتِكابِ المَعاصِي؛ لِأَنَّ كَوْنَ عَمَلِهِمْ بِمَرْأًى مِنَ اللَّهِ مِمّا يَبْعَثُ عَلى جَعْلِهِ يُرْضِي اللَّهَ تَعالى [١].

١٤٦٨. تفيد خروج الامر ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ إلى معنى فرعي وهو التهديد.

١٤٦٩. تفيد أن المراد من قوله ﴿فَسَيَرَى﴾ الرؤية هنا البصرية ولما كان البون شاسعا بين رؤية الله تعالى ورؤية المخلوقين وإن كانوا رسلا أو مؤمنين فصل بين الرؤيتين بإظهار المفعول به، فما أعظمه من كلام وما أجل من تكلم به.

١٤٧٠. تفيد أن رؤية المؤمنين لأعمالك الصالحة يجعلهم يقتدون بك في الصلاح وهذا فيه أجر عظيم ويشهدون لك عند الله تعالى، قال أَبُو مُسْلِمٍ: إِنَّ المُؤْمِنِينَ شُهَداءُ اللَّهِ يَوْمَ القِيامَةِ، كَما قالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾[البقرة:١٤٣].

١٤٧١. تفيد الحث على اتقان العمل واصلاحه إذا جعلنا هذه الرؤية مقيدة بيوم القيامة حيث ستكون موضع نظر الرسول والمؤمنين كذلك، فيكون فيها تهديد فقد نقل عَنْ مُجاهِدٍ أَنَّ الآيَةَ وعِيدٌ لِلْمُخالِفِينَ أَوامِرَهُ، بِأَنَّ أَعْمالَهُم سَتُعْرَضُ عَلَيْهِ تَبارَكَ وتَعالى وعَلى الرَّسُولِ والمُؤْمِنِينَ" [٢].

١٤٧٢. تفيد أن العمل الصالح الذي يكون خالصا لوجه الله الكريم وإن اخفاه العبد فإن الله يظهره للمؤمنين في الدنيا حتى يكون موضع ثناء ودعاء منهم.. وظاهر السياق يدل على أنه في الدنيا بدليل ما جاء بعدها ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾

قال الشاعر:

يخفي فضائله والله يظهرها إن الجميل إذا اخفيته ظهرا

---

(١) التحرير والتنوير ١١/٢٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٢٠٩.

١٤٧٣. تفيد من خلال خطابه ما يولد الهيبة والعظمة في قلب المؤمن قالَ أبُو السُّــعُودِ: في وضْعِ الظّاهِرِ مَوْضِعَ المضْمَرِ - أيْ: (حَيْثُ لَمْ يَقُلْ: إلَيْهِ) - مِن تَهْوِيلِ الأمْرِ، وتَرْبِيَةِ المهابَةِ، ما لا يَخْفى" [١].

١٤٧٤. تفيد ســعة وكمال علمه جل وعلا وأن علمه بالســر والجهر ســواء وهذا يفيده تقديم الغيب على الشهادة وهو مما يولد المراقبة والهيبة كذلك.

١٤٧٥. تفيد اليقين بالمرد إلى الله تعالى بعد الموت، والمحاسبة على كل ما عمله العبد الذي هو من لوازم الإخبار.

١٤٧٦. تفيد أن الدنيا دار عمل وأن الآخرة دار حساب وجزاء.

١٤٧٧. تفيد الترغيب في أعمال الخير والترهيب من أعمال الشـــر، فإن من علم أن عمله لا يخفى سواء كان خيراً أو شراً رغب إلى أعمال الخير وتجنب أعمال الشر.

١٤٧٨. تفيد بلاغة القرآن الكريم حيث جمع الله تعالى فيها بين الترغيب والترهيب وما يصــلح العقيدة والعبادة والسلوك.

١٤٧٩. قوله تعالى ﴿وَقُلِ﴾ تفيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم مبلغ عن ربه.

١٤٨٠. تفيد أهمية الإخلاص في العمل فهو عز وجل يدعونا للعمل ثم يخبر محذراً أن هذا العمل سيعرض عليه فلابد أن يكون خالصاً ومن الرياء بريئا من السمعة.

قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٦].

١٤٨١. تفيد أن الندم وحده غير كاف في صــحة التوبة، إذ لا شــك أن الله عز وجل يتوب على من تاب؛ ولكن لما كان هؤلاء غير مستكملين لجميع لشروط التوبة لم يحكم بكونهم تائبين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ﴾؛ ويؤيده قوله تعالى في قصـــة ابني آدم: ﴿فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٣١]

١٤٨٢. تفيد: أن الله إن عذب أو رحم، فعلى ما يقتضيه علمه وحكمته.

١٤٨٣. تفيد أن العباد يجب أن يكونوا بين الخوف والرجاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ﴾، فهما كجناحي طائر، غلب أيهما هلك صاحبه.

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/١٠٠.

١٤٨٤. تفيد أن تعذيب أصحاب المعاصي عدل من الله تعالى، كما أن قبول توبتهم فضل منه سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾.

قال ابن القيم في النونية:

ما للعباد عليه حق واجب ... هو أوجب الأجر العظيم الشأن

كلا ولا عمل لديه ضائع ... إن كان بالإخلاص والإحسان

إن عذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله والحمد للمنان

١٤٨٥. تفيد أهمية استخدام أسلوب الإيهام والترديد كوسيلة من وسائل التربية والتهذيب وزرع القيم في النفوس؛ لقوله تعالى: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ فجعل سبحانه وتعالى أمرهم دائرا بين هذين الأمرين؛ وذلك لتربية وزرع قيم الخوف والرجاء في نفوس هؤلاء..

١٤٨٦. تفيد رحمة الله تعالى بعباده العصاة والمذنبين، حيث أعطاهم مهلة كافية يتمكنون فيها من الاختيار إما طريق العقوبة والعذاب، وإما طريق التوبة والرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ وفي قراءة ﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ أي مؤخرون وممهلون، ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾؛ ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر:٣٧]، وما أحرانا أن نضع هذه الهداية نصب أعيننا في هذه الأيام العصيبة التي اعتزلنا الناس فيها فنسارع إلى التوبة إلى الله تعالى، فما أشبه الليلة بالبارحة؛ وما أشبه هذه الأيام بأيام من نزلت فيهم هذه الآية من الثلاثة الذين خلفوا، حيث أمروا بالاعتزال والحجر في المنازل والبيوت، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا.

١٤٨٧. تفيد أن الفصل في جميع الأمور يتضح يوم القيامة.

١٤٨٨. يفيد: تقديم العذاب فيه زيادة تخويف وترهيب لهم ولذلك ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم تاب الله تعالى عليهم وهو التواب الرحيم.

١٤٨٩. يفيد ختم الآية بالاسمين الكريمين العليم والحكيم يدل على أن الله عز وجل ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق العذاب ومن هو أهل للتوبة و﴿حَكِيمٌ﴾ في حكمه وشرعه سبحانه وتعالى.

١٤٩٠. تفيد الأفعال المضارعة (يعذبهم، يتوب عليهم) تدل على استمرار ودوام هذه الأفعال كل لمن يستحق.

١٤٩١. ففيها إثبات الصفات الفعلية المرتبطة بالمشيئة.

١٤٩٢. تصح الآية الكريمة أن تكون مثالا لحمل المبهم على الواضح، لأنه قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ الآية "حيث أبهمت المرجون لأمر الله ووضحتها الآية الأخرى بقوله " ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة:١١٨] فوضحت هذه الآية بأنهم الثلاثة الذين خلفوا في غزوة تبوك.

١٤٩٣. سيقت الآية الكريمة لقصد الإبهامَ على السامع لقوله تعالى:" ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾؛ لأن " إما" لها خمس معان[1] منها الإبهام كما في هذا الموضع.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [التوبة:١٠٧].

١٤٩٤. فيها تحقير للمنافقين بالتعبير عنهم بالاسم الموصول

١٤٩٥. فيها: أن أهل النفاق وأعداء هذا الدين يتخذون وسائل خبيثة في ظاهرها الخير والصلاح وفي باطنها المكر والخديعة وتفريق المسلمين وأضعافهم.

١٤٩٦. فيها: من صفات المنافقين الذميمة والقبيحة الحلف الكاذب،

١٤٩٧. فيها: أن من أراد بالإسلام وأهله كيدا ومكرا فإن الله له بالمرصاد فيرد كيده عليه ويمكر به ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠].

١٤٩٨. فيها: حرمة تفريق المسلمين والسعي في الأضرار بهم.

---

(١)الأول: التخيير، نحو: كُلْ إمّا سمكاً وإمّا تمراً، أي: اِختَرْ أحدَهما، ولا تجمَعْهما.

الثاني: الإباحة، نحو: يا بُنَيَّ، اِقرأ إمّا كتاباً وإمّا ديوان شِعر، أي: قد أبحتُ لك قراءتَهما.

الثالث: الشكّ، نحو: غاب خالدٌ عن المدرسة إمّا مرّةً وإمّا مرّتين، إذا لم يُعلَم: أمرّةً غاب أم مرّتين.

الرابع: الإبهام، نحو: وآخرون مُرْجَوْنَ لأمر الله إمّا يعذبهم وإمّا يتوب عليهم (التوبة ٩/ ١٠٦)

الخامس: التفصيل، نحو: إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً (الإنسان ٧٦/ ٣).

١٤٩٩. تفيد أن الكلام الطيب لا يُصلح النية الفاسدة.

١٥٠٠. تفيد: فضح الله عز وجل أستار المنافقين واظهار قبح أعمالهم وسوء مقاصدهم.

١٥٠١. تفيد: سعة علم الله حيث أخبر بمقصد المنافقين من بناء مسجد الضرار.

١٥٠٢. فيها أن المنافقين يستخدمون الدين لضرب الدين. ويشيدون المشاريع الدينية لهدم الدين! فلا يغررك حُسن حديثهم، فقد نبأنا الله بصفاتهم وسماتهم فقال: ﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون:٤].

١٥٠٣. فيها: تنبيه إلى خطر العدو الداخلي.

١٥٠٤. فيها أن على المؤمن أن يكون فطنا لا ينخدع بمعسول كلام المنافقين وأمثالهم ولو حلفوا أغلظ الأيمان.

١٥٠٥. تفيد أن المساجد لها مقاصد عظيمة في الإسلام لا يجوز أن تنحرف عنها من تقوية المسلمين بالإيمان والعلم النافع وجمع كلمتهم، وغيرها..

١٥٠٦. تفيد أن النبي عليه السلام لا يعلم من الغيب إلا ما يخبره به الوحي.

١٥٠٧. تفيد معية الله تعالى لرسوله والمؤمنين بكشف خطط أعدائهم.

١٥٠٨. تفيد أهمية النظر في مقاصد من يؤسسون المؤسسات الدينية، وهل هي تعمل فيما يحقق مصالح الأمة والدين.

١٥٠٩. تفيد أهمية التباعد بين المساجد بما لا يؤدي لتفريق المسلمين، قال عطاء: لما فتح الله على عمر بن الخطاب الأمصار أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأمرهم ألّا يتخذوا في مدينتهم مسجدين مجاورا أحدهما لصاحبه.

١٥١٠. تفيد أن الباعث لهؤلاء القوم على بناء هذا المسجد أمور أربعة خطيرة، كل واحدة فيها مخاطر كبيرة على الإسلام والمسلمين: الأول: الضرار لغيرهم وهو المضارة. الثاني: الكفر بالله والمباهاة لأهل الإسلام لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق. الثالث: التفريق بين المؤمنين لأنهم أرادوا أن لا يحضروا مسجد قباء فتقل جماعة المسلمين وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الألفة ما لا يخفى. الرابع قوله ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ قال الزجاج: الإرصاد الانتظار.

قال تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة:١٠٨].

١٥١١. فيها معياران للتفضيل بين المساجد الأول: سبق التأسيس على التقوى، الثاني: محبة من فيه من الرجال للتطهر الحسي والمعنوي والمعنى أنهم على جانب عظيم من الإيمان ورعاية حقوق الإسلام.

١٥١٢. فيها: أن من صفات عمّار بيوت الله عز وجل أنهم يبالغون في الطهارة الظاهرة والباطنة.

١٥١٣. فيها: ثناء الله عز وجل على أولئك المؤمنين الصادقين ورضاه عنهم لما تحلوا به من حرصهم على التطهر بنوعيه.

١٥١٤. فيها: أن القصد والغاية السامية من بناء المساجد إنما هو لطاعة الله عز وجل وذكره وإقام الصلاة..

١٥١٥. في قوله تعالى﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ إشارة إلى معنى ما قيل: " ما كان لله دام واتصل ".

١٥١٦. وفي دخول حرف الاستعلاء على كلمة ﴿التَّقْوَىٰ﴾ دليل على أن الأعمال الصالحة ينبغي يكون الباعث عليها تقوى الله وطلب مرضاته، فتكون التقوى هي الأساس القوي الذي إذا بُنِي عليه العمل ثبت واستقام..

١٥١٧. تفيد فضل السبق لأبواب الخير ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾، وقد قال الله تعالى في آية أخرى ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة:١٠].

١٥١٨. ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾، ما كان أساسه باطلا لا يمكن تعديله مستقبلا، ولا يصلح له إلا هدمه من أساسه.

١٥١٩. يفيد تقديم الكيفية ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾، على التوقيت ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ دليل على أن الأفضلية والمكانة الأعلى للسبق النوعي تليها السبق الزماني. ومراعاة هاتين القاعدتين ههنا أساس عظيم في تقييم أي عمل او انطلاقة اي مشروع..

١٥٢٠. لا مجاملة في الدين ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

١٥٢١. تفيد جملة: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ تذييل، وفيه إشارة إلى أن نفوسهم وافقت خلقا يحبه الله تعالى. وكفى بذلك تنويها بزكاء أنفسهم[١]. وأطلقت المحبة في قوله: ﴿يُحِبُّونَ﴾ كناية عن عمل الشيء المحبوب لأن الذي يحب شيئا ممكنا يعمله لا محالة. فقصد التنويه بهم بأنهم يتطهرون تقربا إلى الله بالطهارة وإرضاء لمحبة نفوسهم إياها، بحيث صارت الطهارة خلقا لهم فلو لم تجب عليهم لفعلوها من تلقاء أنفسهم" [٢].

١٥٢٢. وعليه، من انجح وسائل التربية وغرس القيم؛ التحبيب فيها بشتى الوسائل، لا الاكتفاء فقط بعرض أهميتها أو فضلها. ومنه لا يكفي تدريب الصغار – مثلا – على الوضوء وتعريفهم بشروطه وفروضه، وإنما تحبيبهم فيه وليسبق هذا ذاك غرس محبة الشيء في النفس أسهل الطرق للالتزام بها وانتهاجها، لذا توجب أن تكون المساحة المخصصة في فضل ما نود تعليمه للصغار أكبر، وفي أثرها حتى يحبها المتعلم قبل أن يتعلمها.

١٥٢٣. تفيد النهي من الصلاة في مساجد الضرار، والنهي يقتضي التحريم والفساد.

١٥٢٤. تفيد فضل الله الصحابة رضى الله عنهم لمحبتهم للتطهر الذي هو من أعظم خصال أوليائه.

١٥٢٥. تفيد البعد عن مواطن المعصية والشبهة.

١٥٢٦. تفيد أن المؤمن يصاحب أهل الطهر والطاعة ويجانب أهل العهر والمعصية.

١٥٢٧. تفيد أن الطهارة والتطهر من وسائل جلب محبة الله تعالى للعبد.

١٥٢٨. تفيد محبة الله تعالى للمتطهرين من الذنوب والنجاسات عموما، ومن هنا يستحب أن يكون الإنسان دائما على طهارة لينال محبة الله تعالى..

١٥٢٩. تفيد أهمية الإخلاص من حيث تأسيس الشيء ومن حيث المتابعة بعد ذلك فلابد من وجود الإخلاص، والتأسيس من أول يوم كان في قباء مبني على الإخلاص لله وكل من قام وتطهر وصلى فيه كان يبتغي وجه الله وذلك بخلاف مسجد الضرار.

---

(١) التحرير والتنوير ١١/٣٣.

(٢) التحرير والتنوير ١١/٣٣.

١٥٣٠. تفيد: أن حرف الجر" من" يأتي لبدء الأزمنة كما نص عليه بعض أهل اللغة قال ابن مالك في الخلاصة:

بعّض وبيّن وابتدئ في الأمكنة بـ"مِن" وقد تأتي لبدء الأزمنة

١٥٣١. وفي الحديث" مطرنا من الجمعة إلى الجمعة" (١).

١٥٣٢. ومنه قول النابغة الذبياني:

تُخُيِّرَنَ مِن أزمان يوم حليمةٍ إلى اليومِ قدْ جُرِّبْنَ كلَّ التجاربِ

١٥٣٣. تفيد أن النبي عليه وسلم مسدد بالوحي في كل أفعاله﴿لَا نَقُمۡ﴾

١٥٣٤. تفيد هجر أهل المعاصي.

١٥٣٥. تفيد أن المساجد ينبغي أن تؤسس على التقوى الذي من أعظمه نشر التوحيد ومحاربة الشرك والكفر والمعاصي، والتصدي من خلالها على أهل الباطل.

١٥٣٦. فيها أن الرجال هم المخاطبون بعمارة المساجد.

١٥٣٧. تفيد أن الأعمال تعظم الله تعالى ويبارك فيها على حسب مقاصد من قاموا بها.

١٥٣٨. فيها أن العبرة بالمقاصد والمعاني لا بالشخوص والمباني.

١٥٣٩. تفيد أن محبة الله تعالى لعبده ونيل رضوانه لا ينالها إلا بأسبابها..

١٥٤٠. تفيد أهمية استصحاب النية الخالصة والمقاصد الحسنة في الأعمال منذ البداية ﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾.

١٥٤١. فيها فضل الأنصار وخصوصا أهل قباء الذين نزلت فيهم هذه الآية.

١٥٤٢. إيثار المضارع في قوله: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ يدل على حرصهم واستمرارهم على ذلك؛ ففيها فضل الدوام على الطاعة والطهارة خصوصا، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن" (٢)..

١٥٤٣. فيها إثبات صفة المحبة لله سبحانه وتعالى والرد على الجهمية والمعطلة.

---

(١) أخرجه البخاري ٢/٢٩.

(٢) صحيح الجامع وزيادته، وصححه الألباني ١/٩٦.

١٥٤٤. فيها فضل التطهر من النجاسة بالماء والحرص على ذلك لأن الآية الكريمة نزلت في مدحهم لهذه الخصلة.

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:١٠٩].

١٥٤٥. فيها: من المناسبة: أنها استكمالا للحديث عن الغاية والفرق بين المسجدين، كذلك بيان لأحقية الصلاة في المسجد الذي أسس على التقوى.

١٥٤٦. فيها: الاخلاص في أي عمل شرط لقبوله.

١٥٤٧. فيها: أن عمارة المساجد حسية ومعنوية.

١٥٤٨. فيها: الحث على عمارة المساجد والعناية بها حسيا ومعنويا.

١٥٤٩. فيها: العمل الذي لله يبقى ذخرا لصاحبه في الدنيا والآخرة.

١٥٥٠. تفيد خطورة وخطورة من بنى أبنية يضاهي بها مساجد المسلمين لغير العبادات المشروعة، من المشاهد وغيرها. لا سيما إذا كان فيها من الضرار والكفر والتفريق بين المؤمنين، والارصاد لأهل النفاق والبدع المحادين لله ورسوله- ما يقوى بها شبهها كمسجد الضرار"[(١)].

١٥٥١. فيها أن التقوى مدد من الله ومحض توفيقه لعبده.

١٥٥٢. فيها اسلوب تعليمي شيق وهو اسلوب المقارنات ينقل إلى مشهد يضطر فيه الخصم الاعتراف بالصواب.

١٥٥٣. فيها الدلالة على أن تقوى الله جدار متين ومبني عتيق لا ينهار ولا يتزلزل بالحوادث ولذلك من يتكئ عليه سينجو بخلاف من يعتمد على جرف هار ينهار به في النار مع أول اختبار.

١٥٥٤. تفيد عظمة كل بنيان أسس لنصرة الدين، ووهن كل بنيان أسس لحرب الدين، فهذه الْآيَةُ ضَرْبُ مَثَلٍ لَهُمْ، أَيْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى الشِّرْكِ وَالنِّفَاقِ. وَبَيَّنَ أَنَّ بِنَاءَ الْكَافِرِ كَبِنَاءٍ عَلَى جُرُفِ جَهَنَّمَ يَتَهَوَّرُ بِأَهْلِهِ فِيهَا..

---

(١)(اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٨٠٣).

١٥٥٥. فيها أن التفاضل بين المساجد يكون بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لمرضاة الله سبحانه وتعالى..

١٥٥٦. تفيد أن كل شيء ابْتُدِئَ بِنِيَّةِ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْقَصْدِ لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ فَهُوَ الَّذِي يَبْقَى وَيَسْعَدُ بِهِ صَاحِبُهُ وَيَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ وَيُرْفَعُ إِلَيْهِ، فكل عمل تريد له الخلود، والقبول فأخلص فيه، فإن كلمات يوسف عليه السلام خلف القطبان﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٠] خلدها الله في القرآن تتلى إلى يوم القيامة، وليس ثمت تصوير ولا توثيق، فقد تكفل الله بتوثيقها توثيقا من شك في مصداقيته فقد كفر وكذب وعاند وحاد الله.

١٥٥٧. تفيد أنّ الأعمال مهما كثرت أو عظمت لا تقبل عند الله تعالى ما لم تكن على أساس من الإخلاص الذي يبعث عليه تقوى الله عزّ وجل.

١٥٥٨. من ابتغى استدامة عمله وبقاء مشروعاته كافة لزمه الجمع بين السلوك التقي والقصد الرضي. فالآية جعلت أساس البنيان التقوى" وهو سلوك ممكن للباني" والرضوان " وهو مقصود يُرجى".

١٥٥٩. تفيد عظم بلاغة القرآن وهو يجمع في التنفير من عمل أهل الباطل بين ﴿مَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي هائر، فقبل ما تتصور نتيجة هذا البنيان يقول لك ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ﴾ ليجمع لك بين انهيار المبنى والباني، بما يجعلك تطمئن بضعف بنيان الباطل وسوء عاقبة أهله، لأن قوة البناء في الأساس الذي يقوم عليه والباطل لا أساس له يستند عليه..

١٥٦٠. تفيد أن العمل الخبيث يهوي بصاحبه في النار﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ﴾ أَيْ: سَقَطَ بِالْبَانِي ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ يُرِيدُ بِنَاءَ هَذَا الْمَسْجِدِ الضِّرَارِ كَالْبِنَاءِ عَلَى شَفِيرِ جَهَنَّمَ فَيَهُورُ بِأَهْلِهَا فِيهَا" [(١)].

١٥٦١. تفيد أنه إذا كانَ الأساس غير وثيق لم يرْتَفع البُنيان ولم يثبت وإذا تهدم شَيْء من الأساس سقط البُنيان أو كاد فالعارف همّته تَصْحِيح الأساس وإحكامه والجاهِل يرفع في البناء عَن غير أساس فَلا يلبث بُنْيانه أن يسْقط.

١٥٦٢. فيها أن قبول الأعمال مداره علي التقوى.

---

(١) تفسير البغوي ٢/٣٩٠.

١٥٦٣. تفيد أن أساس التقوى يضمن بقاء العمل واستمراريته ولو كانت البداية ضعيفة، والنية الفاسدة تفسد استمرارية الأعمال مهما وفرة له من مقومات النجاح.

١٥٦٤. المؤسسات مبانيها بمعانيها. وكل عمل في الدنيا لا يطلب به الآخرة؛ فهو مشيد على جرف هار حقيقة أو حكما.. والداعية الموفق والتاجر الناجح والزعيم العاقل والسلطان الحكيم والمسلم الهميم مَن يقيم أموره كلها على المقصد الصالح والمعنى الفالح. ﴿عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ﴾، فثمة علاقة وثيقة بين المشاريع التخريبية وبين قلوب أصحابها.

١٥٦٥. فيها أن العمل المتين في الدين هو الذي يجمع بين المرهوب ﴿عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾ والمرغوب ﴿وَرِضۡوَٰنٍ﴾

١٥٦٦. تفيد خطورة العمل الباطل، فبعد أن يبين لك انهيارهما، يفاجئك أنه انهيار يهوي بصاحبه في نار جهنم، حتى يجمع لهم بين خسارة الدنيا والآخرة.

١٥٦٧. تفيد أن من أرادَ علو بُنْيانه فَعَلَيهِ بتوثيق أساسه وإحكامه وشدَّة الاعتناء بِهِ، فَإن علو البُنيان على قدر تَوْثِيق الأساس وإحكامه فالأعمال والدرجات بُنيان وأساسها الإيمان ومَتى كانَ الأساس وثيقا حمل البُنيان واعتلى عَلَيْهِ وإذا تهدم شَيْء من البُنيان سهل تَدارُكه [١].

١٥٦٨. تفيد أن المباني كما هي تحتاج إلى أساس حسي متين تحتاج كذلك إلى أساس معنوي متين. انهيار لما أسسوه في الدنيا قبل الآخرة؛ لتبقى كلمة الله هي العليا..

١٥٦٩. تفيد الآية قلَّة الثَّبَات والقرار وَسُوء الْعَاقِبَة لأعمال أهل الباطل بما يبشر أن العاقبة للمتقين..

١٥٧٠. وقد جمعت الآية في تصوير فني رائع بين المعقول والمحسوس، وشبهت المعنوي المفهوم بالمادي الملموس، فمن أسس بناءه بغرض ونية النفاق والكفر، كمن وضع أساس مبناه على شفا جرف هار، والنتيجة هي الانهيار المفاجئ.

١٥٧١. تفيد أن المباني تنقسم إلى قسمين مباني قَصَدَ بانيها بِبِنائِهِ تَقْوى اللَّهِ ورِضْوانَهُ، والبِناءَ الثّانِيَ قَصَدَ بانيها بِبِنائِهِ المَعْصِيَةَ والكُفْرَ، فَكانَ البِناءُ الأوَّلُ شَرِيفًا واجِبَ الإبْقاءِ، وكانَ الثّانِي خَسِيسًا واجِبَ الهَدْمِ.

---

(١) الفوائد لابن القيم ١/١٥٥.

١٥٧٢. تفيد أن الموفق من وفقه الله تعالى لأعمال أســـســـها على تقوى من الله ورضـــوانه، والمخذول من صرف همته في التأسيس لبنيان الباطل..

قال تعالى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:١١٠]

١٥٧٣. لما أرادوا تأسيس النفاق تأسيساً، ببنيانهم ذاك، كانت عقوبتهم شكاً راسخاً في قلوبهم لا يزول الا بزوالهم.

١٥٧٤. تفيد أثر الأعمال السيئة على القلوب بما تورثه من الحسرة والندامة والريب.

١٥٧٥. تفيد أنَّ الخَوْفَ الشَّـدِيدَ مِنَ العُقُوبَةِ العَظِيمَةِ يُوجِبُ انْصِـداعَ القَلْبِ وانْخِلاعَهُ، وهَذا هو تَقَطُّعُهُ، وهَذا حَقِيقَةُ التَّوْبَةِ، لِأنَّهُ يَتَقَطَّعُ قَلْبُهُ حَسْـرَةً عَلى ما فَرَطَ مِنهُ، وخَوْفًا مِن سُـوءِ عاقِبَتِهِ، فَمَن لَمْ يَتَقَطَّعْ قَلْبُهُ في الدُّنْيا عَلى ما فَرَّطَ حَسْـرَةً وخَوْفًا، تَقَطَّعَ في الآخِرَةِ إذا حَقَّتِ الحَقائِقُ، وعايَنَ ثَوابَ المُطِيعِينَ، وعِقابَ العاصِـينَ، فَلا بُدَّ مِن تَقَطُّعِ القَلْبِ إمّا في الدُّنْيا وإمّا في الآخِرَةِ" (١).

١٥٧٦. وفيه أثر الهم والجزع وعظم دورهما على صحة المرء، وأنه قد يودي بصاحبه إلى الموت.

١٥٧٧. في الآية استئناف لتعداد مساوئ مسجد ضرار، فبعد ذكر سوء الباعث إليه فسوء وقعه على الإسلام والمسلمين، تعداه لسوء عواقبه. كان بالإمكان أن يكون الأمر: لا تقم فيه أبدا. وكفى ولكن الهدف التربوي وهو التبيان والشرح لسبب النهي، حتى لا يبقى شك في نفس المتلقي.

١٥٧٨. تفيد بطلان قاعدة الغاية تبرر الوسيلة وحتى لا يجتهد مجتهد في إعمالها، فالظاهر أن الحاجة للمسجد، وظاهر هدم المصطفى عليه السلام له، بالإضافة للتساؤلات التي ستثيرها لولا الايضاح، قد يتلوها اجتهاد بجواز التعديل عليه ليصلح. فأتى البيان أن ما بني على باطل فهو باطل غير قابل للإصلاح او التعديل.. فأتى الكشف لعلم العليم، وأتى الحل من لدن الحكيم..

١٥٧٩. فيها أن الأعمال السيئة تفسد القلب.

١٥٨٠. فيها إشارة إلى العناية بالقلب والبعد عن ما يفسده ويوقعه في الريب والشكوك والشرك، فالقلب كثير التقلب وشديد التأثر، وفي هذا المعنى قول الشاعر:

---

(١) مدارج السالكين ١/٢٠٤.

ما سمي القلب قلبا إلا من تقلبه فأحذر من القلب من قلب وتحويل

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١].

١٥٨١. فيها عظمة الله حيث أنه هو من يملك النفس ومع ذلك يقوم بشـــرائها من المؤمن وبأعظم الأثمان وهو الجنة.

١٥٨٢. لا يقبل الله تعالى إلا النفوس المؤمنة.

١٥٨٣. تفيد الترغيب في الجهاد وبذل الأنفس والأموال في سبيل الله تعالى.

١٥٨٤. فيها أنّ القرآن الكريم مصدق لما قبله من الكتب المنزلة؛ حيث جاء وعد المجاهدين في سبيله بالجنة في التوراة والإنجيل والقرآن.

١٥٨٥. تفيد أن الكتب السماوية يصدق بعضها البعض.

١٥٨٦. تفيد: أن الجهاد سنة تتابعت عليها الأمم السابقة.

١٥٨٧. الجهاد كما يكون بالنفس يكون أيضا بالمال.

١٥٨٨. فيها دليل على جواز معاملة الســيد مع عبده، وإن كان الكل للســيد لكن إذا ملكه عامله فيما جعل إليه. وجائز بين الســـيد وعبده ما لا يجوز بينه وبين غيره؛ لأن ماله له وله انتزاعه [1].

١٥٨٩. فيها: كرم المولى وجوده فبالرغم من أنه خالق الأنفس وواهب المال، إلا أنه يعرض شراءها لا استردادها كرما منه واحتراماً لحق من ملكه اياها فيها..

١٥٩٠. فيها: عظمة الصياغة الربانية، التي جعلتنا نرى الموت وخسارة المال – بمقياسنا البشري – نراه تجارة رابحة مؤكدة بأعظم المواثيق، مستحقة للفرح والاستبشار بها.. فهي وإن كان العقل والإيمان يقر بذلك، الا ان الأسـلوب القرآني جعل مما ظاهره الألم والموت مكسـبا تتشـوف إليه النفوس.

---

(١) تفسير القرطبي ٨/ ٢٦٧.

١٥٩١. تفيد: ضـــرورة امتلاك الداعية لهذه الاداة لما لها من تأثير كالســـحر، وما أداته إلا الكلمات والألفاظ.. وإن ملكها فليتق الله بها، ولا تكون سبيلا للتلاعب بالناس والتأثير عليهم بما يريده بل بما يريده الحق سبحانه.

١٥٩٢. تفيد جملة: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ﴾: الأمر بإظهار البشـر والسـرور، وفيه اظهار انعكاس اليقين العقلي والإيماني على الســرور والاطمئنان النفســي، فبعد أن أيقن المؤمن – أحد المتعاقدين – بنجاح صـفقته من حيث الثمن والمواثيق المؤكدة لإتمام الصـفقة، حُق له أن يظهر أثر فرحه على محياه.

١٥٩٣. تفيد أن الله اشترى والعبد باع، إنها صفقة غاية في العظمة، لها خصوصيتها؛ امتازت بالتضحية.. والفضل.. والجزاء...

١٥٩٤. تفيد أن الجهاد بالنفس أعظم الجهاد لعظم مكانه النفس.

١٥٩٥. تفيد أهمية التلطف، وضرورة استعمال القول اللين، والموعظة الحسنة في الدعوة إلى الله وإلى طاعته ومرضـاته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾، ووجهه: أن المشتري لا يشتري إلا ما لا يملكه، والخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم عبيد الله تعالى وتحت تصرفه، وإنما ذكر سبحانه وتعالى الشراء تلطفا منه في الدعاء إلى طاعته ومرضاته.

١٥٩٦. تفيد جواز التأخير في الإيجاب والقبول بين المتعاقدين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾..

١٥٩٧. تفيد: سـعة رحمة الله تعالى بخلص أوليائه، وأصـفيائه، حيث جعل للصـفقة ثمنا، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال، وهو مالك الأنفس والأموال، وهذه نظير ما جاء في آيات أخر، أنه سـبحانه وسمى الله سـبحانه وتعالى الثواب أجراً؛ لأنه عز وجل تكفل للعامل بأن يجزيه على هذا العمل؛ فصار كأجر الأجير." [1].

١٥٩٨. فيها: بيان صفقة عظيمة فالمشتري هو الله جل جلاله البائع هو العبد المؤمن والسلعة النفس والمال ثمنها وقدرها أعظم الأثمان وأكبر وأجل الأعواض وهي جنات تجري من تحتها الأنهار وكتب البيع في أعظم الكتب وأجري العقد مع أشرف الرسل..

---

(١) تفسير الشيخ العثيمين ٣/٣١٣.

١٥٩٩. تفيد: أن أغلى ما يملك المرء في هذه الدنيا نفسه وماله والمؤمن الحق يجود بها ويبيعها رخيصة من أجل دينه وإعلاء كلمة الله، والذين باعوا هذه البيعة، وعقدوا هذه الصفقة هم صفوة مختارة، ذات صفات مميزة، لأنهم علموا عظم البائع، وعرفوا الطريق والتزموا به، وهو الجهاد والقتل والقتال، وعرفوا عاقبة أمرهم، وهي احدى الحسنيين، النصر أو الشهادة، فلله درهم وعليه أجرهم.

١٦٠٠. تفيد سنن الله في خلقه ومنها سنة المدافعة بين الحق والباطل. وسنه الابتلاء للفئة المؤمنة.

١٦٠١. تفيد مكانة الشهادة في سبيل الله تعالى، لكنها ليست هي القصد الأول للجماعة من الجهاد، فالمقصد الرئيس هو نصر دين الله؛ ولذا قدّم ما يدلّ على النصر بقتل الكافرين ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾ على ما يفيد الشهادة ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ (١)

١٦٠٢. تفيد مكانه الصبر والجلد على طاعة الله.

١٦٠٣. تفيد وتوطن أهل الجهاد على ربحهم ونيلهم من سيدهم أعظم الأجر حال الفوز أو الشهادة.

١٦٠٤. تفيد أن أعظم العقود والعهود وفاء ما كان بين العبد وربه لمكانه الرب من العبد وعظيم تفضله وجوده وعطائه.

١٦٠٥. تفيد عظم الجنة التي في سبيل الوصول إليها يهون كل غال ومحبوب (النفس والمال)..

١٦٠٦. تفيد الترتيب الزمني لنزول الكتب السماوية من الرب عز وجل التوراة فالإنجيل فالقرآن.

١٦٠٧. تفيد أعظم أسلوب في الترغيب للجهاد في سبيل الله.. إذا كان المشترى هو الله، والثمن الجنة، فماذا ينتظر المؤمن من الحوافز بعد هذا..

١٦٠٨. تفيد عظم المجاهدة بالنفس والمال والفكر وكل ما يملكه الإنسان في سبيل الله.

---

(١) تستقيم هذه الهداية على قراءة حفص: (بـ بـ د) وإلا فهناك قراءة أخرى (فَيُقَتَّلُونَ وَيَقْتُلُونَ). ولكن يزيل الاشكال بذكر القيد" ليس هو المقصد الأول للجماعة" حتى لا تتعارض من القراءة الثانية؛ والأصل أنه لا تعارض بين القراءتين، ويكون في ذلك جمعا بين ما دلت عليه القراءتان.

١٦٠٩. تفيد أن المواجهة للباطل سنة ماضية في الأرض يريد الله من وراء ذلك رفعة درجات الصادقين ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

١٦١٠. تفيد عظم صفاته جل وعلا الحسنى بما يدفع إلى الثقة واليقين بوعده وعهده﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾، فالجواب بلا تفكير اللهم لا أحد.

١٦١١. تفيد عظم الثواب الذي إذخره الله تعالى للمجاهدين في سبيله ﴿أَوۡفَىٰ﴾

١٦١٢. تفيد أَن أهل الْملَل كلهم أمروا بِالْجِهَادِ وَجعل ثوابهم الْجنَّة، فالجهاد سنة ماضية في الأمم..

١٦١٣. تفيد أن مصالح الدنيا والآخرة إنما تتحقق بالقيام والوفاء بالوعود والعقود والعهود. وما يتفرع من ذلك من حقوق وواجبات.

١٦١٤. فيها: الترغيب في الجهاد بما لا مزيد عليه فلا أَحْسَنَ ولا أَبْلَغَ مِن هَذِهِ الآيَةِ، لِأَنَّهُ أَبْرَزَهُ في صُورَةِ عَقْدٍ عاقِدُهُ رَبُّ العِزَّةِ، وثَمَنُهُ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ عَلى قَلْبِ بَشَرٍ، ولَمْ يَجْعَلِ المَعْقُودَ عَلَيْهِ كَوْنَهم مَقْتُولِينَ فَقَطْ، بَلْ إذا كانُوا قاتِلِينَ أيْضًا لِإعْلاءِ كَلِمَتِهِ، ونَصْرِ دِينِهِ، وجَعَلَهُ مُسَجَّلًا في الكُتُبِ السَّماوِيَّةِ، وناهِيكَ بِهِ مِن صَكٍّ" [(١)]..

١٦١٥. تفيد أن شرع من قبلنا شرع لنا إلا إذا جاء شرعنا بخلافه.

١٦١٦. فيها رد على من يجعل الجهاد خاص بالإسلام والمسلمين؛ بل هو فريضة مشروعة في سائر الأديان مثل الصلاة والحج وغيرهما..

١٦١٧. تفيد ايضا مكانة جهاد الكلمة وهي متضمنة في جهاد النفس ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ وهو من أعظم الجهاد وأن مصدر الكلمة كتب الله عز وجل وما اشتملت عليه من حق ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان:٥٢]

١٦١٨. فيها فضل هذه الكتب ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ قال السعدي: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ التي هي أشرف الكتب التي طرقت العالم، وأعلاها، وأكملها، وجاء بها أكمل الرسل أولو العزم، وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق..

---

(١) روح المعاني ٦/ ٢٦.

١٦١٩. فيها أن الجهاد في سبيل الله عز وجل والاستشهاد من أسباب الفوز العظيم؛ قال السعدي: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز أكبر منه، ولا أجل، لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم المقيم، والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات، وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة، فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو الله جل جلاله، وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها، وهو النفس، والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان.وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع، وهو أشرف الرسل، وبأي كتاب رقم، وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق" (١).

١٦٢٠. فيها الأمر بالإخلاص في الجهاد لقوله: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لا لغيره سبحانه وتعالى..

١٦٢١. فيها أن بذل النفس في سبيل الله عز وجل أعظم من بذل المال لتقديمه في الآية..

١٦٢٢. فيها أن قتل الكفار في الجهاد من أعظم القربات؛ لقوله: ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد:٤]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال:٦٧].

قال تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١١٢].

١٦٢٣. تدل بدلالة المناسبة أن مجيء هذه الأوصاف بهذا الكمال في هذه الآية عقيب آية الكبار أهل الجهاد والشهادة إشارة إلى أنه لا يمتطي صهوة جواد الحرب وخوض غمار تجارة بيع النفس إلا من تحققت هذه الصفات بأوج سؤددها فيهم

١٦٢٤. تفيد التدرج في الطاعات إذا صعب الالتزام دفعة واحدة، فما لا يدرك كله لا يترك كله.

١٦٢٥. فيها تصاعد وتتابع يفيد وجوب المتابعة والترقي على المسلم فقد بدأت الآية بالتوبة أي البداية ثم العبادة ثم الحمد ثم السياحة ثم الركوع فالسجود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم حفظ الحدود بمعنى حمايتها والدفاع عنها من نفسه ومن غيره. عندها يستحق البشرى التامة.

---

(١) تفسير السعدي ١/٣٥٢.

١٦٢٦. المدح والثناء من طرق التشجيع على العمل.

١٦٢٧. الإشارة دون التصريح، والتعميم دون التعيين والتخصيص، بالأسماء والأشخاص تجعل المرء يتلبس بالصفات الحسنة وإن لم يكن هو المقصود بالثناء ويترك السيئة وإن لم يكن المقصود بالذم.. لاعتقاد أن يكون هو المراد...

١٦٢٨. تفيد مشروعية البشارة بالخبر السار؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٦٢٩. فيها: سعة رحمة الله بعباده وفتح الابواب لعباده وفتحتنوع الطرق المؤدية للجنة بين الذكر.. والصلاة وغير ذلك...

١٦٣٠. فيها فضل الله عز وجل على عباده بتنويع الطاعات والعبادات ليجتهد كل إنسان فيما تيسر له.

١٦٣١. تشريف المذكورين.. بالتعريف (بال) فهم معلومون عند الله وإن جهل البشر أشخاصهم..

١٦٣٢. تسمية الحدود (بحدود الله) وإضافتها للفظ الجلالة يبث الخوف في النفوس من تجاوزها.. ويحرك الإحساس بمهابة الله وعظمة حرماته.

١٦٣٣. ابتدأت الآية المباركة بالتوبة

١٦٣٤. تفيد فضل التوبة حيث بدأ به صفات المؤمنين وهذا دلالة لما للتوبة من أهميه في تخليص النفس البشرية من اغلال عبودية الشهوة وآفاتها بالإضافة للتدرج فإن البداءة بالتوبة والختم بالبشارة. والتَّوْبَةُ هي حَقِيقَةُ دِينِ الإسْلامِ، والدِّينُ كُلُّهُ داخِلٌ في مُسَمّى التَّوْبَةِ وبِهَذا اسْتَحَقَّ التّائِبُ أنْ يَكُونَ حَبِيبَ اللَّهِ، فَإنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوّابِينَ ويُحِبُّ المتَطَهِّرِينَ، وإنَّما يُحِبُّ اللَّهُ مَن فَعَلَ ما أمَرَ بِهِ، وتَرَكَ ما نَهى عَنْهُ [١].

١٦٣٥. يفيد أن مقصود الآية توجيه أهل الإيمان إلى " العروج من الحضيض الجسماني إلى الشرف الروحاني".

---

(١) مدارج السالكين ٣١٣/١.

١٦٣٦. فيها فضل العبادة والتعبد؛ لقوله: ﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ وخصوصا في مثل هذه الأيام وهي أيام فتن وبلاء؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "العبادة في الهرج كهجرة إليّ"(١)، وقالوا في شرحه: في الزَّمنِ الأَوَّلِ زمنِ الهِجرةِ كانَ النّاسُ يَفِرُّون مِن دارِ الكُفْرِ وأَهلِه إلى دارِ الإيمانِ وأَهلِه، فإذا وَقعتِ الفِتنُ فإنَّ المرءَ يَفِرُّ بِدينِه مِنَ الفِتَنِ إلى العِبادةِ، ويَهجُرُ أُولئكَ الأَقوامُ في تلكَ الحالةِ، وهو أحدُ أَقسامِ الهِجرةِ..

١٦٣٧. فيها فضل الحمد، وقد جاء وصفهم بصيغة اسم الفاعل التي تدل على التجدد والاستمرار، فهم حامدون لله دائما في السراء والضراء، والحمد لله تملأ الميزان.

١٦٣٨. فيها فضل الصيام بلغنا الله وإياكم شهر الصيام؛ لقوله: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ وهم الصائمون في أصح وأشهر الأقوال.

١٦٣٩. تفيد: أن معنى السياحة في الآية في قوله: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ عَلى مَعْناهُ الظّاهِرِ الحَقِيقِيِّ، وهو السّائِرُونَ الذّاهِبُونَ في الدِّيارِ، لِأجْلِ الوُقُوفِ عَلى الآثارِ، تَواصُلًا لِلْعِظَةِ بِها والِاعْتِبارِ، ولِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الفَوائِدِ الَّتِي عَرَفَها التّارِيخُ" (٢).

١٦٤٠. كلمة ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ من الكلمات القرآنية التي لها دلالات كثيرة، وتنوعت فيها عبارات السلف بهذا السبب، وهذا كله تفسير بجزء المعنى، ولا يعني القول بواحد منها بطلان الأقوال الأخرى التي تتوافق مع اللغة ولا يوجد ما يمنعها، وهذه من الصناعة التفسيرية الدقيقة، وتأتي فيها قواعد مهمة منها (حمل كلام الله تعالى على أوسع المعاني)، والضرب في الأرض من أجل أخذ الدروس والعبر يدخل فيها وقد نص على ذلك عدد من أهل العلم، القاعدة في التفسير: أن الآية إذا احتملت معنيين على السواء، وليس بينهما منافاة وجب أن تحمل على كل منهما، لأن المتكلم بها وهو الله – جل وعلا – عالم بما تحتمله من المعاني(٣).

---

(١) أخرجه مسلم ٤/٢٢٦٨.

(٢) تفسير القاسمي ٥/٥١٢.

(٣) تفسير سورة الحجرات للعثيمين ١/١٧٥.

١٦٤١. يفيد وصمهم بصيغة اسم الفاعل، القنوت وهو الاستمرار والمداومة على الطاعة وهو ما يحبه ربنا ويرضاه " أحب الأعمال الي الله أدومها وإن قل" (١).

١٦٤٢. فيها فضل التعاون على الطاعات والاجتماع على القربات لأنها كلها مذكورة بصيغة الجمع.

١٦٤٣. يفيد بلاغة منهج القرآن في التفصيل في الخير وذكر أنواع الطاعات لكمال الاقتداء والمتابعة والتلبس بحال أهل الطاعات.

١٦٤٤. فيها فضل الأمر بالمعروف وأعلاه التوحيد، والنهي عن المنكر وأعظمه الشرك.

١٦٤٥. تفيد فضل الرجوع إلى الطاعة فالتائب هُوَ الرَّاجِعُ. وَالرَّاجِعُ إِلَى الطَّاعَةِ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الرَّاجِعِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ لِجَمْعِهِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ. "الْعابِدُونَ" أَيِ الْمُطِيعُونَ الَّذِينَ قَصَدُوا بِطَاعَتِهِمُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ.

١٦٤٦. تفيد فضل الرضا بقضاء الله وقدره؛ لأن معنى ﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ أَيِ الرَّاضُونَ بِقَضَائِهِ الْمُصَرِفُونَ نِعْمَتَهُ فِي طَاعَتِهِ، الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللَّهَ عَلَى كُلِّ حَالٍ، فينبغي للعبد ملازمة الحمد لله في كل الأحوال.

١٦٤٧. تفيد فضل الجهاد في سبيل الله تعالى قال عَطَاءٌ: السَّائِحُونَ الْمُجَاهِدُونَ.

١٦٤٨. تفيد سعة رحمه الله ورفقه بهذه الامة حيث أتي عز وجل بالصفات واتبع بعضها بعض غير عطف ليعلم أنها المراد مسماها دون كمالها ومنتهاها... وفي ذكر هذه الصفات متوالية على نمط الوصف دون العطف بالواو دلالة على تحقق هذه الصفات فيهم على أعلى درجات الكمال البشري بعد الأنبياء... ولذلك جاءت أغلب أسماء الله تعالى وصفاته في القرآن الكريم على نمط التعديد خبرا أو صفة للدلالة على بلوغه سبحانه الكمال المطلق في هذه الصفات.

١٦٤٩. في ذكر هذه الصفات بصيغة اسم الفاعل الذي دخلت عليه أل الموصولة دلالة على تحقق وجود هذه الصفات فيهم إذ اسم الفاعل هنا مع أل الموصولة على تقدير الفعل الماضي ولذلك يجوز عطف الفعل الماضي عليه في مثل قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [الحديد:١٨].

---

(١) أخرجه البخاري ١٥٥/٧، ومسلم ٥٤٠/١.

١٦٥٠. يفيد وضع المؤْمِنِينَ مَوْضِعَ ضَمِيرِهِمْ، لِلتَّنْبِيهِ عَلى أنَّ مَلاكُ الأمْرِ هو الإيمانُ، وأنَّ المؤْمِنَ الكامِلَ مَن كانَ كَذَلِكَ، وحُذِفَ المبَشَّرِ بِهِ لِلتَّعْظِيمِ، أوْ لِلْعِلْمِ بِهِ، لِقَوْلِهِ في آيَةِ الأحْزابِ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب:٤٧]

١٦٥١. كما يفيد مجيء الناهين عن المنكر معطوفا على الآمرين بالمعروف الدلالة على أن هاتين الصفتين لا تنفصل إحداهما عن الأخرى بحال والمعني الجامعون بين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فهي في الحقيقة صفة واحدة؛ لأن المقصر في شيء من ذلك إما راض بهدم الدين وإما هادم بنفسه، فيجب التجرد التام فيه لأن النهي أصعب أقسام العبادة لأنه متعلق بالغير وهو مثير للغضب موجب للحمية وظهور الخصومة، فربما كان عنه ضرب وقتل، فلذلك عطفها ولم يتبعها فقال: ﴿وَٱلنَّاهُونَ﴾ أي بغاية الجد ﴿عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

١٦٥٢. في هذه الآية دلالة على أن هؤلاء المتصفين بهذه الصفات هم أصحاب الفوز العظيم الذي ختمت بذكره الآية السابقة.

١٦٥٣. تفيد فضل التنقل في البلدان لأخذ الدروس العبر وهو أوسع معنى لكلمة فلِلسِّياحَةِ أثَرٌ عَظِيمٌ في تَكْمِيلِ النَّفْسِ، لِأنَّهُ يَلْقاهُ أنْواعٌ مِنَ الضُّرِّ والبُؤْسِ، فَلا بُدَّ لَهُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَيْها...وبِالجُمْلَةِ فالسِّياحَةُ لَها آثارٌ قَوِيَّةٌ في الدِّينِ" (١).

١٦٥٤. تفيد أهمية قوة العزم في القيام بأحكام الشرعة كاملة ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾.

١٦٥٥. في مجيء ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ بعد ذكر ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ في هذه الآية على هذا المعنى إشارة إلى أن هؤلاء القوم لا يمنعهم ما أبيح لهم من السياحة والضرب في الأرض من أداء حق الله بالركوع والسجود.

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة:١١٣].

(١) تفسير الرازي ١٦/١٥٤.

١٦٥٦. فيها استكمال لما بدأته السورة من البراءة من المشركين والمنافقين الأحياء ببيان المفاصلة الكاملة لمن مات منهم مشركاً ولو بالاستغفار؛ لأن الله قد قطع حكمهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨].

١٦٥٧. هذه السورة تسمى براءة. وهذه الآية تؤكد أن البراءة تشمل الأموات أيضاً ولو من القرابات وكان التطبيق العملي من النبي صلى الله عليه وسلم حينما قال:" اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، واسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَها فأذِنَ لِي" (١).

١٦٥٨. تضمنت الآية تحريم موالاة أهل الإشراك ولو كانوا ذوي قربى.

١٦٥٩. تفيد: أن من أعظم ما قد يسديه بعضنا لبعض هو الدعاء متى جمعنا الإيمان، وأعظم ما ينحرم منه ذوو القرابة الدعاء متى كان حالهم الإشراك.

١٦٦٠. فيها: ليس ثمة رابطة أعظم من رابطة الدين، فالأخوة الدينية مقدمة على الأخوة الطينية.

١٦٦١. تفيد: بشارة لأهل الإيمان حيث نالوا بإيمانهم دعوات تلحقهم في قبورهم من إخوانهم المؤمنين؛ الأقربين منهم والأبعدين.

١٦٦٢. تفيد: حجم البوار والخسار الذي يلحق للكافرين الذين ماتوا على كفرهم، حيث أنهم حرموا أنفسهم دعوات المؤمنين، ولو كانوا من الأقربين.. وبشروا بعذاب الجحيم.

١٦٦٣. فيها: جواز الاستغفار والدعاء لهم ما داموا أحياء، إذ لا يتبين كونهم من أصحاب الجحيم إلا بموتهم ولا سبيل لعلم ذلك في حياتهم لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ﴾

١٦٦٤. فيها إشارة الى تحريم الدعاء لمن مات مشركاً بالرحمة أو المغفرة؛ لأن هذا من باب الاعتداء في الدعاء، فكل ما لا يجوز شرعا، أو لا يمكن قدرا، فإنه الدعاء به من الاعتداء المحرم، لقوله تعالى" ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥].

١٦٦٥. فيها: أنه لا محاباة في دين الله، فلو أن الله أراد أكرام أحد من القرابة، لأكرم الانبياء وذويهم، فعلى العكس يبدأ بنهي النبي عليه السلام قبل نهي المؤمنين..

---

(١) أخرجه مسلم ٢/٦٧١.

١٦٦٦. وفيه مراعاة وجبرا لخواطر المؤمنين في أهليهم فلما يرون أن النبي صلى الله عليه وسلم على مكانته قد نهي عن ذلك سكنت نفوسهم في مصابهم بذويهم وعجزهم عن فعل شيء لهم..

١٦٦٧. تفيد: زيادة ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ للمبالغة في استقصاء أقرب الأحوال إلى المعذرة أي فأولى إن لم يكونوا أولي قربى، وهذه المبالغة لقطع المعذرة عن المخالف، وتمهيد لتعليم من اغتر بما حكاه القرآن من استغفار إبراهيم لأبيه" (١).

١٦٦٨. استدل بهذه الآية من قال: إن أبوي النبي صلى الله عليه وسلم ماتا كافرين؛ وعليه؛ فهؤلاء العلماء ذهبوا إلى أن جميع أهل الفترة ممن لم تبلغهم الدعوة معذبون في الجحيم؛ وقد احتج عليهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]؛ ووجهوا الآية والأحاديث الواردة إلى أن المراد هو عمه أبو طالب الذي تبين له بصريح عبارته عدم إسلامه؛ والعرب تقول للعم أب؛ وقد جاء ذلك في القرآن الكريم؛ كما في قوله تعالى ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾. ولأهل العلم في هذه المسألة كلام طويل وبسط عريض لأدلة كل من القولين.

١٦٦٩. فيها: لمحة بلاغية في قوله﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ فالنار لما كانوا مستحقين لها، باتوا أصحاباً لها، وفيها ما لا يخفى من زيادة الحسرة عليهم.

١٦٧٠. يفيد: ذكر مقام النبوة واتباع النبي من المؤمنين يفيد استنهاض الهمم للقيام بواجب الأنبياء وأتباع الانبياء من دعوه المشركين ولا سيما ذوي القربي قبل فوات الأوان ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ وذلك بعد الموت.

١٦٧١. فيها أن رابط الدين أعظم من رابط النسب وأن المؤمن البعيد أفضل من المشرك القريب نسباً.

١٦٧٢. تفيد استحضار نعم الإيمان والهداية ومقابلتها بالشكر لمسديها الرب جل وعلا وقد حرم منها الكثير ممن وجبت له النار ولم ينتفع بدعاء أو استغفار بعد الممات.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ١١/٤٥.

١٦٧٣. تفيد أن مات على الشرك، أنَّه من أهل النار، وبالموت تتبين النهايات.

١٦٧٤. تفيد جواز الدعاء للوالدين بالهداية ما داموا أحياء فلم يختلف أهل العلم في الدعاء للأبوين ما داما حيين، على أيّ دين كانا، يدعى لهما بالتوفيق والهداية، فإذا ماتا على كفرهما لم يستغفر لهما.

١٦٧٥. تفيد التأكيد على مبدأ الولاء والبراء الذي هو من موضوعات السورة البارزة، فلِما بَيَّنَ تَعالى في أوَّلِ السُّورَةِ وما بَعْدَها أنَّ البَراءَةَ مِنَ المشْرِكِينَ والمنافِقِينَ واجِبَةٌ، بَيَّنَ سُبْحانَهُ هُنا ما يَزِيدُ ذَلِكَ تَأْكِيدًا، حَيْثُ نَهى عَنِ الِاسْتِغْفارِ لَهم بَعْدَ تَبَيُّنِ شِرْكِهِمْ وكُفْرِهِمْ فَطَلَبُ المَغْفِرَةِ لَهم في حُكْمِ المخالَفَةِ لِوَعْدِ اللَّهِ ووَعِيدِهِ..

١٦٧٦. تفيد أن هداية القلوب بيد الله وحده تعالى لا يملك هبتها غيره تعالى، فجمهورُ المفسِّرين أنَّ هذه الآية نزلَتْ في شَأْن أبي طالب.

١٦٧٧. فيها من آداب الدعاء أن لايسأل الله تعالى ما منعه.

١٦٧٨. فيها توقير وإجلال للنبي صلى الله عليه وسلم ويظهر ذلك من ذكر ضمير الغائب دون ضمير الخطاب.

١٦٧٩. فيها أن الشرك من أكبر موانع الخير في الدنيا والآخرة.

١٦٨٠. تفيد أن حب النبي صلى الله عليه وسلم وحده دون إيمان لا ينجي صاحبه فمن المعلوم أن أبا طالب كان يحب النبي صلى الله عليه وسلم وينصره.

١٦٨١. فيها أن أعظم ما يقدم للأموات من المسلمين هو الاستغفار لهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤].

١٦٨٢. تفيد: مناسبة ظاهرة وهي انسجام هذه الآيات مع مقصود السورة؛ لأنه لَمّا بَيَّنَ مِن أوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ إلى هَذا المَوْضِعِ وُجُوبَ إظْهارِ البَراءَةِ عَنِ الكُفّارِ والمنافِقِينَ مِن جَمِيعِ الوُجُوهِ بَيَّنَ في هَذِهِ الآيَةِ أنَّهُ تَجِبُ البَراءَةُ عَنْ أمْواتِهِمْ، وإنْ كانُوا في غايَةِ القُرْبِ مِنَ الإنْسانِ كالأبِ والأُمِّ، كَما أوْجَبَتِ البَراءَةَ عَنْ أحْيائِهِمْ، والمَقْصُودُ مِنهُ بَيانُ وُجُوبِ مُقاطَعَتِهِمْ عَلى أقْصى الغاياتِ والمَنعِ مِن مُواصَلَتِهِمْ بِسَبَبٍ مِنَ الأسْبابِ.

١٦٨٣. فيها أهمية الوفاء بالعهد ولو كان لمشرك.

١٦٨٤. أن دين الأنبياء واحد، ولذلك جعل الله التكذيب برسول تكذيب لكل الرسل، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، فجعلهم الله مكذبين لجميع الرسل مع أنه لم يكن رسول غيره حين كذبوه.

١٦٨٥. بيان صدق إبراهيم عليه السلام لما علم أنه عدو لله تبرأ منه ومن الاستغفار له.

١٦٨٦. فيها: الانسان بين عقل وعاطفة، وتتنازعه محاب، ومتى ما قدم محاب الله نجى وأنجى.

١٦٨٧. فيها: درس تربوي بأن غير إبراهيم أولى بالترك.

١٦٨٨. فيها: ثناء الله عز وجل على خليله ابراهيم عليه الصلاة والسلام بصفتين عظيمتين وهما في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

١٦٨٩. فيها رفع الإشكال المتوهم بعد بيان أنه لا ينبغي للنبي والذين آمنوا معه أن يستغفروا للمشركين...فقد يقول قائل: كيف بدعاء إبراهيم عليه السلام لأبيه وهو على الشرك لذا أردف الله تعالى بهذه الآية لبيان حقيقة موقف إبراهيم عليه السلام مع أبيه وإزالة الإشكال المتوهم.

١٦٩٠. فضل الحلم والصبر على الناس وما يصدر منهم من سفاهة أو أذى.

١٦٩١. فيها نفى الشك والريب عن إبراهيم أنه استغفر لأبيه المشرك، وتتجلى فيها نصرة الله لأوليائه في الدفاع عنهم، وقد قال تعالى: فيها﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١]

١٦٩٢. فيها يجب التثبت والتحري في الحكم على الناس.

١٦٩٣. فيها يجب أن يعدل المرء إلى للصواب متى تبين له.

١٦٩٤. فيها لا قيمة للارتباطات والمعاهدات إذا اتضح لمخالفتها لشرع الله فيجوز نقصها والرجوع فيها.

١٦٩٥. فيها أن قرابة الرحم لا تنفع صاحبها في الآخرة، ما لم يتفقا في أصل الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:٢١].

١٦٩٦. فيها أن المؤمن لا يداهن في دين الله ولا تأخذه في الله لومة لائم، فهذا خليل الله الذي وصفه الله بأنه أواه حليم ومع ذلك لما تبين له أن أباه عدو لله تبرأ منه.

١٦٩٧. ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ﴾ تفيد التريث والتحقيق وعدم التعجل قبل بناء القرارات وهذا ديدن المؤمن الفطن.

١٦٩٨. فيها أن الأنبياء قد يجتهدون في الأحكام فإن إبراهيم عليه السلام فعل ذلك اجتهادا لا مخالفة لحكم أوحى الله إليه به.

١٦٩٩. فيها أن الهداية بيد الله يؤتيها من يشاء من عباده.

١٧٠٠. تفيد أن ضلال الأب لا يقدح في مقام الابن ومكانته.

١٧٠١. تفيد أن رابط الإيمان يعلو على كل رابط، وهو الباقي في الدنيا والآخرة..

١٧٠٢. تفيد أن الكفر لا ينفي صفة الأبوة.

١٧٠٣. تفيد شفقة ورحمة الأنبياء بوالديهم وأرحامهم.

١٧٠٤. فيها أن الهداية لا تورث وليست بيوتات كما هو عند أهل التصوف بل نعمه واصطفاء من عند الله وحده.

١٧٠٥. فيها الحث علي حسن مصاحبه الوالدين بالمعروف وحفظ حقهما وأن هذا لا يقدح في مفهوم الولاء والبراء.

١٧٠٦. تفيد الحث على الاتصاف بصفة الحلم، وَالْحَلِيمُ: الْكَثِيرُ الْحِلْمِ وَهُوَ الَّذِي يَصْفَحُ عَنِ الذُّنُوبِ وَيَصْبِرُ عَلَى الْأَذَى. وَقِيلَ: الَّذِي لَمْ يُعَاقِبْ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا فِي اللَّهِ وَلَمْ يَنْتَصِرْ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلَّهِ.

١٧٠٧. تفيد أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم شرعنا بخلافه.

١٧٠٨. تفيد الآية تأكيد وجوب الِاجْتِنابِ بَعْدَ التَّبْيِينِ، بِأَنَّهُ ﷺ تَبَرَّأَ مِن أبِيهِ بَعْدَ التَّبْيِينِ، وهو في كَمالِ رِقَّةِ القَلْبِ والحِلْمِ، فَلا بُدَّ أنْ يَكُونَ غَيْرُهُ أكْثَرَ مِنهُ اجْتِنابًا وتَبَرُّؤًا..

١٧٠٩. الإتيان بألفاظ في قوله ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ﴾ تفيد الفورية في الاستجابة لا مر الله بالبراءة من الكفار وأهل النفاق.

١٧١٠. تفيد التنبيه للاقتداء والتأسي بأبينا ابراهيم الذي وصف بأنه أمة.

١٧١١. إضافة العداوة لله ﴿عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ تفيد التنفير من موالاه الكافرين.

١٧١٢. تفيد عظم غيرة أبينا إبراهيم من أن يوالي أعداء الله ولو كان من أقرب الناس إليه.

١٧١٣. تفيد أن مبدأ الولاء والبراء مقرر في جميع الأديان بين المؤمنين والكافرين، وهو مبدأ إذا ضاع ضاعت هوية الأمة.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٥].

١٧١٤. فيها: فضل الله عز وجل وواسع رحمته وتمام عدله في أنه لا يضل عباده قبل أن يبين لهم ما يجب عليهم عمله..

١٧١٥. فيها: بيان كمال علم الله عز وجل في قوله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١٧١٦. تفيد أن الله ما كان ليعذب قوما حتى يبين لهم ما يأتون وما يذرون.

١٧١٧. تفيد الإعذار والإنذار من الله قبل أخذهم بالعقوبة.

١٧١٨. تفيد الغاية من إرسال الرسل من إقامة الحجة ووضوح المحجة والإعذار الي الله.

١٧١٩. تفيد هدايتي البيان والإرشاد في قوله ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ﴾ وهدأيه التوفيق ﴿لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ والتي لا يملكها إلا هو عز وجل

١٧٢٠. فيها كمال الشريعة الإسلامية وبيانها للحلال والحرام؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والشارع لا يفصل بين الحلال والحرام إلا بفصل مبين لا اشتباه فيه. كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[1]..

١٧٢١. تفيد مع ما قبلها أن الله عز وجل لا يؤاخذهم بما تقدم من استغفارهم لأقاربهم المشركين لأن النهي لم يكن نزل بعد.

١٧٢٢. تفيد أن الغافل وهو من لم يسمع النص والدليل السمعي على وجه واضح، لا تشويش فيه فهو داخل في هذه الآية وهو معذور وقد قال الله تعالى" ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]

(١)(مجموع الفتاوى ٢١/٥١٧).

١٧٢٣. تفيد فضيلة التقوى ومكانتها ومنزلتها، وأنها أعظم مقاصد الشريعة، وأقصى غاياتها في أوامرها ونواهيها، ولهذا تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾، ولم يقل مثلا: (ما يقولون أو يعملون).

١٧٢٤. تفيد أن السبيل الوحيد إلى تقوى الله تعالى ونيل منزلة المتقين هو باتباع ما بينه سبحانه وتعالى في كتبه وعلى ألسنة رسله وأنبيائه. وعليه؛ فإن أي ابتداع في الدين ليس له أصل فيما بينه سبحانه وتعالى في كتبه وعلى ألسنة رسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام، فليس طريقا إلى تقوى الله تعالى ونيل رضوانه، بل هو مردود على صاحبه.

١٧٢٥. تفيد أن الشرائع السماوية كلها مبينة لكل ما يتقي به العباد من غضب الله تعالى وبأسه وعقوبته في الدنيا والآخرة، لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾

١٧٢٦. تفيد خاتمة الآية الكريمة شمول الشرائع السماوية لكل ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم لكونها صادرة ممن شمل علمه كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾.

١٧٢٧. يفيد قوله تعالى أن هذا من أنواع العام الذي لم يدخله التخصيص، لعدة دلالات، منها كلمة ﴿بِكُلِّ﴾ والتي هي أم الباب في العموم:

١٧٢٨. عقد صاحب المراقي:

صيغة كل أو الجميع وقد تلا الذي التي الفروع

١٧٢٩. ومنه أن كلمة ﴿شَيۡءٍ﴾نكرة في سياق الإثبات فهي عامة، كما هو مقرر في علم الأصول.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [التوبة:١١٦].

١٧٣٠. تفيد عظمة الله عز وجل وسعة ملكه، وعموم قدرته.

١٧٣١. فيها إنكار وتوبيخ للذين يلجؤون لغير الله بالدعاء والاستعانة كمن يدعون الأموات ويطلبون منهم الحاجات؛ فإن هؤلاء الأموات لا يملكون شيئا والله تعالى له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير.

١٧٣٢. تفيد من لا يملك الإماتة والإحياء لا يستحق أن يعبد، ولذا جاءت عبارة علماء العقائد" أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية".

١٧٣٣. فيها بيان عجز الخلق مهما امتلكوا من المقدرات و الإمكانات المادية والعلمية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

١٧٣٤. فيها تقرير أن لا ولي ولا نصير من دون الله فليرجع العاقل اللبيب إلى ربه طواعيه.

١٧٣٥. فيها أن ليس لنا الا اياه في رفع البلاء ولن نجد مثله ولي لا نصير.

١٧٣٦. فيها تَحْرِيضٌ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ وَمُلُوكِ الْكُفْرِ، وَأَنْ يَثِقُوا بِنَصْرِ اللَّهِ مَالِكِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَمْ يَرْهَبُوا مِنْ أَعْدَائِهِ فَإِنَّهُ لَا وَلِيَّ لَهُمْ مِنْ دون الله، ولا نصير لهم سِوَاهُ" (١).

١٧٣٧. تفيد كمال تفرده جل وعلا بالملك والسلطان، لا شريك له ولا ند ولا شبيه.

١٧٣٨. تفيد بدلالة السياق الترغيب في الجهاد لكي لا يمتنعوا مخافة الموت، فإن ذلك بيده لا بيد غيره..

قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة:١١٧].

١٧٣٩. تفيد أهمية فهم المناسبة للوصول للهداية، لما استقصى في شرح أحوال غزوة تبوك، وبين أحوال المتخلفين عنها، وأطال القول في ذلك على الترتيب الذي لخصناه فيما سبق، عاد في هذه الآية إلى شرح ما بقي من أحكامها، ومن بقية تلك الأحكام أنه قد صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يجرى مجرى ترك الأولى، وصدر عن المؤمنين كذلك نوع زلة، فذكر- سبحانه- أنه تفضل عليهم، وتاب عليهم، في تلك الزلات، فقال- تعالى-: لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ" (٢).

١٧٤٠. فيها افتقار الجميع إلى توبة الله عليهم.. حتى خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام وأشراف أمته رضي الله عنهم.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٢٧.

(٢) تفسير الرازي ١٦/١٦١.

١٧٤١. فيها التزكية الربانية للمهاجرين والأنصار رضي الله تعالى عنهم حيث قرنهم الله تعالى بنبيه صلى الله عليه وسلم في التوبة والتزكية والتجاوز عن الذنوب.

١٧٤٢. فيها أن العبودية الحقة لله تعالى هي الطاعة والاتباع لنبيه صلى الله عليه وسلم في العسر واليسر والمنشط والمكره..

١٧٤٣. فيها أن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء وإن الفتن والقلاقل مدعاة للزيغ والانتكاس الا من ثبته الله تعالى ولذلك كان من دعاء الراسخين ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:٨].

١٧٤٤. فيها أنه قد يصل العسر والشدة بالمؤمن إلى دركات ضعف الإيمان فتدركه رحمة الله فينقلب حاله إلى سعادة ورخاء.

١٧٤٥. تفيد: الالتزام بالصبر فثباتك على الحق ساعة عاقبته الفوز بالسعادة.

١٧٤٦. فيها أن العسر مهما طال أمده فإنه لا يساوي شيئا أمام اليسر فضلا من الله منة. ولا يغلب عسر يسرين؛ ولذا سمى الله تعالى ما حصل من عسر في غزوة تبوك الذي استمرت شهراً سماه الله ساعة.

١٧٤٧. فيها فضل الصحابة وثباتهم في ساعات العسر خلافا للمنافقين.

١٧٤٨. فيها أن المواقف الضاغطة تترك آثار نفسية وعقلية عظيمة تؤدي إلى الخلل والاضطراب.

١٧٤٩. فيها أن اتباع الرسول والإيمان من أكثر أساليب المواجهة الإيجابية الواقية من الضغوط النفسية الكبيرة.

١٧٥٠. تدل على أن جميع الخلق مقصرون في حق الله لا يبلغون غاية عبادته إلا أن يتغمدهم الله برحمته.

١٧٥١. فيها أن منزلة التوبة من أعظم المنازل عند الله عز وجل؛ فقد وصف بها الأنبياء والصالحين، وهذه السورة تسمى سورة التوبة.

١٧٥٢. فيها فضل الصبر والسبق أيام المكاره والبلاء والعسرة وقلة الناصر وقد أثنى الله تعالى في آية أخرى على الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا..

١٧٥٣. تفيد فضل المهاجرين على الأنصار من خلال دلالة الترتيب، فالأولية لها مدخل في الأولية، والقاعدة أغلبية غير مطردة لما يرد عليها كقوله تعالى" ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠].

١٧٥٤. تفيد فضل اتباع الرسول في المنشط والمكره وهو من أعظم أسباب قبول الله تعالى للعبد ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾.

١٧٥٥. فيها عدم مخالفة الأمير والقائد في جميع الاحوال حيث ينتكس البعض عند العسر والابتلاء وساعات ظهور الفتن.

١٧٥٦. تفيد الآية أنّ من الناس مَن إيمانه قوي لا يتزعزع عند حصول المصائب والأزمات، يدلّ على هذا من الآية أنّ الله تعالى أثنى على المهاجرين والأنصار الذين اتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة العسرة ثم بيّن أن بعضهم كاد قلبه يزيغ بسبب الشدة التي كانت في تلك الغزوة، ولكن الله ثبتهم وتاب عليهم، وهذا يفيد انّ البعض الآخر ثبت ولم يتزعزع..

١٧٥٧. في الآية الكريمة رعاية لطبيعة الضعف البشري الذي ربما لا يستطيع كل الناس التغلب عليه ولو كانوا نجوما في سماء الإيمان.

١٧٥٨. فيها ما يناسب ما أشارت إليه الآية الكريمة من توبة الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى المهاجرين والأنصار التنبيه إلى الفائدة التي ذكرها شيخ الإسلام رحمه الله بقوله:(وليست التوبة من فعل السيئات فقط كما يظن كثير من الجهال، لا يتصورون التوبة إلا عما يفعله العبد من القبائح كالفواحش والمظالم، بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهي عنها، فأكثر الخلق يتركون كثيرا مما أمرهم الله به من أقوال القلوب وأعمالها وأقوال البدن وأعماله وقد لا يعلمون أن ذلك مما أمروا به" اهـ [١]، ولهذا يعبر بعض أهل العلم بهذا الذي ذكره شيخ الإسلام بقولهم: حسنات الأبرار سيئات المقربين..

١٧٥٩. تفيد أهمية مرافقة الصحبة الصالحة التي تعين العبد على المثابرة في الطاعات وفعل الخير وترك المعاصي، وخصوصا في أوقات الشدة التي تعاني النفوس فيها من شدة الخمول والكسل، وتشرف بعضها على الزيغ وترك الطاعة واستحباب الدعة والراحة؛ لقوله تعالى: ﴿فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾.

---

(١) جامع الرسائل لابن تيمية ١/ ٢٢٨.

١٧٦٠. تفيد فضيلة العمل الصالح والمثابرة على فعل الطاعات، وخصوصا في أوقات شدة البلاء وتعسر الحال، وهي من أعظم أسباب توبة الله تعالى على عباده؛ واسعادهم وتكفير سيئاتهم ورفع درجاتهم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾.

١٧٦١. فيها (التسمية) عند المدح والتحفيز، و(الإبهام) عند العتاب، وهذا من أعظم أساليب التربية.

١٧٦٢. تفيد تسميتها ب ﴿سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ الساعة في الحقيقة شهرا، والعسرة كانت عسرة من الماء، وعسرة من الظهر، وعسرة من النفقة؛ ومع ذلك يسميها المولى بذلك تشجيعاً وتحفيزاً على خوض أمثالها، فهي حقاً هينة مقابل ما يترتب عليها من أجر وعطاء..

١٧٦٣. فيها وصف المهاجرون والأنصار ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ للإيماء إلى أن لصلة الموصول تسببًا في هذه المغفرة وعليه التزام نهج المصطفى عليه السلام واتباعه؛ خير كله.

ولله در القائل:

كن في اتباع المصطفى مثل عصبة ... وراء خبير في ملغم بقعةِ

من ينحرف يردى ومن يتبع يفز ... وبين الردى والفوز زحف بخطوةِ

فالزم صفاته وإياك والملل ... إن يستطل الوصل وإن لم يستطل

فأجعله نصب العين والقلب ولا ... تعدل به فهو يضاهي المثلا

صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه.

١٧٦٤. تفيد أن لله تعالى ساعات فاضلات ومواسم خيرات معدودات محدودات، يمن بها على من يشاء من عباده، ويوفقهم فيها لطاعته ويستعملهم فيها لعمل قصير من أجل سعادة أبدية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾، والسعيد من وفقه الله تعالى لاغتنام هذه الساعات والمواسم.

١٧٦٥. تفيد ضرورة السير إلى الله تعالى عرجا ومكاسير، وعدم انتظار الوسع والسعة وتيسر الأحوال ووفور الصحة والعافية، فإن ذلك مدعاة للزيغ ومجلبة للشقاء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ

﴿ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾. وقال تعالى فيما تقدم من آيات في هذه السورة: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٤١]

١٧٦٦. تفيد الآية بيان فضل غزوة العسرة على غيرها من الغزوات.

١٧٦٧. فيها رحمة الله بالمؤمنين بعصمة قلوبهم من الزيغ في حال الشدة.

١٧٦٨. فيها التخويف والتحذير من زيغ القلوب؛ وزَيْغُ القلب هو انحرافه عن الصراط المستقيم، فإن كان الانحراف في أصل الدين، كان كفرا، وإن كان في شرائعه، كان بحسب تلك الشريعة، التي زاغ عنها، إما قصر عن فعلها، أو فعلها على غير الوجه الشرعي.

١٧٦٩. فيها أن المشقة والعسرة تزيد في فضل العمل والعامل، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة: "إنما أجرك على قدر نصبك"(١).

١٧٧٠. تفيد جملة: ﴿لَقَد تَّابَ﴾. إقالة ذوي الهيئات عثراتهم وألا نحكم على الآخرين في ساعات العسرة ولم نعلم حالهم أيام الرخاء.

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨].

١٧٧١. فيها: رحمة الله بعباده المؤمنين، وهذا يتجلى فيما يلي: الإتيان بـ: ﴿إِنَّ﴾ الدالة على التأكيد، وضمير الفصل: ﴿هُوَ﴾. تذييل الآية بصيغتي المبالغة: ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾

١٧٧٢. في الآية الكريمة تصحيح لما يتبادر للذهن من أن المقصود بالذين خُلفوا أي تخلفوا عن الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففي صحيح البخاري يقول كعب بن مالك رضي الله عنه ليس الذي ذكر مما خلفنا تخلفنا عن الغزو وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا"(٢).

١٧٧٣. فيها: أن الهم والغم يجعل الإنسان يضيق من نفسه ويشعر بضيق الأرض من حوله.

---

(١) أخرجه مسلم ٢/٨٧٦.

(٢) أخرجه البخاري ٦/٣، ومسلم ٤/٢١٢٠، تركوا وأخروا عن قبول التوبة في الحال، لما أتوا واعترفوا أمام النبي صلى الله عليه وسلم، فلم ينزل في شأنهم شيء إلا بعد خمسين ليلة. وعلّق ابن كثير رحمه الله على قول كعب بن مالك رضي الله عنه فقال: (فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها).

١٧٧٤. فيها: أن الصدق عاقبته حميدة فما نجا الثلاثة الذين خلفوا وتاب الله عليهم إلا لصدق حديثهم وإخبارهم بالأمر على حقيقته، ولهذا قال عمر رضي الله عنه، " لإن يضعني الصدق وقلما يضع، خير من أن يرفعني الكذب وقلما يفعل"(١).

١٧٧٥. تفيد: أن التزامهم الصدق كان سببا في نجاتهم، وأقالة عثراتهم، وكيف أن الكذب أردى أولئك الذين كذبوا الأعذار، وأوبق آخرتهم.

١٧٧٦. فيها: فضل هؤلاء الثلاثة الذين خلفوا حيث صدقوا وصبروا ولجأوا إلى الله عز وجل.

١٧٧٧. فيها: أنه لا ملجأ من الله إلا إليه.

١٧٧٨. فيها: دليل على هجران أهل المعاصي حتى يتوبوا.

١٧٧٩. تفيد: حسن ظن الصحابة الثلاثة بالله وصدق توبتهم واخلاصهم في اللجوء إلى الله عز وجل أدى إلى قبول توبتهم من الله سبحانه مكآفأه لهم.

١٧٨٠. تفيد أن حسن الظن بالله من أعظم أسباب الفرج والسعة، فينبغي للمؤمن يحسن الظن بالله في كل أحواله.

١٧٨١. فيها أن من صدق مع الله صدقه الله ووفقه وجعل له من همه وغمه فرجا ومخرجا، من قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

١٧٨٢. فيها أن المؤمن يرى الذنب كالجبال خلاف المنافق.

١٧٨٣. فيها أن العقوبة النفسية أشق على المؤمن من العقوبة البدنية.

١٧٨٤. تفيد: أن الظن يأتي بمعنى اليقين، وإنما حملناه على اليقين؛ لأن الله تعالى لا يتوب على غير الموقنين، وهذا أحد المعاني الثلاثة التي أتت في القرآن الكريم، ثانيها أنها تأتي بمعنى رجحان الاعتقاد، كقوله: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا﴾ [الفتح:١٢]، ثالثها أنها تأتي بمعنى الوساوس والخطرات القهرية، كما في قوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا﴾ [الأحزاب:١٠].

١٧٨٥. فيها أن من سعى إلى التوبة صادقا وفقه الله لنيلها وذلل له سبلها.

١٧٨٦. تفيد: عدم مؤاخذة الناس بالذنوب ووصمهم بالتقصير فربما تاب الله عليهم وبدل سيئاتهم حسنات، فلا أحد يتألى على الله ألا يغفر لفلان.

---

(١) أدب الدين والدنيا ص ٢٦٣.

١٧٨٧. تفيد: أنه كلما تفاقم الضرر واقترب الخطر، فلا ملجأ من الله إلا إليه.

١٧٨٨. فيها أن توبة العبد نعمة ورحمة وتوفيق من الله لعبده، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾.

١٧٨٩. فيها أن التوبة ترفع درجة العبد عند الله عز وجل كما حصل لهؤلاء الثلاثة رضي الله عنهم؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فتوبة المؤمنين واستغفارهم هو من أعظم حسناتهم وأكبر طاعاتهم وأجل عباداتهم التي ينالون بها أجل الثواب، ويندفع بها عنهم ما يدفعه من العقاب"[(١)].

١٧٩٠. تفيد أهمية التوبة ولذلك ورد الاستغفار عقب الصلوات والطاعات وأدبار الدعوات، وهو أحد الجوابر الثلاث التي تجبر ما يقع فيها من نقص وخلل، وثانيهما، سجود السهو، وثالثهما النوافل.

١٧٩١. تفيد تصوير انعكاس الروح على النفس فإن المذنب والمقصر ضيق النفس مكدر العيش وأن ملك الدنيا وبمفهوم المخالفة أن المؤمن منشرح النفس والصدر طيب العيش وأن كان ظاهر للناس بؤسه وفقره بمقومات الحياة الدنيا.

١٧٩٢. تفيد شمول القرآن الكريم حيث يهتم بالفرد من النواحي الروحية والجسدية والمعنوية النفسية.

١٧٩٣. تفيد سبق الإسلام العلم المعاصر في وصف وتشخيص النفس.

١٧٩٤. تفيد أن المؤمن الحق لا يزيده الابتلاء الا صقلا فهو كالذهب تزيده النار بريقا ولمعانا.

١٧٩٥. المعاقبة بالاعتزال وآثرها في الإصلاح، والهجر أنواع أعلاه الهجر الجميل وهو ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم مع هؤلاء الثلاثة، والذي تأتي ثماره وأكله وتؤمن فيه من تطاول الشر واستفحاله.

١٧٩٦. فيها ابتداء الله بالفضل والمن والعطاء على العباد، فلما امتحنوا تابوا ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ تجلت فيه المراعاة في المعاقبة وضع المعاقَب وجدوى العقوبة معه.

١٧٩٧. تفيد مع ما قبلها أن معالجة الخطأ أو الخطيئة وآثارهما المترتبة؛ أشد وأعظم وأقسى على النفس من فعل الحسنة والصواب، أو الاستجابة للأمر في وقته، وكما قيل: (الوقاية خير من العلاج)، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التوبة:١١٧] فجعل سبحانه وتعالى مدة

---

(١) مجموع الفتاوى ١٥/٥٣.

هذه الغزوة ساعة مع ما اشتملت من العسرة وشدة الحال، ثم قال تعالى عن الثلاثة المخلفين وحالهم في طول المدة التي استغرقت معالجة خطيئتهم بالرغم من صدقهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾، ثم لاحظوا أحبتي الكرام الفرق الكبير والبون الشاسع بين من قاموا بالاستجابة للأمر في وقته، حيث قال عنهم سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وبين هؤلاء الثلاثة الذين قاموا بمعالجة آثار خطيئتهم، حيث قال عنهم سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، واختصار هذه الهداية اللطيفة: (الوقاية خير من العلاج).

١٧٩٨. تفيد: حلا لإشكال طالما يردد من قليلي العلم والمعرفة، ومن يريد الظن في الشريعة فيقول وهي أن هذه الساعة التي وصفها الله بـ ﴿سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾ فماذا كان الهجر أكثر من خمسين يوما، والجواب أن لا يشترط أن تتساوى مدة العقوبة مع مدة الذنب، فالسارق يسرق في ثانية وقد يسجن في القوانين الوضعية سنة أو أكثر، والطالب يتعب سنة ويرسب في امتحان مدة ساعة ويعيد عاما كاملا وهكذا.

١٧٩٩. تشير الآية كذلك إلى أنّ أفضل أساليب مواجهة الضغوط النفسية مهما عظمت هو التوجه العقلي الروحي لمواجهة الموقف الضاغط والذي تمثل هنا في الظن القوي (التوجه العقلي). واللجوء لله تعالى (التوجه الروحي).

١٨٠٠. وضحت نقطة هامة هي مواجهة الضغط النفسي والتي تتمثل في الظن القوى أو التوجه العقلي.

١٨٠١. تفيد: أن الجزاء من جنس العمل، فهم رضي الله عنهم تخلفوا فخُلِّفوا، فكان في إرجاء البت في توبتهم عقوبة لهم من جنس عملهم.

١٨٠٢. فيها فضل العزلة وحاجة المرء الى عزلة مؤقتة لمراجعة النفس وتطهيرها من أدرانها – قسرية أو اختيارية – وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتحنث الليالي ذوات العدد في حراء وكما شرع الاعتكاف وساعة الجمعة والخلوة آخر الليل لمناجاة الله تعالى.

١٨٠٣. تفيد: معنى الآية ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ [الشرح:٥]، وأمر المؤمن الصادق دائما ينتهي إلى خير.

١٨٠٤. تفيد أثر الذنوب على قلب ونفس المؤمن، والطاعة بعكس ذلك.

١٨٠٥. تفيد أن السعادة هي سعادة القلوب، فلو ملكوا الدنيا لضاقت عليهم الأرض بما رحبت.

١٨٠٦. تفيد أهمية التزام الجماعة وعدم التخلف عنها.

١٨٠٧. تفيد عظم صفات الله تعالى المرغبة للإنابة إليه (تواب- رحيم) فلا ينبغي أن ييأس العبد من رحمته.

١٨٠٨. تفيد أن من الحكمة عدم ذكر اسم المذنب ﴿ٱلثَّلَٰثَةِ﴾.

١٨٠٩. تفيد أهمية بيان النماذج الصادقة للناس ليقتدوا بهم في حياتهم.

١٨١٠. تفيد أن المواقف المشرف تخلد أسماء الرجال الصادقين.

١٨١١. تفيد أن العبرة بكمال النهايات لا بنقص البدايات.

١٨١٢. تفيد أن صاحب الذنب قد يملك قلبا صادقا يرفعه عند الله أكثر من صاحب طاعة يفقد هذه المعاني الإيمانية.

١٨١٣. تفيد أن الله تعالى يبتلي بعد العباد ليقربهم منه ويرفع من درجاتهم في الدنيا والآخرة.

١٨١٤. تفيد أن توبة العبد فضل ومنَّة من الله تعالى عليه﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾..

١٨١٥. تفيد أن خيار الخلق قد تقع منهم أخطاء، فهم بشر لكن صفاتهم الكريمة تظل معهم ترفعهم وتردهم إلى سواء السبيل.

قال تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

١٨١٦. تفيد بدلالة المناسبة أهمية إبراز النماذج الصادقة ليقتدي بها الناس؛ لأنه سبحانه بعد أن ذكر النماذج الصادقة وما تحقق من صدقهم أمرنا أن نكون معهم.

١٨١٧. الصدق قد ينفع في الدنيا، لكن لا ينجي صاحبه في الآخرة إلا بوجود الإيمان والتقوى.

١٨١٨. التقوى في القلب كالمنظم في الأجهزة، يطلق الإنذار عند بداية الخطر، فهي مراقبة دائمة من العبد لنيته وأعماله.

١٨١٩. تفيد الحث على الصدق في الإيمان والقول والعمل وفي سائر الأمور؛ من خلال بيان ثماره والحث على صحبة أهله.

١٨٢٠. تفيد أن القرآن يهدي المؤمن لما ينفعه في الدنيا والآخرة.

١٨٢١. تفيد الأمر بالتقوى، والحث عليها وعلى ملازمتها والزيادة منها.

١٨٢٢. تفيد: أن من آمن واتقى وسلك طريق الصادقين في الدنيا بلغه الله منازلهم في الآخرة.

١٨٢٣. ابتدأت الآية بالنداء بوصف الإيمان وختمت بالصدق وكلاهما يكون باللسان والقلب والجوارح.

١٨٢٤. تفيد: الآية الحث على التمسك بمنهج السلف الصالح.

١٨٢٥. في الآية الكريمة بيان فضل الثلاثة الذين خلفوا رضي الله عنهم.

١٨٢٦. فيها أن الإنسان حتى لو بلغ مرتبة الايمان فإنه مخاطب كذلك بالتقوى والتزام الصادقين وقد قال الله لخاتم رسله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب:١]

١٨٢٧. تفيد: الصادق يمتحن في صدقه في الدنيا ويفوز في الآخرة.

١٨٢٨. تفيد: جملة ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ دون واصدقوا فيه تحفيز للمأمور وتذكير بالمتصفين بهذا الوصف المحمود من السابقين واللاحقين.

١٨٢٩. يفيد: الأمر بالصدق بعد النداء بوصف الإيمان يدل على أن الصدق من مقتضيات الإيمان.

١٨٣٠. فيها أن التوبة منزلة تحتاج إلى أفعال قلبية مخلصة تصل بصاحبها إلى درجة وصفه بالصادق.

١٨٣١. فيها أن الإيمان درجات فالمؤمن مخاطب بزيادة إيمانه بالتقوى واتخاذ الأسباب المعينة على ذلك.

١٨٣٢. فيها أن من أعظم أسباب الثبات وزيادة الإيمان اتخاذ الصحبة الصادقة.

١٨٣٣. فيها نداء مباشر للمؤمنين وفي ذلك تشريف وتكريم وقد وردت دون واسطة في القرآن لينتبه المؤمن أن علاقته بربه لا تحتاج إلى أي واسطة فالنبي الكريم بلغ الرسالة وأدى الأمانة لكنه بشر يموت وتبقى آيات القرآن حية ندية تخاطبنا مباشرة ولم ولم ترد ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الجاثية:١٤] الا مرة واحدة ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية:١٤]، وذلك لوردها في معرض الوساطة بين الفريقين.

١٨٣٤. فيها إشارة إلى التعاون على الخير وخصال الصدق والبر؛ لقوله: ﴿وَكُونُوا مَعَ﴾ الذي يدل على الاجتماع والالفة..

١٨٣٥. وتفيد معية النصرة للصادقين بالفعل أو القول أو التعاطف القلبي.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة:١٢٠].

١٨٣٦. فيها: من المناسبة: أنه لما أمر سبحانه المؤمنين بأن يكونوا مع الصادقين، فأن من مقتضيات الصدقة عدم التخلف عنه.

١٨٣٧. في الآية الكريمة رفع لشأن ومقام النبي صلى الله عليه وسلم وأنه يفدّى بالنفس فما دونها، ولا يتصور الإيمان الكامل مع الرغبة بالنفس عن نفس النبي صلى الله عليه وسلم.

١٨٣٨. فيها: عتاب من الله عز وجل لأهل المدينة ومن حولها من الأعراب الذين أسلموا وحسن إسلامهم في تخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في جهاده وغزوته.

١٨٣٩. فيها: أن على المسلم أن يؤثر رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسه ويقدم نفسه وما يملك فداء له صلى الله عليه وسلم.

١٨٤٠. فيها عظم فضيلة الإنفاق في سبيل إعلاء كلمة الله وفضل تحمل المشقات فيه.

١٨٤١. فيها: سعة فضل الله تعالى وعطائه للمجاهدين في سبيل الله، فيكتب لهم ظمأهم وجوعهم وتعبهم وغبار أقدامهم ومواطئها في غيظ العدو وكل ما يشق عليهم في مسيرهم المبارك.

١٨٤٢. فيها: بيان عظيم الثواب المترتب على الخروج في سبيل الله عز وجل.

١٨٤٣. في الآية فضيلة الجهاد في سبيل الله وأنها من أفضل الأعمال.

١٨٤٤. فيها شرف الجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم وأنها من أعلى المنازل.

١٨٤٥. دلت هذه الآية على أن من قصد طاعة الله كان قيامه وقعوده ومشيته وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله. وكذا القول في طرق المعصية، فما أعظم بركة الطاعة وما أعظم شؤم المعصية"[١].

١٨٤٦. فيها: أن تحمل المشاق والمتاعب في الجهاد والغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإحسان حيث عقب سبحانه وتعالى بعد ذكر الثواب بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

١٨٤٧. تفيد الآية بركة الطاعة، فمن قصد طاعة الله كانت كل حركاته، حسنات مكتوبة عند الله، فكل ما يقع من أعمال مباحة داخلة في العمل المتقرب به كأن تكون وسيلة للوصول له أو بسببه وقعت، وكل ذلك مع ملاحظة قوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي جعلها لهم قربات باعتبار شرف الغاية منها.

١٨٤٨. تفيد أن العتاب في حق القريب الذي ترجى منه النصرة والعون آكد من غيره، كما أن خذلانه في موطن تحب أن تنتصر فيه أعظم من غيره.

١٨٤٩. قال طرفة ابن العبد:

١٨٥٠. وظلم ذوي القربى أشد مضاضة** على المرء من وقع السهام المهند

١٨٥١. تفيد أن إغاظة العدو تعد من الجهاد في سبيل الله.

١٨٥٢. تفيد أن مجرد الصبر على المشقة في سبيل الله يعد من الإحسان الذي يثاب عليه.

١٨٥٣. تفيد أن لكل حرم حريم فأدخل من حول المدينة من الأعراب في الامر الشرعي والتوجيه الرباني.

١٨٥٤. فيها: فضل سكني المدينة ففي إضافتهم لها تشريف لهم وتعريف بنعمه الله لهم.

١٨٥٥. يفيد قوله تعالى ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ﴾ الآية مقروءة مع قوله تعالى ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢] فشمول مفهوم العمل الصالح ليشمل كل عمل ابن آدم ما بين الحياة والممات إذا ابتغى به وجه مولاه الكريم ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢]؛ وما جاء التنصيص عليه من الأعمال؛ فلشرفه، ومن قبيل النموذج والمثال اللائق بالمقام..

---

(١) تفسير الرازي١٦/١٦٩.

١٨٥٦. تفيد بضميمه ما قبلها أن النية الصادقة أصل الأعمال ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فإن صدق نية المؤمن أبلغ من عمله.

١٨٥٧. تفيد: أن النية المجردة عن العمل يثاب عليها العبد، ولا عكس، فإن العمل بلا نية لا قيمة له البتة، جاء في حديث جابر قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة فقال: إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم المرض" (١).

١٨٥٨. تفيد وجوب طاعة الأمير أو الحاكم متي ما استنفر الجماعة صونا للدين وحماية لحرمات الجماعة المؤمنة لا سيما إن كانوا قله.

١٨٥٩. تفيد مشروعية تعدد النوايا الصالحة في العمل الواحد وهو ميدان سبق فسيح لمن وفقه الله تعالي.

١٨٦٠. تفيد: الآية بضميمه ما قبلها من الآيات استنهاض لهمم المؤمنين للبعد عن صفات أهل النفاق والصدق في التزام الدين " صدق النوايا والأقوال والمواقف من الأعمال" والمسارعة في الطاعات والترقي في الإستمساك بشرائع الدين حتي ينالوا درجه الإحسان.

١٨٦١. فيها: عظم الجزاء من عظم البلاء، فالأجر على قدر النصب، لكن محدودية ادراكنا قد تحجب عنا، أن مواطن البلاء هي ذاتها محاضن العزة.

١٨٦٢. فيها: موافقة النبي صلى الله عليه وسلم من أسباب قبول العمل والفلاح.

١٨٦٣. فيها: إعلاء كلمة الله أعظم مطلوب.

١٨٦٤. فيها: ترغيب وتشويق للنفوس للخروج في سبيل الله للآثار المترتبة على ذلك من رفعة الدرجات وغيرها.

١٨٦٥. فيها: الأمر لهم بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم وثمن هذه الصحبة.

١٨٦٦. فيها: أن النبي صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

---

(١) أخرجه البخاري ٦/٨، ومسلم ٣/١٥١٨.

١٨٦٧. فيها تقسيم الناس إلى قسمين أهل المدينة والأعراب؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فجعل الناس قسمين: أهل المدينة والأعراب. والأعراب هم أهل العمود، وأهل المدينة هم أهل المدر"[١].

١٨٦٨. تفيد: أن العاقل يمكنه أن يحول عاداته عبادات، وكما قيل" عادات أهل اليقظة عبادات، وعبادات أهل الغفلة عادات.

١٨٦٩. تفيد الآية بأن الإيمان بالله تعالى واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم والجهاد في سبيل الله تعالى أهم من السعي في إشباع الحاجة للشرب والحاجة للطعام والحاجة للراحة.

١٨٧٠. فيها بيان إنهم أدوا ما عليهم من القيام بالجهاد مع رسول الله وَفي ذلك مدح لمن قام بذلك وعتاب في حق من قصر لمشاركته المكان.

١٨٧١. وفيها ما يدل على أن النصرة تكون أولى لبنى البلد الواحد من غيرهم، ولذا جعل العلماء أن مما يكون فيه الجهاد فرض عين، إذا هاجم بلده عدو، أو استنفر الإمام.

١٨٧٢. الآية تفيد أن على المرء ترتيب أولوياته وأهدافه وعليها يرتب حياته فحماية رسول الله صلى الله عليه وسلم والدين ومتعلقاته هي الأولى وغيرها من النفس وما يقومها من الاكل والشرب والراحة وما يندرج تحتها تلي ذلك.

١٨٧٣. تفيد أن المؤمن يقدم النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه وأهله والناس أجمعين.

١٨٧٤. فيها أنه يجب أن تستغل النفس وما يقومها من مأكل ومشرب وراحة في تحقيق الهدف الاول وغايته عبادة الله و في ذلك تتفاوت النيات ويشرح ذلك ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

١٨٧٥. في قوله تعالى ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾إشارة إلى وجوب استباق المؤمن إلى أن يتبوأ مواطن القوة التي تغيظ الكفار ويكون له الصدارة فيها.

١٨٧٦. فيها أيضا إشارة إلى أهمية التمكن من مواطن القوة الحسية والمعنوية فالقوة في الاقتصاد تغيظ الكفار كالقوة في السلاح، وقل مثل ذلك في القوة في الأخلاق والطب والتعليم وغير

(١)(مجموع الفتاوى ٢٤/١٢٠).

ذلك فكل مجال من هذه المجالات حين تطؤها قدم مسلمة وتستبق غيرها إليها مما يغيظ الكفار.

١٨٧٧. فيها أن إغاظة الكفار من أهداف ومقاصد الجهاد، لأنه دليل على تحقق النكاية وقد ورد في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم أهدى عام الحديبية في هدايا رسول الله صلى الله عليه وسلم جملا كان لأبي جهل في رأسه برة من فضة يغيظ بذلك المشركين" (١).

١٨٧٨. فيها الحرص على الازدياد من العمل الصالح بالضرب في كل عمل صالح بسهم.

١٨٧٩. في الآية إشارة إلى جملة من ألوان الجهاد وأنواعه وأنها يكمل بعضها بعضا فالظمأ والنصب والمخمصة إذا كان كل ذلك في سبيل الله واستباق الأقدام إلى المواطن التي تغيظ الكفار حسية كانت أو معنوية مثل النيل من الأعداء في القتال الذي هو جهاد بالسلاح ونحوه. وسيأتي ذكر بقية أنواع الجهاد في الآيتين التاليتين كالجهاد بالمال والجهاد بالكلمة والجهاد وبتعلم العلم وتعليمه ونحو ذلك.

١٨٨٠. يفيد تنكير العمل ووصفه بالصلاح ﴿عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ تعظيم له وتفخيم لشأنه وأنه لا يتطرق إليه الفساد ولا الخسران أبدا وفي ذلك أيضاء ثناء على أهله أهل العمل الصالح.

١٨٨١. وفي قوله ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ بلاغة الإيجاز أي كتب لهم به ثواب وأجر العمل الصالح.

١٨٨٢. وفي التعبير بالفعل الماضي كتب إشارة إلى تحقق أجر هذا العمل الصالح، وثبوت ثوابه لهم وفي بناء الفعل الماضي لما لم يسم فاعله، وعدم ذكر الفاعل لشهرة الفاعل وأنه لا ينازعه في هذا الفعل أحد إذ لا يملك كتابة جزاء العباد من ثواب أو عقاب أحد إلا الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:١٢١].

١٨٨٣. مناسبة الآية لما قبلها، أنه لما أخبر سبحانه في الآية الأولى أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح وأخبر في الثانية أن أعمالهم الصالحة التي باشروها تكتب لهم

(١) أخرجه أبو داود وحسنه الألباني ٢/٤١٦.

أنفسها والفرق بينهما أن الاول ليس من فعلهم وإنما تولد عنه فكتب لهم به عمل صالح والثاني نفس أفعالهم فكتب لهم "[1]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فذكر في الآية الأولى ما يحدث عن أفعالهم بغير قدرتهم المنفردة: وهو ما يصيبهم من العطش والجوع والتعب، وما يحصل للكفار بهم من الغيظ، وما ينالونه من العدو. وقال: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾فأخبر أن هذه الأمور التي تحدث وتتولد من فعلهم وفعل آخر منفصل عنهم يكتب لهم بها عمل صالح، وذكر في الآية الثانية نفس أعمالهم المباشرة التي باشروها بأنفسهم: وهي الإنفاق وقطع المسافة، فلهذا قال فيها: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم﴾ فإن هذه نفسها عمل صالح، وارادتهم في الموضعين جازمة على مطلوبهم الذي هو أن يكون الدين لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فما حدث مع هذه الإرادة الجازمة من الأمور التي تعين فيها قدرتهم بعض الإعانة هي لهم عمل صالح" [2].

١٨٨٤. فيها: بيان كرم الله سبحانه وتعالى؛ ووجهه قبوله من العبد العمل الصالح ولو كان يسيرًا، وهذا مستفاد من لفظة: ﴿صَغِيرَةً﴾.

١٨٨٥. تفيد أن الشرف والفضل والمكانة ينتظر منهم ويتأتى منهم ما لا يتأتى من هم دونهم.

١٨٨٦. تفيد كذلك عظمه كرم أكرم الأكرمين بأنه يجازي أهل الإحسان ب ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. فجاء بصيغه التفضيل ﴿أَحْسَنَ﴾

١٨٨٧. تفيد بضميمه ما قبلها أن جهاد النفس مقدم علي جهاد المال.

١٨٨٨. تفيد مقتضي اسم الله الشكور كونه يشكر ويقابل أعمال العباد القليلة بالأجر الكثير ويجزيهم عليها بأحسن ما عملوا.

١٨٨٩. تفيد هداية أهل الإيمان أنهم ينبغي عليهم أن يشتقوا من كمال الله "شكر القليل من الأعمال " ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً﴾ كمالاً يتقربون به إلي الله كما هو حال أبو الأنبياء الخليل عليه السلام ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل:١٢١]أي للقليل من نعم الله.

١٨٩٠. تفيد الترغيب في فعل الخيرات والإنفاق ولو كان بالقليل فقد قدم الله عز وجل القليل قبل الكثير من النفقة ثم أثبتها وبين أنه يجزي بأحسن منها.

---

(١)بدائع التفسير ٢/ ٣٨٣

(٢)(مجموع الفتاوى ١٠/٧٢٣- ٧٢٤)

١٨٩١. تفيد أن فيها فضيلة لأمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، فإذا كانت النفقة الصغيرة يثاب عليها بأحسن الجزاء فما الظن عندما جهز عثمان رضي الله عنه جيش العسرة بأكمله.

١٨٩٢. تفيد حاجة الجهاد للمال، فهو ميدان رحب للإنفاق.

١٨٩٣. فيها تحفيز لغير الأغنياء على النفقة في سبيل الله قدر استطاعتهم.

١٨٩٤. فيها وصف الأعمال الجزئية في الجهاد بأنها من أحسن الأعمال.

١٨٩٥. تفيد تهيئة نفوس المجاهدين للتعامل مع مشاق الجهاد باستحضار ثواب الآخرة.

١٨٩٦. فيها أن الشريعة راعت مقامات الناس من الفقر والغنى والقدرة فكل ينفق بحسبه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

١٨٩٧. الأفعال المضارعة تدل استمرارهم وحرصهم على هذه الأعمال الصالحة وعليه فيها فضل المواظبة على العمل الصالح والحديث: "أحب العمل إلى الله ادومه وإن قل"(١).

١٨٩٨. فيها مع ما قبلها التفريق بين العمل المباشر والأعمال المتولدة في الأجر والفضل؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فالإنفاق وقطع الوادي عمل مباشر فقال فيه: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ ولم يقل: به عمل صالح. وأما الجوع والعطش والنصب وغيظ الكفار وما ينال منهم فهو من المتولدات، فقال فيه: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ فدل ذلك على أن عملهم سبب في حصول ذلك، وإلا فلا يكتب للإنسان عمل بدون سبب من عمله، بل تكتب الآثار لأنها من أثر عمله، قال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ (٢) [يس:١٢].

١٨٩٩. فيها إثبات كتابة الأعمال والعناية بها.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢].

١٩٠٠. فيها مناسبة لما قبلها من تعدد أبواب الجهاد وأبواب البر ففتح هنا باب العلم والفقه.

١٩٠١. ومن محاسن هذا البيان أن قابل صيغة التحريض على الغزو بمثلها في التحريض على العلم إذْ افتتحت صيغة تحريض الغزو بلام الجحود في قوله﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ

---

(١) أخرجه البخاري١/١٧، ومسلم ١/٥٤١، واللفظ له.

(٢) (درء تعارض العقل والنقل ٩/٣٢).

ﵟٱلۡأَعۡرَابِﵞ [التوبة:١٢٠] وافتتحت صيغة التحريض على العلم والتفقه بمثل ذلك" [١] فهي إشارة لطيفة إلى تماثل الأمرين وضرورتهما وعظمة أجرهما.

١٩٠٢. توسط آية النفرة للتفقه في الدين – باعتماد هذا التفسير – توسطها لآيات الجهاد، إشارة إلى أن لا يغفل المؤمنون مهما كانت ظروف الامة عن الجانب التعليمي، فنبه تعالى على مقصد التوازن بين العلم والعمل.. وبين فريضة الجهاد.. وفريضة العلم

١٩٠٣. فيها إشارة إلى حراسة الحدود والاهتمام بها، وهي إنما تحرس بأمرين، اللسان، والسنان.

١٩٠٤. الفقه في العهد الأول هو العلم بأحكام الدين عامة...ويرجح الغزالي أن المقصود في الفقه في العهد الأول هو العلم عن الاخرة...بدلالة اقتران ﵟوَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡﵞ...التخويف والتحذير.

١٩٠٥. فيها: فضيلة تعلم العلم ونشره بين الناس وأنه من أفضل الطاعات وأزكى القربات.

١٩٠٦. فيها: بيان توزيع المهمات وأن على كل جماعة من أفراد المجتمع مهمة عليها أن تقوم بها حتى يحصل النفع للمسلمين جميعا يقول السعدي رحمه الله: أن على المسلمين أن يعدو لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها ويوفر وقته عليها ويجتهد فيها لتقوم مصالحهم وتتم منافعهم [٢].

١٩٠٧. فيها: دليل على فرضية العلم كفرضية الجهاد، وكلاهما فرض على الكفاية، وكما يتعين الجهاد لحالات، فأيضا يتعين العلم في حالات، فيأثم من لا يتفقه أو يعين على التفقه بعد الاستطاعة على ذلك، فلا بد من التذكير بمنزلة العلم والأمر بالتفقه كالنفور إلى الجهاد.

١٩٠٨. تفيد: أن من لوازم التعلم التعليم، ونقل الخير إلى الغير، فهؤلاء تفقهوا فأنذروا وكذلك الجن في الاحقاف ﵟفَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَﵞ [الأحقاف:٢٩] وكذلك نبينا ﵟقُمۡ فَأَنذِرۡﵞ [المدَّثر:٢] زكاة العلم الانفاق.

قال الإلبيري:

يزيد بكثرة الانفاق منه ... وينقص إن به كفا شددت

---

(١) التحرير والتنوير ٥٩/١١.

(٢) تفسير السعدي ٣٥٥/١.

١٩٠٩. يستفاد من الآية إقرار الفروق الفردية بين الناس.

١٩١٠. تفيد أن الشَّريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها.

١٩١١. تفيد أن أهل العلم حقًا هم أهل خشيه الله ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ مصداقا لقوله تعالي ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

١٩١٢. تفيد أن العلم قبل القول والعمل.

١٩١٣. تفيد مكانة التخصصية في مجتمع المؤمنين وأهميتها.

١٩١٤. هذه الآية استدل بها العلماء على أن الجهاد فرض كفاية مع كونه من أفضل الأعمال.

١٩١٥. تفيد الآية: أن الجهاد الذي جاء به الإسلام ليس كله جهادًا بالسيف، فهناك جهاد بالحُجَّة والبيان، وهو جهاد بالعلم، وهو المعني في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢]. فقوام الدين يكون بالعلم والجهاد.

١٩١٦. تفيد أن الجهاد جهادان جهاد السيف وهو الحماية والسياج، وآلة جهاد السيف هو العلم وإقامة الحجة والبرهان.

١٩١٧. التناسق و الترابط بين جهاد البيان وجهاد السنان... جهاد الحجة والبيان هو أعظم الجهادين لأن الله سماه ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢]؛ ولأن الله جعل الخروج لطلب العلم قسيماً للخروج للجهاد في قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾ الآية.

١٩١٨. فيها التنبيه على أن الغرض من التفقه في الدين هو دعوة الآخرين وتعليمهم بأمور الدين، لا الترفع على الناس وبسط النفوذ عليهم.

١٩١٩. فيها أهمية التوازن في حياة المسلمين " التوازن بين الجهاد في سبيل الله والفقه في دينه وتعليم الناس أمور دينهم".

١٩٢٠. تفيد أن تبليغ سنته صلى الله عليه وسلم لأمته أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو، لأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس وأما تبليغ السنن فلا يقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم" [١]؛ ذلك لأن المجاهدين يفتحون الأمصار والعلماء يفتحون القلوب.

---

(١)جلاء الأفهام ٤١٥

والمجاهدون يقتلون المشركين والعلماء يحيون الموتى من المشركين. وليس هذا تقليلاً من شأن ذروة الإسلام. ولكن لبيان فضل العلم ودور العلماء.

١٩٢١. تفيد بضميمه ما قبلها أن شأن التفقه في الدين لا يقل منزلة عن الجهاد في سبيل الله.

١٩٢٢. من هدايات الآية الدعوة للتبحر في العلم (فالفقه بمعنى العلم والفهم العميق للشيء).

١٩٢٣. فيها أن تخصيص الفقه بالذكر لا يعني اختصاصه به؛ بل إن الآية تنسحب علي الدعوة لتحصيل كل العلوم النافعة وإنما ذكر الفقه وقد غلب على علم الدين لسيادته ومكانته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلوم.

١٩٢٤. تفيد أن بناء هوية الأمة يتطلب بناء دين الأمة بناء راسخا وذلك باستنفار بعض ابنائها بالتفقه والرسوخ في العلم حفظ دين الأمة وصيانته بالجلاد والجهاد.

١٩٢٥. تفيد كلمة ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾أن الأمر بالتفقه في الدين واجب على المسلمين رعاة ورعية على الكفاية.

١٩٢٦. تفيد أن تحقيق مصالح الدنيا والآخرة إنما يقوم على العمل وتحصيله والدعوة اليه والعمل به.

١٩٢٧. تفيد أن عاقبه العلم خير ﴿لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾

١٩٢٨. تفيد ارتباط العلم بالجهاد وأنهما مكملان لأمر ظهور الدين ورسوخه وصيانته وأن تخلف العلم عن الجهاد تشويه لصوره الدين ونقائه

١٩٢٩. فيها التدرج في مستويات التعلم للوصول لأهداف عالية مثل التفقه، مما يدل على المرحلية في التعليم والتعلم.

١٩٣٠. فيها تحديد مجال التعلم ﴿ٱلدِّينِ﴾

١٩٣١. فيها كذلك النفر للعلم ويدل على وجوب الخروج في طلب العلم إذا لا يوجد في البلد من يقوم به.

١٩٣٢. في الآية تظهر المسؤولية الاجتماعية ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾ كلكم مسؤول.

١٩٣٣. فيها دليل على قبول خبر الواحد، لأن الطائفة تقال للواحد فما زاد [١].

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/٥٦.

١٩٣٤. فيها على من انتدب في مهمة كالإعارة والابتعاث والمنح وغيره من المهام الخاصة أو العامة من الحاكم أو غيره أن يرجع بعد استيفاء اللازم ولا ينشغل بمصالحه الشخصية؛ بل يرجع إلى قومه ليفيدهم بما وكل اليه.

١٩٣٥. فيها أن الله لا ينصر بالكثرة وإنما ينصر بمقومات الجهاد نوع المجاهدين المتفقهين فالعبرة بالكيف لا بالكم.

١٩٣٦. فيها احتياج الناس جميعا إلى التذكرة والعلم الموجب للحذر وأن كانوا في الجهاد فما سواهم أحوج ولا غنى للناس عن العلم مهما بلغوا.

١٩٣٧. دلت الآية على أن الخروج إلى الجهاد فرض كفاية ولو كان فرض عين لتعطلت كثير من مصالح الأمة من تضرر الأسرة وضياع الأموال والتربية والتعليم..

١٩٣٨. فيها البداءة في الدعوة والإنذار بالأقرب فالأقرب؛ لقوله: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤].

١٩٣٩. تفيد أن الأقربون أَولي بالمعروف ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾ ومعنى هذا مثل قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ﴾ [الأنفال:٧٥].

١٩٤٠. فيها الحذر من الله عز وجل ومن عقابه؛ لقوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾.

١٩٤١. فيها إشارة إلى الرحلة في طلب العلم؛ لقوله: ﴿إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾، والخروج لطلب العلم كالخروج للجهاد في سبيل الله عز وجل وقد جعل قسيمه في هذه الآية الكريمة.

١٩٤٢. كما تفيد توظيف الطاقات كل بحسبه لتحقيق أعلي مصالح الأمة في أولاها وأخراها.

١٩٤٣. تفيد أهمية وضع الأهداف والعمل الدؤوب علي تحقيقها.

١٩٤٤. مفردات قوله تعالي ﴿لِيَنفِرُواْ﴾ و ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ﴾ و ﴿إِذَا رَجَعُوٓاْ﴾ تفيد أهمية الحركة والنشاط والسعي في حياه المؤمن وما تثمر به هذه الحركة والسعي من مصالح في دينه ودنياه.

١٩٤٥. تفيد أن المسلمون كالبنيان يشد بعضهم بعضًا.

١٩٤٦. تفيد أهمية التعاون والتكامل بين أفراد وجماعات وكيانات ومجموعات الأمة كل بحسب تخصصه وما يتقنه.

١٩٤٧. أسلوب التحفيز المعلل: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾ ﴿وَلِيُنذِرُوا۟﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ﴾. وهذا من أكثر الأساليب إقناعا

١٩٤٨. تفيد إيجابية التنوع البشري كمصدر قوة للامة وتكامل للأدوار وتسخير الناس بعضهم لبعض.

١٩٤٩. تفيد أن المؤمنون وأهل الديانة ليس بينهم "متفرج" بل كل منهم له دور يقوم به ويصب في الرصيد الإيجابي للأمه وريادتها وسؤددها.

١٩٥٠. ترسم صورة لنموذج الداعية: نفير فتفقه فإنذار، عظمت المشقة فعظم الاجر.

١٩٥١. تفيد: أن الإنذار يستلزم تفقه في الدين، أما التبليغ فلا؛ لقوله عليه السلام: "نضر الله امرأً سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه [١].

١٩٥٢. تفيد: أن الفقه ما وزع عن محرم أو دعا إلى واجب"، وإنما الفقه في الدين فهم معاني الأمر والنهي ليستبصر الإنسان في دينه ألا ترى قوله تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ فقرن الإنذار بالفقه [٢].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:١٢٣].

١٩٥٣. تفيد في السياسة الشرعية البدء بقتال الأقرب لدرء شره، وفي ذلك تخويف وردع للأبعد وتفويت لاحتمال تحالفهما.

١٩٥٤. فيها توجيه الخطاب للذين آمنوا دون النبي إيماء إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يغزو بعد ذلك وأن أجله الشريف قد اقترب.

١٩٥٥. فيها أن القتال والجهاد في سبيل الله تعالى ليس للدفاع فقط وإنما منه ما هو للدفاع ومنه ما هو للطلب يحدد ذلك المصلحة الشرعية والقدرة عند المسلمين والا فالأصل

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٤/٥، وابن ماجة ٣٤/١، وصححه الألباني.

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى ١٣٨/٣

﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ ﴾ [الأنفال:٣٩] ولذلك قال العلماء (إن كان في المسلمين قوة فالمسايفة وان كان فيهم ضعف فالمسالمة.

١٩٥٦. الغلظة المقترنة بحال القتال لا تتنافى مع ما يأمر به الإسلام من عدم قتال النساء والصبيان والشيوخ.

١٩٥٧. تفيد: أن جهاد الكفار وقتالهم من تقوى الله عز وجل.... وأن الغلظة في قتال وجهاد هؤلاء الكفار هو من فقه الجهاد ومن أهم احكامه.. وأن هذه الغلظة هي مظانها الشرعية ومحمودة عند الله عز وجل.

١٩٥٨. تفيد أن الغلظة في جهاد الكفار مطلوبة ولابد أن تكون ظاهرة ﴿وَلۡيَجِدُواْ﴾ حتى يشعروا بها وتؤثر فيهم فتخور عزائمهم، وحتى يدركوا أن الأمر جد لا هوادة ولا مداهنة فيه.. هي من مظانها الشرعية.

١٩٥٩. فيها التنبيه على أن موقف القتال في سبيل الله مع أنه من أشرف شرائع الإسلام الا أن معية الله لا تستجلب الا للمتقين.. الجامعين بين الواجبات الظاهرة والباطنة.. فليس كل مقاتل في سبيل الله مستوف لشرف التقوى.

١٩٦٠. تشير جملة: ﴿وَلۡيَجِدُواْ﴾ الى أنه ليس من طبع المؤمن الغلظة، وإنما وضع مؤقت استلزمه الحال لإرعاب العدو، إخضاعه. وعليه متى ما انتهت الحاجة إليه انتهى الوضع وعاد المسلم هينا لينا، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقا لأخيه المؤمن، غليظا على عدوه الكافر، كما قال تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة:٥٤]

١٩٦١. تفيد: بضميمه ما قبلها حسن الإعداد والتخطيط وتهيئه المجاهدين بالقوي المادية والمعنوية ودراسة العدو وتخير الأولي واستمطار نصره الله بالدخول في معيته الخاصة لأوليائه المتقين.

١٩٦٢. تفيد التنبيه للعدو الأخطر المطلع علي العورات هو قتال الأقرب إلى دار الإسلام، وأقرب شر إلى الإنسان نفسه ﴿يَلُونَكُمۡ﴾.

١٩٦٣. فيها أن قرب موطن المسلمين من موطن الكفار لا يعني بذلك التهوين بأمر البراءة منهم.

١٩٦٤. تفيد أن (الأقربين أولى بالمعروف)، لقوله تعالى: ﴿يَلُونَكُم﴾، وبيانه: أن جهاد وقتال الأقربين إنما هو من أجل إسعادهم والإحسان إليهم بإدخالهم في دين الإسلام، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ثم إسعادهم في الآخرة، فكانوا أولى الناس بهذا المعروف، وقد التزم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم هذا الأمر فبدأوا بقتال قريش ثم الأقرب فالأقرب.

١٩٦٥. فيها دليل على المعية الخاصة وهي المعية المقتضية للنصر والتأييد والحفظ والتسديد ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾. فمتى تحققت التقوى في المقاتلين تحققت المعية الموعودة بالنصر والتأييد.

١٩٦٦. وفي التذييل أيضا؛ بالرغم من الأمر بالغلظة ولكنها لا تتعدى إلى ما حرمه تعالى كالتمثيل أو قتل الصبية والنساء وغيره، لذا ختتم بالحض على التقوى، بان صاحبها في معية المولى..

١٩٦٧. تذييل الآية تنبيه الى أنه بالرغم من الاخذ بالأسباب من التخطيط العسكري﴿يَلُونَكُم﴾ ومن الإعداد ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾؛ ولكن النصر أولا وأخيرا السبب الحقيقي فيه هي معية الله تعالى.

١٩٦٨. فيها أن تخصيص النداء لأهل الإيمان في بداية الآية وختمها بالتذكير بالتقوي أنس لقلوب وسكينه لأوليائه كل من كان مؤمنا تقيا كان لله ولياً في خضم قتال اعدائه.

١٩٦٩. فيه إشارة في قوله ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ للحرب الإعلامية وتأثير الحرب النفسية المعنوية علي العدو.

١٩٧٠. في تزييل الآية بالتقوي أيضا كابح لنفوس أوليائه من تجاوز الحدود في أمر الجهاد.

١٩٧١. تفيد مع ما قبلها أن الجهاد الذي يكون فرض كفاية يجب أن يقترن معه وجود غلظة وقوة مادية ومعنوية في المؤمنين المجاهدين، بحيث تؤثر في وجدان العدو ويحسب لها ألف حساب، وبهذا يمكن أن يؤتي الجهاد ثماره، ويحقق أهدافه ومقاصده العليا.

١٩٧٢. فيها أن الغلظة محمودة في موضعها.

١٩٧٣. قال الطيب المتنبئ:

١٩٧٤. ووضع الندى في موضع السيف بالعلا * مضر كوضع السيف في موضع الندى.

١٩٧٥. فالمؤمن يكون قوياً من غير عنف، ليناً من غير ضعف.

١٩٧٦. فيها أن التقوى من أعظم أسباب النصر في الجهاد.

١٩٧٧. ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤]

١٩٧٨. تفيد صفه العلو للرب جل وعلا يؤخذ من قوله تعالى ﴿أُنزِلَتۡ﴾: وقد ثبت علو الله بالأدلة السمعية من الكتاب والسنة بأنواعها الثلاث وإجماع الصحابة والفطرة والنظر الصحيح.

١٩٧٩. تفيد: أن أهل الإيمان كلما تعلموا شيئاً مما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ازداد إيمانهم بذلك؛ لأنهم يؤمنون بتصديقه وكما قال أبو بكر: "إن كان قال فقد صدق".

١٩٨٠. تفيد علامة فارقة من علامات مرض القلب وهي كون القرآن الذي هو شفاء إنما يكون سبب لاختلافهم عليه وضلالهم وزيغهم.

١٩٨١. تفيد أن النفاق مانع من موانع الانتفاع بالقرآن شفاء وهداية.

١٩٨٢. تفيد: إلى مبدأ العدل والانصاف في التعامل مع العدو والمخالف﴿فَمِنۡهُم﴾.

١٩٨٣. فيها ثمرة الإيمان بالله في تنوير البصيرة والاستعداد للمزيد منه من خلال الإيمان بايات الله المنزلة وغيرها من آياته الماثلة في النفس والكون من حولنا.

١٩٨٤. إشارة في الجملة الحالية﴿وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ إلى الارتباط الوثيق في وعي المؤمن بين آيات الله المتلوة وما تتضمنه من بشائر تسعده وتشد من عزيمته للمضي قدما في طريقه الى الله تعالى.

١٩٨٥. تفيد أن من عجائب القرآن أنه يضمن هذه المزية للمؤمنين في كافة العصور فالمؤمن لما يتلو القرآن لا ينفك عن بشرى تأتيه من خلال بشائر القرآن الهائلة فلا يزال في سعادة انتظار البشارات حتى تحط رحاله في رحاب الجنات.

١٩٨٦. تفيد أن الاستزادة من تعلم سور القرآن ينمي الاستبشار والاستزادة من القرآن ينمي الإيمان.

١٩٨٧. تفيد الدعوة إلى الانتفاع بالقرآن قراءة وتدبرًا واستهداء وعملًا به واستشفاء.

١٩٨٨. تفيد أنّ الإيمان سبب للاطمئنان؛ لأنّ الاستبشار من علامات الاطمئنان.

١٩٨٩. تفيد أن ذكر وتخصيص كلمه ﴿سُورَةٌ﴾ وهي "طائفة من آيات القرآن جمعت وضم بعضها إلى بعض حتى بلغت في الطول المقدار الذى أراده الله تعالى لها وتعلقها بزياده الإيمان يفيد التنبيه لتدبر وحده موضوع السورة الواحدة من سور القرآن وهداياتها.

١٩٩٠. فيها: ديدن أهل الكفر والفسق والنفاق في كل وقت السخرية والاستهزاء، وهذا نقص عندهم.

١٩٩١. فيها: أن على المؤمن أن يتفقد إيمانه في كل وقت وينميه.

١٩٩٢. فيها دليل على أن الإيمان يزيد وينقص لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا﴾.

١٩٩٣. تفيد وتتسق مع صحة منهج أهل السنة والجماعة في مسألة الإيمان زياره ونقصانًا والرد ضمنا علي المخالفين من الفرق الباطلة كالخوارج والمرجئة والمعتزلة.

١٩٩٤. فيها: الفرح بطاعة الله والتوفيق للطاعة وكذلك السنة، وهو من سبيل العارفين، بل من أعلى مقاماتهم.

١٩٩٥. بيان خصلة من خصال المنافقين وهي استغلال الفرص لبث سمومهم في جسد أبناء هذا الدين.

١٩٩٦. تفيد: الانصاف تقسيم المستقبلين إلى فريقين وبيان أثر نزول الآيات على كليهما (أما)..

١٩٩٧. يفيد البدء بالأثر السار المفرح فيه دعوة للإقبال وبيان لحسن المآل.

١٩٩٨. يفيد ما ذكر من خصال الإرجاف بالأقوال المضللة هو منهج ضعيفي القلوب وأهل النفاق...

١٩٩٩. تدل الآية على قوة المؤمنين وثباتهم ويقينهم أمام هذا الكم من التضليل ومن إثارة الشك في النفوس.

٢٠٠٠. تفيد: أن الحروب الكلامية من أعتى أنواع الحروب على النفس البشرية خاصة إن صادفت قلوبا واهنة تتشرب كل ما يقال لها.

٢٠٠١. تفيد أنه لم يجالس القران أحد إلا قام بزيادة أو نقصان كما قال قتادة؛ ولذا كان لابد للمرء أن يتفقد حاله عند قيامه من مجالسة هذا الكتاب العظيم.

٢٠٠٢. من ازداد إيمانا بالقرآن ازداد استبشارا هكذا هي أهلية القرآن، وهكذا هم أهل الله.

٢٠٠٣. فيها أن مواقف الناس من كلام الله يتحدد بحسب الإيمان وعدمه.

٢٠٠٤. فيها أن النفاق مرض خبيث يصرف قلب صاحبه عن الخير والنور.

٢٠٠٥. تفيد منهج أهل الكفر والنفاق والفرق الضالة من استهداف مصادر التلقي وأجلها القرآن.

٢٠٠٦. فيها استهانة المنافقين بالقرآن الكريم دل على ذلك قولهم: ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ وهذا من أسباب الضلال، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:١٠٤].

٢٠٠٧. فيها حاجة المؤمن لزيادة إيمانه ومن وسائل ذلك قراءة وتدبر سور القرآن الكريم؛ لقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾.

٢٠٠٨. فيها: أن ذكر الاستبشار بصيغة المضارع يدل على أنهم مستبشرون بالقرآن دائما وباستمرار. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٥]

٢٠٠٩. فيها دلالة على أن صاحب القلب المريض يزداد مرضا كما يزداد سليم القلب سلامة.

٢٠١٠. ليس كل دواء نفع مريضا يلزم أن يصلح للآخرين.

٢٠١١. تفيد أنّ الموت على الكفر هو المصيبة العظمى؛ لأنه يُغلق على المرء باب التوبة، ويجعل مصيره نار جهنم.

٢٠١٢. تفيد أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلال المنافقين ودمارهم.

٢٠١٣. فيها أن الداء متأصل فيهم، إنما حرموا الانتفاع بأعظم الدواء، لعظم الداء.

٢٠١٤. فيها أن الله ذكر في هذه الآية والتي قبلها جزائيين متقابلين لصنفين متقابلين أيضا من الناس فأما المؤمنون فكان جزاؤهم من جهتين: زادتهم إيمانا ماتوا على الإيمان ﴿وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، وقابل المؤمنين المنافقون فكان لهما عقابان ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ ماتوا على الكفر ﴿وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾. فحجب عنهم باب التوبة.

٢٠١٥. فيها أن تلاوة القرآن بالتدبر والعمل من أهم أسباب زيادة الإيمان وأن مزيد التكذيب لآيات القرآن يزيد في الكفر والإضلال..

٢٠١٦. فيها أنه كما أن الإيمان يزيد بالطاعات فيزيد بزيادة شعبه فكذلك الكفر يزيد بالتكذيب والمعاصي فيزيد بزيادة شعبه.

٢٠١٧. فيها دليل على تفاضل أهل الإيمان فيه، وتمايز أهل الكفر فيه فهم ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ [آل عمران:١١٣]

٢٠١٨. تفيد بضميمه ما قبلها أنه كما أن الأيمان درجات يترقي فيها المسلم فإن الكفر دركات.

٢٠١٩. تفيد أن فساد النية وسوء الطوية من موانع التوفيق ومن أعظم أسباب الخذلان، وأي خذلان أعظم من أن يحرم الإنسان الهداية وعدم الانتفاع بالقرآن ويموت على الكفر، فمع وضوح الحق، وجلائه فإنه لا يراه ولا يهتدي إليه.

قال ابن القيم رحم الله في النونية:

فالحق شمس والعيون نواظر ... لكنها تخفى على العميان

والقلب يعمى عن هداه مثل ما ... تعمى وأعظم هذه العينان

٢٠٢٠. تفيد أن القلوب يصيبها المرض كما الأجساد، بل هو أفدح وأنكي من أمراض الأجساد، لأن مرضها الشبهات والشهوات.

٢٠٢١. فيها غفلة كثير من الناس فإنهم يبكون على من مات جسده، ولا يبكون على من مات قلبه، شتان بين من طغى وآثر الحياة الدنيا، وبين من خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى.

٢٠٢٢. فيها إشارة إلى العناية بالقلوب وعلاج أمراضها فهي أخطر من أمراض الأبدان، والهلاك بموتها هلاك أبدي.

٢٠٢٣. تفيد: بضميمه ما قبلها ذكر الله الداء " داء الشبهات" ويتضمن هنا النفاق والتكذيب والريبة والشك وكذلك ذكر الشفاء الرباني وهو القرآن.

٢٠٢٤. أفادت الآيات أن الأعراض لمرضي القلب من عدة جوانب منها: – مقابله خبر الله عز وجل بالتكذيب والتشكيك وأيضا الاستهزاء من أهل الإيمان إضافة إلى تعطل وظيفة القلب فلا " يعرف معروفا ولا ينكر منكرا " حينها فلا أمل في انتفاعه بالدواء الرباني.

٢٠٢٥. تدل على عظمة القرآن الكريم فآياته إما أن تزيد الإنسان إيمانا إذا كان مؤمنا أو تزيده رجسا إذا كان منافقا؛ ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فُصِّلَت:٤٤]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "والقرآن حجة لك أو عليك"(١).

٢٠٢٦. فيها بيان خطر النفاق وأنه يتمادى بالإنسان حتى يموت كافرا.

٢٠٢٧. تفيد خطورة الإعراض عن هدى القرآن فإن مريض القلب يزداد مرضا إذا ما أنزلت سورة إذا ردها وأعرض عنها؛ لأن زيادة مرضها ليس بسبب نزولها ولكن بسبب اعراضه وعدم انتفاعه بما في القرآن من الهدى والنور.

قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة:١٢٦].

٢٠٢٨. تفيد أن الفتن والابتلاءات نذر من الله للتوبة والتذكر.

٢٠٢٩. فيها: بيان سنة الله عز وجل في عباده ابتلاءهم بالأمراض والشدائد بالسراء والضراء ليرجعوا إليه ويؤبوا ويتضرعوا.

٢٠٣٠. فيها أن من حكم الابتلاءات وثمراتها الكثيرة التنبيه للتوبة والأوبة والتذكر قبل فوات الأوان.

٢٠٣١. تفيد بأهمية الانتباه والرؤية العميقة لما يدور حول الإنسان من تغيرات.

٢٠٣٢. تفيد بأهمية تقييم الأحداث والظواهر والنظر لأبعادها الامتحانية للفرد والمجتمع والأشياء والمخلوقات الأخرى في الكون.

٢٠٣٣. تفيد بأهمية التقييم الذاتي، ومحاسبة العبد نفسه قبل أن يحاسب.

٢٠٣٤. تفيد بأن من أفضل أساليب مواجهة المواقف الضاغطة التفريغ النفسي الانفعالي والاعتراف بالخطأ بين يدي الله عز وجل..

٢٠٣٥. تفيد التنبيه إلى سنن الله في كونه وخلقه ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ﴾ .

٢٠٣٦. تفيد أن سنن الله لا تستثني أحد ولا تحابي أحدا.

---

(١) رواه مسلم..

٢٠٣٧. تفيد فضل التوبة وأثرها وفوائدها.

٢٠٣٨. تفيد جملة: ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ أنه ما نزل بلاء الا بذنب وما رفع الا بتوبة.

٢٠٣٩. تشـــير إلى أهمية معرفة تواريخ الأحداث؛ لأنه ذكر العام وذكر فيه الحدث وهو فتنتهم مرة أو مرتين.

٢٠٤٠. تفيد مع ما قبلها أن تدبر ســـور القرآن الكريم والتأمل فيها تزيد المؤمن بصـــيرة ونورا ومعرفة بوجوه الفتن وأصـناف المفتونين، وكيفية تعاملهم وتصـرفهم تجاه تلك الفتن؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ في قراءة حمزة ويعقوب؛ أي: أولا ترون -أيها المؤمنون بما حباكم الله تعالى من إيمان ونور بصـيرة وتدبر في الســور القرآنية - أن هؤلاء يفتنون في كل عام.

٢٠٤١. تفيد مع ما قبلها وجوب المبادرة إلى التوبة، وعدم التقاعس والتكاســـل عنها إذ ذلك سبب في مزيد انغماس العبد في الضـلالة والغواية بل وتودي به إلى الخاتمة السيئة، والعياذ بالله، لقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

٢٠٤٢. تفيد ضـرورة اتعاظ المؤمن بما يصـاب به أهل المعاصـي والمنكرات من الفتن والمصـائب والابتلاءات في دينهم ودنياهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾

٢٠٤٣. يفيد التعبير بقوله تعالى: ﴿يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ﴾ دون قوله (في كل ســنة)، إشــارة لطيفة إلى أن الزمن الخصـــب والعيش الرغيد والحالة الحســـنة أكثر ما يكون فيه أهل المعاصـــي والآثام بعدا عن الله تعالى، وإصـرارا على المعاصـي والمنكرات؛ ويشـهد له قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ [الأعراف:٩٥] أي: قالوا: كما مســنا الضراء والسراء فقد مس آباءنا كذلك ممن لم تجئهم الرسل، وأن ذلك ما هو إلا عادة من عوائد الدهر، وعارض من عوارض الزمان.

٢٠٤٤. تفيد محبة الله تعالى من عباده التأمل والتوســم في الأشــياء والاســتدلال بالعقل والنظر بالمسببات على الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر:٧٥]..

٢٠٤٥. فيها أن النفاق والكفر والشرك يضعف البصيرة وينقص العقل فلا ينتبه لمواقع العبر ولا يتذكر عند الفتن...

٢٠٤٦. إيثار المضارع في قوله: ﴿يُفْتَنُونَ﴾، ﴿يَتُوبُونَ﴾، ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ يدل على استمرار الفتن واستمرارهم في الغفلة وعدم التوبة والتذكر.

٢٠٤٧. تفيد التحذير من الفتن وأن على المؤمن أن يكون منتبها يقظا يحذر الفتن ويدعو الله تعالى أن يعصمه من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

٢٠٤٨. فيها الحث على التوبة خصوصا عند التعرض للفتن؛ قال تعالى عن داود عليه السلام: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩﴾[ص:٢٤]، وقال عن سليمان عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي﴾[ص:٣٤-٣٥]..

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:١٢٧].

٢٠٤٩. تفيد أهمية تعلم لغة العيون والأجساد والحركات؛ لقوله تعالى: ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، ولم يقل: (قال بعضهم لبعض هل يراكم....)، أي: أنهم استخدموا في هذا الاجتماع الإيماني لغة العيون والحركات لتنفيذ مخططهم النفاقي بصورة جماعية لا يشعر به أحد من المؤمنين.

٢٠٥٠. تفيد خطورة المنافقين وأنهم قد يستخدمون بعض الأساليب الخفية الماكرة للتأثير على أنفسهم وعلى الآخرين ممن حولهم، لقوله تعالى: ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ﴾..

٢٠٥١. تفيد ضرورة مراقبة تحركات المنافقين، ومعرفة مداخلهم ومخارجهم وتعلم لغاتهم وشعاراتهم من قبل المؤمنين وأجهزة الدولة، وعدم إتاحة الفرصة لهم للتأثير على الأجواء الإيمانية المفعمة بالأمن والأمان والسعادة والراحة التي يعيشها المجتمع المؤمن، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾.

٢٠٥٢. تفيد الآية مدى فعالية التعبير بالوجه وخاصة استخدام العيون في توصيل الرسائل مما يدعو لاستخدامها في التواصل الدعوي والتعليمي في الإعلام والتعليم والمنابر الدعوية. ويعني كذلك صدق تعبيرات الوجه في التعبير عن الحالات النفسية، فنظر المنافقين لبعضهم بعضا

للاستفسار عن رؤية الآخرين لهم تدل على يقينهم أن من يراهم سيعرف من وجوههم ما أبطنت وانطوت عليه دواخلهم..

٢٠٥٣. تفيد الآية أن الانصراف إلى القرآن بالنظر والتدبر يؤدي لزيادة التفقه مما يؤكد تنميته للعمليات العقلية العليا.

٢٠٥٤. تشير الآية إلى أهمية القرآن في تحقيق الاتساق التام لشخصية الانسان بأبعادها المختلفة وذلك كما يلي:في عمليات السلوك الخارجي (التعبير بالنظر. وفي الميل الداخلي من خلال العاطفة والوجدان (الارتباط القلبي) ومن خلال التفكير والعمليات العقلية (التفقه) فهذه الإشارات المجملة في هذه الآية أجريت عنها آلاف الدراسات والتجارب النفسية والتربوية. فما أعظم هذا الكتاب ويا لعمق آياته.

٢٠٥٥. تفيد أن المنافقين يتحينون الفرص، وينتظرون الوقت المناسب لتنفيذ مخططهم ولو كان بعيدا المدى ومتراخي الزمان؛ لقوله تعالى: (﴿نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾ ولم يقل: (فانصرفوا).

٢٠٥٦. لدلالة حرف الفاء على الفورية وثم للتراخي، قال ابن مالك في الخلاصة:

والفاء للترتيب باتصال وثم للترتيب بانفصال

٢٠٥٧. تفيد التأكيد على خوف المنافقين وجبنهم وهلعهم من افتضاح أمرهم وانكشاف مستورهم؛ عن طريق أي أحد كائنا من كان؛ لقوله تعالى: ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾، دون (هل يراكم أحد)..

٢٠٥٨. تفيد جواز حذف ما يعلم من السياق؛ لقوله تعالى: ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٍ﴾ أي: من المؤمنين.

٢٠٥٩. تفيد سوء أدب المنافقين مع الله تعالى؛ إذ يحتمل كلامهم فيما بينهم ﴿نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٍ﴾ أنهم لا يؤمنون برؤية الله تعالى لهم ولا يؤمنون بعلم الله بما يقومون به من أفعال شنيعة، ولهذا قال تعالى في آية أخرى: ﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء:١٠٨]..

٢٠٦٠. تفيد الحذر من المنافقين حال حضورهم إلى مجالس أهل العلم والخير والفضل والصلاح فهم ليس لهم حاجة إلا لسماع ما يريدونه وتطرب به أسماعهم، وحتى وإن ثبتوا في أماكنهم ولم ينصرفوا بأجسادهم إلا أنهم سوف ينصرفون بعقولهم وأفكارهم عن سماع ما فيه الخير والصلاح إلى الوقوع والطعن فيما سمعوه، إما حالا عن طريق نظرات الاستهزاء والاستهجان والسخرية، وإما مآلا بعد خروجهم من تلك المجالس؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾ أي: انصرفوا إما بأجسادهم، أو بعقولهم وأفكارهم.

٢٠٦١. تفيد أن الإكثار من التعلق بالقرآن والإقبال عليه والإكثار من مدارسته سيؤدي إلى كشف المنافقين ودفعهم للابتعاد عن المؤمنين وانصرافهم عن مجالسهم.

٢٠٦٢. تكرار كلمه ﴿سُورَةٞ﴾ تفيد وتنبه لوحده موضوع سوره التوبة وهي "الفاضحة" لأحوال المنافقين بما يتناغم مع كل ما ذكر من أحوال وأقوال وحركات وهيئات.

٢٠٦٣. تفيد توجيه الدارسين والباحثين في أمر النفاق وأحوال المنافقين لاتخاذ هي السورة ماده بحث.

٢٠٦٤. فيها أن الجزاء من جنس العمل؛ فلما انصرفوا عن آيات الله عز وجل صرف الله قلوبهم عن الانتفاع بها والاهتداء بهديها، ولا يظلم ربك أحدا.

٢٠٦٥. نسبه صرف القلوب ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ لله عز وجل تفيد أن أمر القلوب لله وحده يصرفها كيف يشاء وهو ما يدعوا للاستعانة به والتضرع اليه لتحقيق سلامه القلوب وتثبيتها علي الدين والاستقامة.

٢٠٦٦. قوله تعالى: ﴿نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾ فيها تصوير لحجم الرعب والخوف الذي حل بالمنافقين بسبب الآيات التي تتنزل بشأنهم.

٢٠٦٧. تفيد الآية جهل المنافقين بنبوته صلى الله عليه وسلم وأن الله يطلعه على ما يشاء من غيبه" [١].

---

(١) تفسير القرطبي ٨/٢٩٩.

٢٠٦٨. قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ تفيد التحذير الشديد من الانصراف عن تدبر القرآن، لأن هؤلاء صرف الله قلوبهم لعدم تدبرهم للقرآن وعدم انصافهم" (١).

٢٠٦٩. فيها إثبات العلو للعلي الغفار؛ لقوله: ﴿أُنزِلَتْ﴾ والنزول لا يكون إلا من علو...

٢٠٧٠. فيها تقسيم القرآن الكريم إلى سور وآيات وفي هذا فوائد عظيمة في التدبر والفهم والحفظ واستخراج الهدايات.

٢٠٧١. فيها أن النفاق قائم على الخفاء والغدر والخيانة؛ لقوله: ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾.

٢٠٧٢. فيها الحرص على القلب والبعد عما يصرفه عن الهداية والرشاد؛ لأن هؤلاء صرف الله قلوبهم، وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: "يا مصرف القلوب صرف قلبي إلى طاعتك" (٢).

٢٠٧٣. فيها أن من صفات المنافقين عدم الفقه في الدين؛ لقوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

٢٠٧٤. تفيد أن عدم الانتفاع بالقرآن الكريم والانصراف عنه من صفات المنافقين.

٢٠٧٥. تفيد أن من صفات المنافقين عدم الاستفادة من الابتلاء ومما يزيد الإيمان ويقرب إلى الله تعالى.

٢٠٧٦. تفيد أن من صفات المنافقين عدم الصبر والجلوس في المكان الذي تقرأ فيه آيات الله، فهم ينصرفون عنه لغيره.

٢٠٧٧. تفيد أهمية فهم وتدبر القرآن وهو الذي يدفع للإقبال عليه وتعلمه والعمل به.

٢٠٧٨. تفيد أن الخير كله في الإقبال على تعلم القرآن وفقه ما جاء فيه.

٢٠٧٩. تفيد أن المحروم من صرف عن تعلم القرآن في حياته، وانشغل بغيره مما لا يعود بنفع عليه في دينه.

٢٠٨٠. تفيد أن أهل الباطل يزين بعضهم لبعض ما فيه ويشجع بعضهم بعضا على هجر القرآن والبعد عن مجالس الخير..

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٢/٤٧٦.

(٢) أخرجه مسلم ٤/٢٠٤٥.

٢٠٨١. تفيد أن المنافقين لا يعرفون قدر القرآن ولا قدر من أنزل عليه ولا أهميته وأثره في حياتهم لذا انصرفوا عنه.

٢٠٨٢. تفيد ذم الانصراف عن الخير خاصة مجالس العلم من باب الكراهية لها.

٢٠٨٣. تفيد كمال علمه تعالى بكل حركة تكون في الكون ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩].

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

٢٠٨٤. فيها منة الله عز وجل العظيمة على خلقه بإرسال هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم؛ لقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ فهو قد أتاهم في أماكنهم ولم يتكلفوا الرحيل إليه.

٢٠٨٥. تفيد عظم هذه النعمة التي امتن الله بها على عباده هي أكبر النعم؛ بل أجلها وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم الذي أنقذهم الله به من الضلالة وعصمهم به من التهلكة"[(١)].

٢٠٨٦. تفيد مع ما قبلها بيان غباء المنافقين وشدة غبنهم وخسارتهم إذ انصرفوا عن مجلس خير الأنبياء وأشرف الرسل، انصرفوا عن مجلس من هذه شمائله الحميدة وخصاله المجيدة وأوصافه العظيمة المذكورة في هذه الآية.

٢٠٨٧. أن الواجب على الداعية أن يكون مشفقًا على مدعويه، وله في الرسول صلى الله عليه وسلم الأسوة والقدوة الحسنة.

٢٠٨٨. فيها: الرحمة العظيمة التي كان يتحلى بها النبي صلى الله عليه وسلم.

٢٠٨٩. فيها: عظيم خلقه صلى الله عليه وسلم في حرصه الشديد على الناس وخشيته عليهم أن يقعوا في المهالك إن هم أعرضوا عن دعوته وصدوا عن سبيله.

٢٠٩٠. فيها: أن من صفاته عليه الصلاة والسلام التي وصفه بها ربه عز وجل أنه شديد الرأفة والرحمة بالناس وذلك بحرصه الشديد على ايصال الخير لهم ودعوته والنصح لهم.

---

(١) تفسير السعدي١/١٥٥.

٢٠٩١. فيها: تعريض بتحريضهم على اتباعه وترك مناواته وأن الأجدر بهم الافتخار به والالتفاف حوله كما قال تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ (١) [الزُّخرُف:٤٤].

٢٠٩٢. فيها: التَّذكير بالمِنَّة العُظمى والهديَّة الكُبرى للعالم، وهي بعثة النبي محمد، صلى الله عليه وسلم.

٢٠٩٣. فيها التَّنويه بصفاته الجامعة للكمال، وهي:كونه من نسب العرب، أو كونه من أشرفهم على قراءة من فتح الفاء في ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾ وكونه يشق عليه مشقة أمته أو هلاكهم وكونه حريص على هدايتهم وكونه رحيم بهم وشديد العناية والشفقة عليهم.

٢٠٩٤. فيها تشريف الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بوصفه بإثنين من أسمائه الحسنى وهي الرحمة والرأفة.

٢٠٩٥. تفيد: أن هؤلاء المنافقين وهم يشاهدون الرسول ولا يؤمنون به، أن في باطنهم دلالة ظاهرة على فقدانهم لنعمة كبيرة وهبها الله لهم فأعرضوا عنها.

٢٠٩٦. تفيد أن بعض صفات الله تعالى كالرأفة والرحمة يصح إطلاقها على المخلوق لكنها في حق الله تعالى أكمل كما يليق بجلال ربنا وعظمته سبحانه وتعالى.

٢٠٩٧. تفيد تحريض المؤمنين للتأسي بالرسول صلي الله عليه أخذا بهدايات الأسماء والصفات فيما يتعلق بإسمي الرب جل وعلا "الرؤوف الرحيم" وذلك أن يشتقوا من كمال الله كمالًا يتقربون به إلي الله عز وجل كما هو خلق النبي الموصوف ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾

٢٠٩٨. تفيد موالاه أهل الإيمان وخفض الجناح لهم ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

٢٠٩٩. تفيد حرص الأنبياء واتباعهم من الدعاة على هداية الخلق.

٢١٠٠. تفيد أن اتباع النبي صلي الله عليه وسلم كما أخبر شيخ الإسلام " يعرفون الحق ويرحمون الخلق.

٢١٠١. تفيد بث الطمأنينة في نفوس المؤمنين إلى أن كل ما سبق رغم أن ظاهره الشدة الا أنه من رسول مشفق محب رؤوف رحيم، فتظهر ههنا أن هذه الشدة مبطنة برحمة ونفع لهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٧١/١١.

٢١٠٢. ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، و﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، و﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ و﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فهذه خصال إن استوعبها الإنسان فهو يندفع إلى اتباع هذا الرسول" [(١)]..

٢١٠٣. فيها مراعاة الخصائص النفسية والاجتماعية في اختيار الدعاة والمعلمين.

٢١٠٤. جاءت الآية بعد ذكر أخلاق المنافقين وصفاتهم ففيها تعريض لهم ولغيرهم بالتوبة والإيمان بهذا الرسول الذي يتصف بهذه الصفات العظيمة ولذلك ناسب ذكر قوله في الآية التالية ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ [التوبة:١٢٩] أي بعد كل هذه التوجيهات والنصائح" [(٢)].

٢١٠٥. تفيد باعتبار مرجع الضمير في ﴿جَآءَكُمْ﴾ للعرب كما هو قول الجمهور فيما نقله ابن عطية ورجحه ابن جرير فإن هذه الآية تفيد المدح الإشفاق على غير المسلمين لعدم إيمانهم وما ينالهم من جهد جراء تكذيبهم وكفرهم... وأن هذا الإشفاق المدلول عليه بقوله تعالى ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ لا ينافي الإيمان لا في أصله ولا في كماله.

٢١٠٦. أهمية الحرص على الكافرين لدعوتهم للحق وهدايتهم لما ينفعهم في دنياهم وأخراهم.

٢١٠٧. فيها أسلوب من أساليب البلاغة وهو براعة الختام فإن هذه الآية الكريمة مع التي بعدها بمثابة بيان ختامي للعباد بنهاية هذه السورة المباركة، حيث اشتمل البيان في مجمله على محورين: الأول: الترغيب في طاعة الله وطاعة ورسوله صلى الله عليه وسلم؛ والترغيب في محبة الله تعالى ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم. الثاني: التحذير من معصية الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. وقد فصل البيان في الترغيب في الطاعة بما يلي: -استفتاح البيان بتأكيد الخبر بلام القسم، وحرف التحقيق ﴿لَقَدْ﴾؛ ليقع موقعه في النفوس تعظيما، وإجلالاً؛ وفي هذا لطف هداية بتهيئة المخاطبين قبل إلقاء الخطاب عليهم؛ لا سيما إذا كان الخطب جللاً. العناية بالمخاطبين، وإظهار الاهتمام بهم من خلال ضمير المخاطبين ﴿جَآءَكُمْ﴾ قوة الالتفات إلى الرسول عليه الصلاة والسلام من خلال قوله ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ ليدل على القرب، وحب الخير لهم كحبهم لأنفسهم؛ وجاء تفصيل هذا القرب من خلال.

---

(١)الشعراوي٩/٥٦١٥.

(٢)ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور٩/٦٠.

٢١٠٨. تفيد أن الشريعة المحمدية مبنية على مبدأ دفع المفاسد والمضار، وجلب المصالح والمنافع؛ لقوله تعالى عن صفات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فالرؤوف من الرأفة وهي شدة الرحمة ومن آثارها دفع المضار والمفاسد، والرحيم من الرحمة، ومن آثارها: جلب المنافع والمصالح..

٢١٠٩. يفيد تقديم الرأفة على الرحمة في قوله تعالى: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ إشارة إلى أن دفع المفاسد والمضار مقدم على جلب المصالح والمنافع، وهذه قاعدة فقهية أصولية مشهورة..

٢١١٠. تفيد أن حق النبي صلى الله عليه وسلم مقدم على حقوق الوالدين وسائر الخلق، لكونه عليه الصلاة والسلام أرأف وأرحم الخلق بالخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

٢١١١. تفيد أن الشريعة المحمدية مبنية أحكامها على التيسير ورفع الحرج، لقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: شديد عليه ما يلحقكم من المشاق والحرج، ولا أدل على ذلك ما روي في قصة ليلة الإسراء من سعيه عليه الصلاة والسلام إلى تخفيف عدد الصلوات المفروضة على أمته، من خمسين صلاة إلى خمس صلوات في اليوم والليلة..

٢١١٢. فيها أن كون الرسول من أنفسهم منَّة أخرى ليسهل التلقي عنه والاقتداء به، ولأنهم يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته.

٢١١٣. فيها الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في الرأفة والرحمة بالمؤمنين، وقد قال الرحمة المهداة صلى الله عليه وسلم: "وَأَهْلُ الجَنَّةِ ثَلاثَةٌ ذُو سُلْطانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ القَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيالٍ" (١).

٢١١٤. تقوم علاقة المعلم مع المتعلم على أربعة أسس: أن يشعر كل من الطرفين بالانتماء للآخر. --حرص المعلم على المتعلم وعلى ما ينفعه - أن يشعر بمعاناة المتعلم وأن يتألم مما يتألم منه ويتفاعل مع مشاكله وهمومه- أن يخص المتميزين النابهين المتفوقين بمزيد اهتمام [التحفيز].. هذه هي مقومات التعلم الناجح: انتماء حرص تفاعل تحفيز﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم ٤/٢١٩٧.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩].

٢١١٥. فيها: مناسبة دقيقة لما ذكر من آيات؛ فإنه – صلى الله عليه وسلم – أفرغ الوسع في دعوتهم وجهادهم بالقرآن، ثم فوض الأمر إلى ربه، وسأل حفظه وأثبت له العلو. وقول الله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح:٥، ٦]

٢١١٦. تفيد عظم هذه الكلمة التي قالها الخليلان فقد قالها سيدنا إبراهيم حين وضع في النار وسيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام حين قالوا له ان الناس قد جمعوا لك.

٢١١٧. تفيد مع ما قبلها أن بعض الناس من أصحاب القلوب المريضة والعقول السخيفة قد تفر وتهرب ممن يرحمها ويرأف بحالها ويراعي مصالحها ويحرص على إصلاح شؤونها..

٢١١٨. تفيد: فضلها فقد جاء في الحديث أنه قد جاء في فضل هذه الآية، قوله عليه الصلاة والسلام: «مَن قالَ حِينَ أصْبَحَ وحِينَ يُمْسِي: حَسْبِيَ اللَّهُ لا إلَهَ إلّا هو عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وهو رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ سَبْعَ مَرّاتٍ كَفاهُ اللَّهُ تَعالى ما أهَمَّهُ مِن أمْرِ الدُّنْيا والآخِرَةِ» وفي رواية «مَن قالَ حِينَ يُصْبِحُ سَبْعَ مَرّاتٍ: حَسْبِيَ اللَّهُ لا إلَهَ إلّا هو إلَخْ لَمْ يُصِبْهُ في ذَلِكَ اليَوْمِ ولا تِلْكَ اللَّيْلَةِ كَرْبٌ ولا نَكْبٌ ولا غَرَقٌ» (١).

٢١١٩. تفيد أنّ العظيم سبحانه لا يتعاظم عليه أمر، وعليه فينبغي على المرء أن يعلق قلبه بالله في كل أموره، وأن يشكو همومه وغمومه إلى الله فهو القادر على رفعها وإن عظمت، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ [الأنعام:١٧].

٢١٢٠. تفيد أنه قد تتوافر في الداعية عظيم المزايا والخصال ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ويقابل بالإعراض والصد؛ فليكن حاضرا ومستعدا لكل الردود، وليكن سلاحه هذا الدعاء.

٢١٢١. تفيد أن أمر القلوب وعلاجها وهدايتها واستقامتها من أجل ما يستعان فيه بالله تعالى لأن أمر ذلك كله بيد الله.

---

(١) رواه ابن النجار في تاريخه.

٢١٢٢. تفيد أن التوكل علي الله في أمر الديانة والآخرة أجل وأولي من التوكل علي الله في أمر المعاش والكسب الدنيوي.

٢١٢٣. تفيد أن المؤمن يكون أحوج ما يكون لله حال تولي الناس عنه وإعراضهم عن دعوته.

٢١٢٤. فيها تسليه المؤمن أن الله كافيه وحسبه وعضده حال تولي الناس عنه متي ما أقبل إليه وتوكل عليه.

٢١٢٥. قد تشعر الآيات السابقة النبي عليه السلام قد دب إليه شيء من الإحباط لوجود المنافقين من حوله وعدم قدرته على ادخالهم في الاسلام، فجاءت الآية السابقة لتبين له عليه السلام ان العلة ليست فيه، وفي ذلك تسلية له، ثم جاءت الآية لتوضح له العلاج.

٢١٢٦. حقيقة التوكل مرتبطة دوماً بالعمل، فبعد أن بذل عليه السلام وسعه معهم، جاء التوكل.

٢١٢٧. فيها استحضار معية الله عز وجل والتوكل عليه وهي من أعلى مقامات العبودية وأرقاها وأجلها.

٢١٢٨. تفيد على الداعية مراجعة نيته في عمله وجهاد الكافرين وكافة المدعوين ليس عليك هداهم وما على الرسول إلا البلاغ فإن تولوا واديت فلا عليك فقد يرضى ربك.

بحمد الله تعالى

وبهذا تمت سورة التوبة في ٢١٢٨ هداية

بتاريخ ١٤٤١/٨/٣٠هـ

ولله الحمد والمنة ومنه التوفيق والعصمة.

تلخيص دكتور محمد عبدالرازق مصطفى